ليبيا

في كتب الجغرافية والرحلات

اختيار وتصنيف

الدكتور محمد يوسف نجم

الدكتور احسان عباس

الناشر

دار ليبيا للنشر والتوزيع

بنغازي

المؤلفات الجغرافيّة

كتاب البلدان لليعقوبي

المغرب

[٣٤٢] فأما من أراد أن يسلك من مصر إلى بَرْقَة وأقاصي المغرب نفذ من الفسطاط في الجانب الغربيّ من النيل حتّى يأتي ترْنُوط ثم يصير إلى منزل يُعرف بالمنى قد أقفر أهله ، ثم إلى الدير الكبير المعروف ببُومِينا وفيه الكنيسة الموصوفة العجيبة البناء الكثيرة الرخام ، ثم إلى المنزل المعروف بذات الحُمام وفيه مسجد جامع وهو من عمل كورة الاسكندريّة ثم يصير في منازل لبني مُدلِج في البرّيّة بعضها على الساحل وبعضها بالقرب من الساحل منها المنزل المعروف بالطاحونة والمنزل المعروف بالكنائس والمنزل المعروف بجُبّ العَوْسَج ، ثم يصير في عمل لُوبيَة وهي كورة تجري مجرى كور الاسكندريّة منها منزل يُعرف بمنزل معن ، ثم المنزل المعروف بقصر الشَّمّاس ، ثمّ خربة القوم ، ثم الرَّمّادة وهي أوّل منازل البربر يسكنها قوم من مَزاتة وغيرهم من العجم القُدُم وبها قوم من العرب من بليّ وجُهَينة وبني مُدْلِج وأخلاط ، ثم يصير إلى العَقَبة وهي على ساحل البحر المالح صعبة المسلك حزنة خشنة مخوفة فإذا علاها صار إلى منزل يُعرف بالقصر الأبيض ، ثم مغاير رَقيم ، ثم قصور الروم ، ثم جُبّ الرمل ، وهذه ديار البربر من ماصلّة بن لُواتة وأخلاط من الناس ، ثم يصير إلى وادي مَخيل وهو منزل كالمدينة به المسجد الجامع وبرك الماء وأسواق قائمة وحصن حصين وفيه

أخلاط من الناس وأكثرهم البربر من ماصلّة وزنّارة ومصعوبة ومراوة
[٣٤٣] وفطيطة، ومن وادي مخيل إلى مدينة / برْقة ثلاث مراحل في ديار البربر من مراوة ومفرطة ومصعوبة وزكودة وغيرهم من بطون لواتة.

بَرْقة

ومدينة برْقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وهي مدينة عليها سور وأبواب حديد وخندق، أمر ببناء السور المتوكّل على الله، وشرب أهلها ماء الأمطار يأتي من الجبل في أودية إلى برك عظام قد عملتها الخلفاء والأمراء لشرب أهل مدينة برقة، وحوالي المدينة أرباض لها يسكنها الجند وغير الجند، وفي دور المدينة والأرباض أخلاط من الناس وأكثر من بها جند قُدم قد صار لهم الأولاد والأعقاب، وبين مدينة برقة وبين ساحل البحر المالح ستّة أميال، وعلى ساحل البحر مدينة يقال لها أجيبة بها أسواق ومحارس ومسجد جامع وأجنّة ومزارع وثمار كثيرة وساحل آخر يقال له طُلْمَيْثة ترسى المراكب فيه في بعض الأوقات. ولبرقة جبلان أحدهما يقال له الشرقيّ فيه قوم من العرب من الأزد ولَخْم وجُذام وصَدف وغيرهم من أهل اليمن، والآخر يقال له الغربيّ فيه قوم من غسّان وقوم من جُذام والأزد وتُجيب وغيرهم من بطون العرب وقرى بطون البربر من لُواتة من زكودة ومفرطة وزنارة، وفي هذين الجبلين عيون جارية وأشجار وثمار وحصون وآبار للروم قديمة، ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون من البربر ولها من المدن بَرْنيق وهي مدينة على ساحل البحر المالح ولها ميناء عجيب في الاتّفاق والجودة تحوّزُ فيه المراكب، وأهلها قوم من أبناء الروم القُدم الذين كانوا أهلها قديماً وقوم من البربر من تَحْلالة وسوة ومسوسة ومغاغة وواهلة وجدانة،

[٣٤٤] وبرنيق من مدينة برقة على مرحلتين ولها أقاليم منسوبة إليها، ومدينة أجْدابيّة وهي مدينة عليها حصن وفيها مسجد جامع وأسواق قائمة، من برنيق إليها مرحلتان ومن برقة إليها أربع مراحل، وأهلها قوم من البربر من زنارة وواهلة ومسوسة وسوة وتَحْلالة وغيرهم وجدانة وهم الغالبون عليها، ولها أقاليم وساحل على البحر المالح على مقدار ستّة أميال من المدينة ترسى به المراكب وهي آخر ديار لواتة من المدن، وبطون لواتة يقولون إنّهم من ولد لواتة ابن برّ بن قيس عيلان، وبعضهم يقول إنّهم قوم من لخم كان أوّلهم من أهل الشأم فنقلوا إلى هذه الديار، وبعضهم يقول إنّهم من الروم.

سُرْت

ومن مدينة أجدابيّة إلى مدينة سُرْت على ساحل البحر المالح خمس مراحل مرحلة منها من ديار لواتة وفيهم قوم من مزاتة وهم الغالبون عليها منها الفارُوج وقصر العَطِش واليَهُوديّة وقصر العباديّ ومدينة سرت، وأهل هذه المنازل وأهل مدينة سرت من منداسة ومحنحا وقنطاس[1] وغيرهم، وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت بموضع يقال له تَوَرْغة وهو آخر حدّ برقة، ومزاتة كلّها إباضيّة على أنّهم لا يفقهون ولا لهم دين.

وخراج برقة قانون قائم كان الرشيد وجّه بمولى له يقال له بشّار فوزّع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار على كلّ ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقات والجوالي، ومبلغ الأعشار والصدقات والجوالي خمسة عشر ألف دينار ربّما زاد وربّما نقص، والأعشار للمواضع التي

---

١ في الأصل: وقنطاس – دون إعجام القاف –.

[٣٤٥] لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقرّاة ، ولبرقة عمل يقال له أوْجَلة وهو في مفازة مغرّب لمن أراد الخروج إليها ينحرف إلى القبلة ثم يصير إلى مدينتين يقال لإحداهما جالُوْ وللأخرى ودّان ولهما النخل والتمر والقسب الذي لا شيء أجود منه وأرض ودّان لآنَقُهما .

وَدّان

ومن أعمال برقة المضافة كانت إليها ودّان وهو بلد يؤتى من مفازة وهو ممّا يضاف إلى عمل سرت ومن مدينة سرت إليه ممّا يلي القبلة خمس مراحل وبه قوم مسلمون يدّعون أنّهم عرب من يمن وأكثرهم من مزاتة وهم الغالبون عليه ، وأكثر ما يحمل منه التمر فإن به أصناف التمور وإنّما يتولاّه رجل من أهله وليس له خراج .

زَوِيلة

ووراء ذلك بلد زويلة ممّا يلي القبلة وهم قوم مسلمون إباضيّة كلّهم يحجّون البيت الحرام وأكثرهم زواتة ويخرجون الرقيق السودان من الميريّين والزغاويّين والمرويّين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم ، وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير سبي ولا حرب ، ومن زويلة الجلود الزويليّة وهي أرض نخل ومزدرع ذرة وغيرها وبها أخلاط من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة ، ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كُوّار بها قوم من المسلمين من سائر الأحياء أكثرهم بربر وهم يأتون بالسودان ، وبين زويلة ومدينة كوّار وما يلي زويلة إلى

طريق أوجلة وأجدابيَة قوم يقال لهم لَمْطة أشبه شيء بالبربر وهم أصحاب الدرق اللمطيّة البيض .

فَزّان

[٣٤٦] وجنس يُعرف بفَزّان أخلاط من الناس لهم رئيس يطاع فيهم / وبلد واسع ومدينة عظيمة وبينهم وبين مزاتة حرب لاقح أبداً .

وتسمى برقة أنْطابُلُس ، هذا اسمها القديم ، افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين صلحاً ، ومن آخر عمل برقة من الموضع الذي يقال له تَوَرْغَة إلى أطرابلس ستُّ مراحل ، وينقطع ديار مزاتة من تورغة ويصير في ديار هَوّارة فأوّل ذلك وَرْداسة ثم لبدة وهي حصن كالمدينة على ساحل البحر ، وهَوّارة يزعمون أنّهم من البربر القُدم وأن مزاتة ولواتة كانوا منهم فانقطعوا عنهم وفارقوا ديارهم وصاروا إلى أرض برقة وغيرها ، وتزعم هَوّارة أنّهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم ، وبطون هَوّارة يتناسبون كما تتناسب العرب فمنهم بنو اللُّهان ومَليلة ووَرْسَطِفة ، فبطون اللهان بنو درمنا وبنو مرمزبان[1] وبنو وَرْفَلّة وبنو مَسْراتة ، ومنازل هوّارة من آخر عمل سُرْت إلى أطرابلس .

أطرَابُلُس

أطرابلس مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر عامرة آهلة وأهلها أخلاط من الناس افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين في خلافة عمر بن

١ درمنا — غير منقوطة النون ؛ ومرمزبان — غير منقوطة الباء في الأصل .

الخطّاب وكانت آخر ما افتتح من المغرب في خلافة عمر ؛ ومن أطرابلس إلى أرض نَفُوسة وهم قوم عجم الألسن إباضيّة كلّهم لهم رئيس يقال له إلْياس لا يخرجون عن أمره ومنازلهم في جبال أطرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة لا يؤدّون خراجاً إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلاّ إلى رئيس لهم بتاهَرْت وهو رئيس الإباضيّة يقال له عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رستم فارسي ، وديار نفوسة متّصلة من حدّ أطرابلس ممّا يلي القبلة إلى قريب من القيروان ولهم قبائل كثيرة وبطون شتّى. ومن أطرابلس على الجادّة العظمى إلى مدينة يقال لها قابِس عظيمة على البحر المالح عامرة
[٣٤٧] كثيرة الأشجار والثمار والعيون الجارية وأهلها أخلاط من العرب والعجم والبربر وبها عامل من قبل ابن الأغْلَب صاحب إفريقية خمس مراحل عامرة يسكنها قوم من البربر من زناتة ولواتة والأفارقة الأول فأوّلها وبله أوّل مرحلة من أطرابلس ثم صَبْرة وهي منزل بها أصنام حجارة قديمة ثم قصر بني حبان ثم تامدفيت ثم الفاصلات ثم قابس . . .

٢

المسالك والممالك لابن خرداذبه

الطريق من الفسطاط إلى المغرب

[٤٨] من الفسطاط إلى ذات الساحل أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى تَرْنُوط ثلاثون ميلاً ، ثم إلى كُوْم شَريك اثنان وعشرون ميلاً ، ثم إلى الرافقة أربعة وعشرون ميلاً مع النيل ، ثم إلى قرطسا ثلاثون ميلاً ، ثم إلى كِرْيَوْن أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى الاسكَنْدَريّة أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى بُومينه عشرون ميلاً ، ثم إلى ذات الحُمَام ثمانية عشر ميلاً ، ثم إلى حَنَيّة الرُّوم أربعة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى الطاحُونة ثلاثون ميلاً ، ثم إلى كنائس الحديد أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى جُبّ العَوْسَج لا ماء فيها إلاّ ماء السماء ثلاثون ميلاً ، ثم إلى سكّة الحَمّام ثلاثون ميلاً ، ثم إلى قصر الشّمّاس خمسة وعشرون ميلاً ، ثم إلى خِرْبَة القَوْم خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى خرائب أبي حَليمَة خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى العَقَبَة عشرون ميلاً ، ثم إلى مَرْج
[٤٨] الشّيْخ عشرون ميلاً ، ثم إلى حَيّ عبد / الله ثلاثون ميلاً ، ثم إلى جياد الصغير ثلاثون ميلاً ، ثم إلى جُبّ الميدعان خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى وادي مَخيل خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى جُبّ حَليمان خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى المغار خمسة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى تاكَنيسْت خمسة وعشرون ميلاً ، ثم إلى النّدامَة خمسة وعشرون ميلاً ، ثم إلى بَرْقَة ستّة أميال وهي مدينة في صحراء حمراء كأنّها بسرة حسنة وحولها جبال بين الجبال والمدينة ستّة أميال ،

قال الشاعر :

السَّفْحُ مِنْ بَرْقَةَ أَوْطَأْتُهُ حَيْثُ يَحُلُّ الضَّبْعُ والذِّيبُ

الطريق من برقة إلى المغرب

ثم من برقة إلى مليتية خمسة عشر ميلاً ، ثم إلى قَصْر العَسَل تسعة وعشرون ميلاً ، ثمَّ إلى اوْبران اثنا عشر ميلاً ، ثم إلى سُلُوق ثلاثون ميلاً ، ثم إلى برسمت على الساحل أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى بَلَبَد على الساحل
[٨٦] عشرون ميلاً ، ثم إلى أجْدَابِيَة/أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى حرْقرة عشرون ميلاً ، ثم إلى سبخة مَنْهُوشا ثلاثون ميلاً ، ثم إلى قَصْر العَطِش أربعة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى اليَهُوديَّتَيْن أربعة وثلاثون ميلاً على البحر ، ثم إلى قبر العِباديّ أربعة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى سُرْت أربعة وثلاثون ميلاً ، ثم إلى القريتين ثلاثة عشر ميلاً ، ثم إلى قصور حسّان بن النّعْمان الغَسّانيّ ثلاثون ميلاً ، ثم إلى المَنْصَف أربعون ميلاً ، ثم إلى تَوَرْغا أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى رغوغا عشرون ميلاً ، ثم إلى وَرْدَاسا ثمانية عشر ميلاً ، قال الشاعر :

قَدْ لَقِيَ البَرْبَرُ يَوْماً شاسا وساقَها الحَيْنُ إلى وَرْدَاسا

ثم إلى المجتني اثنان وعشرون ميلاً ، ثم إلى وادي الرمل عشرون ميلاً ، ثم إلى طَرَابُلُس أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى سَبْرَة أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى بئر الجَمّالين عشرون ميلاً ، ثم إلى قصر الدَّرَق ثلاثون ميلاً ، ثم إلى أباردخت أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى الفَوّارَة ثلاثون ميلاً ، ثم إلى

قابس مدينة الأفارِقَة الأعاجم ثلاثون ميلاً .

وكانت دار البربر فلسطين وملكها جالوت فلمّا قتله داود صلّى الله عليه جلت البربر إلى المغرب حتّى انتهوا إلى لُوبِيَة ، ومَرَاقِيَة فتفرّقت هناك فنزلت زناتة ومَغِيلة وضَبِيسة وفرسنة الجبال ونزلت لُوَاتة أرض بَرْقَة وهي أنْطابُلُس بالروميّة وهي خمس مدائن ونزلت هَوّارة مدينة أيلس وهي أطرابلس أي ثلاث مدائن وكانت للروم فجلت الروم إلى سِقِلِّيَة . .

٣

كتاب الخراج لقدامة

[٢٢١] ومن أرمسا إلى ذات الحمام عشرون ميلاً فيلتقي الطريقان هناك طريق الاسكندريّة وطريق برقة فيصير الطريقان طريقاً واحداً وتحمل الماء من ذات الحمام في البريّة ومسايرة بحر الروم حتّى تنزل الخنيّة حنيّة الروم وهي خراب على الطريق ، فمن ذات الحمام إلى حنيّة الروم أربعة وثلاثون ميلاً ومن الحنيّة إلى قصر العجوز وهي قرية يقال لها الطاحونة ثلاثون ميلاً ومن الطاحونة إلى كنائس الجون في عمران أربعة وعشرون ميلاً ومن كنائس الجون إلى جبّ العوسج ثلاثون ميلاً ومن جبّ العوسج إلى سكّة الحمام ثلاثون ميلاً ومن سكّة الحمام إلى قصر الشماس خمسة وعشرون ميلاً ومن قصر الشماس إلى خربة القوم خمسة عشر ميلاً ومن خربة القوم إلى خرائب أبي حليمة خمسة وثلاثون ميلاً ومن خرائب أبي حليمة إلى العقبة عشرون ميلاً ومنها إلى قرية يقال لها معد خمسة وثلاثون ميلاً ومن معد إلى ربوس ثلاثون ميلاً ومن ربوس إلى فرمة وهي مدينة ينزلها العمال ستّة أميال ومن فرمة إلى قصر يقال له الشاهدين إلى وادي السدور ملتفّ الأشجار عشرون ميلاً ومن وادي السدور إلى قرية يقال لها باع أربعة وعشرون ميلاً ومن باع إلى الندامة أربعة وعشرون ميلاً ومن الندامة إلى برقة ستة أميال .

[٢٢٢] وأمّا طريق البريّة فمن قصر الروم إلى مرج الشيخ عشرون ميلاً ومن مرج الشيخ إلى حيّ عبد الله ثلاثون ميلاً ومن حي عبد الله إلى جياد الصغير

ثلاثون ميلاً ومن جياد الصغير إلى جباب الميدعان خمسة وثلاثون ميلاً ومن جباب الميدعان إلى وادي مخيل خمسة وثلاثون ميلاً ومن وادي مخيل إلى جب حليمان خمسة وثلاثون ميلاً ومن جب حليمان إلى وادي المغار خمسة وثلاثون ميلاً ومن وادي المغار إلى تاكنست وهي قرية للنصارى خمسة وعشرون ميلاً ومن تاكنست إلى الندامة خمسة وعشرون ميلاً ومن الندامة إلى برقة وهي مدينة في صحراء حمراء كالبسرة خمسة عشر ميلاً والجبال منها على ستة أميال ، فذلك من الاسكندريّة إلى برقة . . .

ومن برقة إلى مليتية خمسة عشر ميلاً ومن مليتية إلى قصر العسل تسعة وعشرون ميلاً ومن قصر العسل إلى أوبران اثنا عشر ميلاً ومن أوبران إلى سلوق ثلاثون ميلاً ومن سلوق يفترق الطريق فرقتين ، فرقة على السكّة وفرقة على طريق ساحل البحر ، فأمّا طريق الساحل فمن سلوق إلى برسمت أربعة وعشرون ميلاً ، ومن برسمت إلى بلبد عشرون ميلاً ومن بلبد إلى أجدابية أربعة وعشرون ميلاً ، وأمّا طريق السكّة فمن سلوق إلى السكّة ثلاثون ميلاً ومن السكّة إلى الزيتونة عشرون ميلاً ومن الزيتونة إلى أجدابية أربعة

[٢٢٣] وعشرون ميلاً فيجتمع طريق السكّة وطريق الساحل في أجدابية .

ثم نرجع إلى ذكر مليتية التي من برقة إليها خمسة عشر ميلاً فمنها في طريق البرّ من مليتية إلى الأنبار أربعة وعشرون ميلاً ومن الأنبار إلى وادي الأعراب ثلاثون ميلاً . نرجع من منزل شقيق الفهميّ إلى سلوق فمن منزل شقيق الفهميّ إلى سلوق خمسة وثلاثون ميلاً ويجتمع الطريقان بسلوق فيكون طريقاً إلى أجدابية .

ولنرجع إلى ذكر مخيل الذي قلنا إن عنده طريق إفريقية يسرة فمن مخيل إلى جبّ جراوة إلى تمليس عشرون ميلاً ومن تمليس إلى وادي مسوس

خمسة وثلاثون ميلاً ومن وادي مسوس إلى . . . . . ومن حربرابلوا إلى أجدابية أربعة وعشرون ميلاً . ومن أجدابية يفترق الطريق فيصير طريقين
[٢٢٤] أحدهما إلى / إفريقية والآخر إلى طرابلس ثم من أجدابية إلى حي نجوة عشرون ميلاً ومن حي نجوة إلى سبخة منهوسا ثلاثون ميلاً ومن سبخة منهوسا إلى قصر العطش أربعة وثلاثون ميلاً ومن قصر العطش إلى اليهوديتين وهما قريتان على شطّ البحر أربعة وعشرون ميلاً ومن اليهوديتين إلى قبر العبادي أربعة وثلاثون ميلاً ومن قبر العبادي إلى سرت أربعة وثلاثون ميلاً ومن سرت إلى القرنين ثمانية عشر ميلاً ومن القرنين إلى مغمداش عشرون ميلاً ومن مغمداش إلى قصور حسّان ثلاثون ميلاً ومن قصور حسّان إلى المنصف أربعون ميلاً ومن المنصف إلى تورغا أربعة وعشرون ميلاً ومن تورغا إلى رغوغا عشرون ميلاً ومن رغوغا إلى ورداسا ثمانية عشر ميلاً ومن ورداسا إلى المجتنى اثنان وعشرون ميلاً ومن المجتنى إلى وادي الرمل عشرون ميلاً ومن وادي الرمل إلى طرابلس أربعة وعشرون ميلاً ومن طرابلس إلى مدينة يقال لها سبرة خربة أربعة وعشرون ميلاً ومن سبرة إلى بئر الجمالين عشرون ميلاً
[٢٢٥] ومن بئر الجمالين إلى قصر/ الدرق ثلاثون ميلاً ومن قصر الدرق إلى بادرخت أربعة وعشرون ميلاً ومن بادرخت إلى القوارة ثلاثون ميلاً ومن القوارة إلى قابس وهي مدينة ثلاثون ميلاً . . .
[٢٦٥] . . . ثم نذكر بعد ذلك ثغور المغرب فنقول إن أوّلها إفريقية وهو[1] المسمّى القيروان ولم يزل مذ افتتح مُدَبّراً من قِبَل ملك العراق بعد تولّي بني مروان إلى أن تغلّب عليه في هذا الوقت صاحب المغرب واستولى عليه وتعدّاه إلى برقة فتغلّب عليه زيادةً .

١ في الأصل : وهي .

٤

المسالك والممالك للكرخي

[٣٣] فأمّا برقة فإنّها مدينة وسطة ليست بكبيرة ، وحواليها كورة عامرة كبيرة ، وهي في مستوٍ من الأرض خصبة ، ويطيف بها من كل جانب بادية يسكنها طوائف من البربر ، وقد كان يخرج إليها عامل من مصر ، إلى أن ظهر المهدي عبيد الله المستولي على المغرب ، فاستولى عليها وأزال عمّال مصر . وأمّا طرابلس المغرب فهي من عمل إفريقية ، وهي مدينة مبنية من الصخر على ساحل بحر الروم ، خصبة واسعة الكورة حصينة جدّاً . . .

[٣٧] وكان ملوك إفريقية وبرقة أولاد الأغلب ، الذي كان قد أنفذ في أول أيّام بني العباس ، ليكون في وجه إدريس بن إدريس . . .

وأمّا المسافات بالمغرب فإن من مصر إلى برقة ٢٠ مرحلة ، ومن برقة إلى طرابلس مثلها ، ومن طرابلس إلى القيروان مثلها ، فذلك من مصر إلى القيروان ٦٠ مرحلة .

٥

صورة الأرض لابن حوقل

[٦٩] فأمّا برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزريّة ، ولها كور عامرة وغامرة وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله ، ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها ، وأرضها حمراء خلوقيّة التربة وثياب أهلها أبداً محمرّة ، ويُعرف أهلها بالفُسطاط من بين أهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغيرهم ، ويطوف بها من كل جانب منها بادية يسكنها الطوائف من البربر وهي بريّة بحريّة جبليّة ؛ ووجوه أموالها جمّة ، وهي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان ، وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاّباً لما فيها من التجارة ، وعابرين عليها مُغرّبين ومُشرّقين وذلك أنها تتفرّد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو ، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة ، ولها أسواق حادّة حارّة من بيوع الصوف والفُلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب . وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدّخر بها ، وأسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية .

١١ — واليها مدينة اجدابية على صحصاح من حجر في مستواه ، بناؤها [٧٠] بالطين والآجرّ وبعضها بالحجارة ، ولها جامع نظيف . ويطيف بها من احياء البربر خلق كثير ، ولها زرع بالبَخس وليس بها ولا ببرقة ماء جارٍ ، وبها

نخيل حسب كفايتهم وبمقدار حاجتهم ، ووليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خُضَرهم وبساتينهم هو أميرها ، وصاحب صلاتها ، وله من وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان . وهي أيضاً قريبة من البحر المغربي ترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها بضروب من التجارة . وأكثر ما يخرج منها الأكسية المقاربة وشُقّة الصوف القريبة الأمر وشرب أهلها من ماء السماء .

١٢ — وجزيرة أوجلة منها على أيام بين غربها وجنوبها ، وهي ناحية ذات نخيل عظيمة وغلاّت من التمر جسيمة . ويليها وقتنا هذا رجلٌ من ناحية صاحب برقة ، ولم يكن ارتفاعها وماله الداخل على خزانة السلطان في جملة مال برقة . فلمّا ضُمّت إلى برقة غزُر مالها وكثر وزادت الحال في ذلك . ومنها إلى جزيرة وَدّان طريق قصد في الرمال ، ووَدّان ناحية ومدينة في جنوب مدينة سُرت وكانت مضمومة إليها وهي جزيرة لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة ، وإن كانت أوجلة أوسع قُسوباً وأفسح ناحيةً ، فتمور وَدّان الرطبة العذبة وأرطابهم أغزر وأكثر .

١٣ — وسُرْت مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابية وبها قبائل من البربر ، ولهم مزارع في نفس البرّ تُقصد نواحيها إذا مُطِرت وتُنتجع مراعيها . ولها من وجوه الأموال والغلاّت والصدقات في سائمة الإبل والغنم ما يزيد على حال أجدابية وماله في وقتنا هذا ، وبها نخيل تُجتنى أرطابها وليس بها من القسب والتمر ما تُذكرُ حاله لأنّ نخيلهم بقدر كفايتهم . ولهم أعناب وفواكه وأسعارهم صالحة على مرّ الأوقات . والمتّلي صدقاتهم

وجباياتهم وخراجاتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم . وإليه جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه وفيما ورد إليه وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه ، واعتبار السجلاّت والمناشير بمواجب / ما على الأمتعة [٧١] وتصفحها خوفَ الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بإفريقية ؛ ودَخلُها أوفر من دخل أجدابية لما ذكرتُ . وهي على غلوة سهمٍ عن البحر في مستواة من رمل ، وترد المراكب أيضاً عليها بالمتاع وتصدر عنها بشيء منه كالشبّ السُّرتيّ ، فإنه بها غزير كثير ، وبالصوف أيضاً ، ولحوم المعز أغذى فيها من الضأن وانفع ، وتقوم لحوم الضأن فيها مقام لحم المعز بغيرها لأنّها غير ملائمة لأهلها وللسافرة المجتازين من أجل مراعيها . وشِرب أهلها من ماء المطر المختزن في المواجل . وعدد البربر بها أوفر وأغزر وأكثر منه بما جاورها . وللبربر حاضرة بنفس قصبة سُرت وبينهم خلافٌ على مرّ الأوقات وحروب ربما ثارت في بعض الأحايين قريبة ولا تدوم ، وعاملُهم قائم بنفسه من تحت يد سلطانهم الأعظم .

١٤ — فأمّا اطرابُلس فكانت قديماً من عمل افريقية . وسمعتُ من يذكر أن عمل افريقية لمّا كانت اطرابلس مضافة إليها معروفٌ معلوم وكان من صبرة وهي منزل من اطرابلس على يوم ، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا ، ولم أعرفها قديماً ولا سمعتُ بها على الخارج من أطرابلس إلى القيروان وعلى القادم من القيروان إلى أطرابلس غير ما يقبضه المتولّي عمل أطرابلس من كل جملٍ ومحملٍ وحِمل ، وذلك كالذي بلبدَة — وهي أيضاً قرية بينها وبين أطرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان — من الضريبة على الجمال والأحمال والمحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير ، إلى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة وأخذ الصدقات والخراج واللوازم من ناحية قصري ابن

كمو وابن مظكود والبربر المقيمين هنالك من هُوارة وغيرهم إليه . وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق ، وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السلطانُ بعضَها إلى داخل السور ، وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ، وارتفاعُها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا . وبها من الفواكه الطيّبة اللذيذة الجيّدة القليلة الشّبه بالمغرب وغيره : كالخَوخ الفرسك والكُمّثْرَى اللذين لا شبه لهما بمكان ، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الأكسية [٧٢] الفاخرة الزرق ، والكُحل النفوسيّة / والسُّود والبيض الثمينة إلى مراكب تحطّ ليلاً ونهاراً ، وترد بالتجارة على مرّ الأوقات والساعات صباحاً ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم . وأهلُها قومٌ مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميّزون بالتجمّل في اللباس وحسن الصور والقصد في المعاش ، إلى مروءاتٍ ظاهرة وعِشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيّات جميلة ، إلى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحّة نيّةٍ ومعاملة محمودة ومذهبٍ في طاعة السلطان سديد ، ورباطاتٍ كثيرة ومحبّةٍ للغريب أثيرة ذائعة . ولهم في الخير مذهبٌ من طريق العصبيّة لا يدانيهم أهل بلد ، إذا وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائماً الريح البحريّة فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الإرساء ، فيبادر أهلُ البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوّعين ، فيقيّد المركبُ ويُرسى به في أسرع وقت بغير كُلفة لأحد ولا غرامةِ حبّةٍ ولا جزاء بمثقال .

[٧٣] ٤٨ — وأما جبل نفوسة فجبل عالٍ منيف يكون نحو ثلاثة أيام في أقلّ من ذلك ، وفيه منبران لمدينتين تسمّى إحداهما شروس في وسط الجبل وفيها مياه جارية وكروم وأعناب طيّبة وتين غزير ، وأكثر زروعهم

وجباياتهم وخراجاتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم . وإليه جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه وفيما ورد إليه وصدر في استيفاء
[٧١] ضرائبه ولوازمه ، واعتبار السجلاّت والمناشير بمواجب / ما على الأمتعة وتصفحها خوفَ الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بإفريقية ؛ ودَخلُها أوفر من دخل أجدابية لما ذكرتُ . وهي على غلوة سهمٍ عن البحر في مستواة من رمل ، وترد المراكب أيضاً عليها بالمتاع وتصدر عنها بشيء منه كالشبّ السُّرتيّ ، فإنه بها غزير كثير ، وبالصوف أيضاً ، ولحوم المعز أغذى فيها من الضأن وانفع ، وتقوم لحوم الضأن فيها مقام لحم المعز بغيرها لأنّها غير ملائمة لأهلها وللسافرة المجتازين من أجل مراعيها . وشِرب أهلها من ماء المطر المختزن في المواجل . وعدد البربر بها أوفر وأغزر وأكثر منه بما جاورها . وللبربر حاضرة بنفس قصبة سُرت وبينهم خلافٌ على مرّ الأوقات وحروب ربما ثارت في بعض الأحايين قريبة ولا تدوم ، وعاملُهم قائم بنفسه من تحت يد سلطانهم الأعظم .

١٤ — فأمّا اطرابُلس فكانت قديماً من عمل افريقية . وسمعتُ من يذكر أن عمل افريقية لمّا كانت اطرابلس مضافة إليها معروفٌ معلوم وكان من صبرة وهي منزل من اطرابلس على يوم ، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا ، ولم أعرفها قديماً ولا سمعتُ بها على الخارج من أطرابلس إلى القيروان وعلى القادم من القيروان إلى أطرابلس غير ما يقبضه المتولّي عمل أطرابلس من كل جملٍ ومحملٍ وحِمل ، وذلك كالذي بلبدَة — وهي أيضاً قرية بينها وبين أطرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان — من الضريبة على الجمال والأحمال والمحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير ، إلى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة وأخذ الصدقات والخراج واللوازم من ناحية قصري ابن

كمو وابن مظكود والبربر المقيمين هنالك من هُوارة وغيرهم إليه . وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق ، وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السلطانُ بعضَها إلى داخل السور ، وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ، وارتفاعُها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا . وبها من الفواكه الطيّبة اللذيذة الجيّدة القليلة الشّبه بالمغرب وغيره : كالخَوخ الفرسك والكُمَّثْرَى اللذين لا شبه لهما بمكان ، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطِيقان الأكسية
[٧٢] الفاخرة الزرق ، والكُحل النفوسيّة / والسُّود والبيض الثمينة إلى مراكب تحطّ ليلاً ونهاراً ، وترد بالتجارة على مرّ الأوقات والساعات صباحاً ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم . وأهلُها قومٌ مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميّزون بالتجمّل في اللباس وحسن الصور والقصد في المعاش ، إلى مروءاتٍ ظاهرة وعِشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيّات جميلة ، إلى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحّة نيّةٍ ومعاملة محمودة ومذهبٍ في طاعة السلطان سديد ، ورباطاتٍ كثيرة ومحبّةٍ للغريب أثيرة ذائعة . ولهم في الخير مذهبٌ من طريق العصبيّة لا يدانيهم أهل بلد ، إذا وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائماً الريح البحريّة فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الإرساء ، فيبادر أهلُ البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوّعين ، فيقيّد المركبُ ويُرسى به في أسرع وقت بغير كُلفة لأحد ولا غرامةِ حبّةٍ ولا جزاء بمثقال .

[٧٣] ٤٨ — وأما جبل نفوسة فجبل عالٍ منيف يكون نحو ثلاثة أيام في أقلّ من ذلك ، وفيه منبران لمدينتين تسمّى إحداهما شروس في وسط الجبل وفيها مياه جارية وكروم وأعناب طيّبة وتين غزير ، وأكثر زروعهم

الشعير وإياه يأكلون ، وإذا خُبِزَ كان أطيب طعماً من خبز الحنطة ، ولشعيرهم
[٩٣] لذّة ليست لخبز من أخباز الأرض ، لأنّه ينفرد بلذّة ليست في / خبزٍ
إلاّ ما كان من سميذٍ أو حُوّارَى قد تأنّقَ صانعه فيه . وبالجبل مدينة
ثانية تُعرف بجادوا من ناحية نفزاوه وفيها منبر وجامع . والجبل بأجمعه دار
هجرتهم على قديم الأيام لهم ، وبه معشر الإباضيّة والوَهبيّة ثَوَوا بعد
عبد الله بن إباضٍ وعبد الله بن وهبٍ الراسبيّ ، لأنهما قدِماه وماتا به .
ولم يدخل أهل هذا الجبل في عهد الإسلام إلى سلطان ولا سكنه غير الخوارج
مذ أوّل الإسلام ، بل مذ عهد عليّ عليه السلام وقت انصرافهم عنه بمن
سلم معهم من أهل نهروان ، وقد أقام من خلفهم على منهاج سَلَفهم به
وبما قاربه من مدن الخوارج ، وهي نفزاوه ولاوجه وبادس وبسكره ،
يعتقدون آراءهم ويمشون على سنتهم ، والسلطان على أهل هذه المدن حكم
وأمره فيهم نافذٌ وكذلك فيمن كان منهم .

[٩٤] ٥١ — وسمعتُ أبا الحسن ابن أبي علي الداعي المعروف كان بحمدان
قرمط ، وهو صاحب بيت مال أهل المغرب ، يقول في سنة ستّ وثلاثين
وثلاثمائة ، دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه
واصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراع وجوال ومراصد ، وما يؤخذ
عما يرد من بلد الروم والأندلس فيُعْشَر على سواحل البحر ، وما يلزم
الخارج من القيروان إلى مصر ويلزم ما يرد منها من الورق والمقوّم بقيمة
العين والعَين المجتبى من هذه الوجوه ، فيكون من سبع مائة ألف دينار
إلى ثماني مائة ألف دينار ؛ قال : ولو بُسطت يده فيه لبلغ ضعفه وإن قصر
عن ذلك فالقليل . وسمعت هذه الحكاية بعينها واللفظ بصيغته من زيادة
الله أبي نصر ابن عبد الله بن القديم في سنة ستين ، يذكرها عن نفسه وكان

صاحب الخراج بافريقية وجميع المغرب ، وكأنّهما تفاوضا القول وعلما
وجوه ذلك ، وما يدخل فيه من ارتفاق أصحاب الأعمال واستئثارهم بما
يزيد على القوانين في أيديهم ، وما أبعدَ أن يكون ذلك كذلك لما تبيّنتُه في
ضمان برقة وحالها . وكان جميع المغرب في أيام آل عُبيد الله يُعمل بالأمانة
من غير ضمان حتّى تُقُبِّلت برقة ، وليس بجميع المغرب ضمان غيرها .

(٦)

أحسن التقاسيم للمقدسي

[٢٢٤] برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار . وهي ثغر قد أحاط بها جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر في هوية قد أحاط بها تربة حمراء . شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار في جباب. وهي على جادة مصر يحسنون إلى الغرباء، أهل خير وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم. وأطرابلس مدينة كبيرة على البحر مسورة بحجارة وجبل؛ لها باب البحر وباب الشرق وباب الجوف وباب الغرب . شربهم من آبار وماء مطر كثيرة الفواكه والإنجاص والتفاح والألبان والعسل واسمها كبير. وأجدابية عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار ، وسرت كذلك ولهما بواد وشعاريّ ؛ وصبرة في بادية ، وهي حصينة بها نخيل وتين ، شربهم من ماء المطر .

[٢٣٩] وبه [المغرب] تجارات : تحمل من برقة ثياب الصوف والأكسية . . .

[٢٤٤] وأما المسافات فتأخذ من برقة إلى الندامة مرحلة ثم إلى تاكنست مرحلة ثم إلى المغار مرحلة ثم إلى حليمان مرحلة ثم إلى مخيل مرحلة ثم إلى جب الميدعان

[٢٤٥] مرحلة ثم إلى جياد الصغير مرحلة ثم إلى حي عبد الله / مرحلة ثم إلى مرج الشيخ مرحلة ثم إلى العقبة مرحلة ثم إلى خرائب أبي حليمة مرحلة ثم إلى خربة القوم مرحلة ثم إلى قصر الشماس مرحلة ثم إلى سكة الحمام مرحلة ثم إلى جب العوسج مرحلة ثم إلى كنائس الحرير مرحلة ثم إلى الطاحونة

مرحلة ثم إلى حنية الروم مرحلة ثم إلى ذات الحمام مرحلة ثم إلى بومينه مرحلة ثم إلى الاسكندرية مرحلة . وتأخذ من طرابلس إلى المسدودة مرحلة ثم إلى أرسطا مرحلة ثم إلى الراشدية مرحلة ثم إلى قصور حسان مرحلة ثم إلى مغمداش مرحلة ثم إلى سرت مرحلة ثم إلى قصر العبادي مرحلة ثم إلى اليهوديتين مرحلة ثم إلى قصر العطش مرحلة ثم إلى سبخة منهوسا مرحلة ثم إلى بلدروب مرحلة ثم إلى برمست مرحلة ثم إلى سلوق مرحلة ثم إلى أوبران مرحلة ثم إلى قصر الفيل مرحلة ثم إلى مليتية مرحلة ثم إلى برقة مرحلة وتأخذ [٢٤٦] من أطرابلس إلى / بئر الجمالين مرحلة ثم إلى قصر الدرق مرحلة ثم إلى يارجمت مرحلة ثم إلى القوارة مرحلة ثم إلى قابس مرحلة .

٧

المسالك والممالك للبكري

[٤] والكنايس وهي ثلاثة قصور مهدمة بالقرب منها عقبة تعرف بآبار قيس، وهما بيران عذبتا الماء بعيدتا الأرشية. وقال غيره: من جب العوسج إلى قباب معان بينهما ثلاثون ميلاً، وهي المعروفة بخرايب القوم. قال محمد: خرايب القوم مدينة خربها الروم فيها جباب. وبغربي خرايب القوم قصر أبي معد نزار ابن خلد بن يحيى بن بابان، ينزله من قريش من قرابة جبير بن مطعم نحو عشرين بيتاً وأحياء كثيرة من بني مدلج ومن قبائل البربر نحو ألف بيت من فاضلة وبني عقيدان. ويذكر أن كثيراً ما تتبدل صورة المولودة عندهم فتصير في خلق الغول والسعلاة وتعدو على الناس حتى تغل وتقيد. قال محمد بن يوسف: أخبرني محمد بن قاسم صاحب استجة أنّه صحّ عنده ذلك أو شاهده. ومنها إلى مدينة الرمادة، وهي مدينة لطيفة بقرب البحر لها سور ومسجد جامع وحولها بساتين بأنواع الثمار وبالقرب منها قصر الشماس وفيه عمارات يسيرة، ومن خرايب القوم إلى مدينة الرمادة خمسة وثلاثون ميلاً، ومنها إلى خرايب أبي حليمة، وهو قصر معمور وبه سوق وآبار خمس وجباب على البعد، فإذا أتيت قصر الروم وهي أقباء طوب يشرف عليها جبل في صفحه جباب ماء أكبرها تعرف بالمطفّلة، فإذا جئت وادي نخيل وهو حصن فيه جامع وله سوق عامرة حواليه جباب ماء وبرك وليس ينبط فيه ماء وهو راخي السعر كثير الخير، وبينه وبين أجدابية خمس مراحل.

برقة: واسمها بالرومية الاغريقية بنطابلس، تفسيره خمس مدن. وصار إليها عمرو بن العاصي حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر ألفاً يؤدونها إليه [٥] جزية / على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم. قال الليث بن سعد: كتب عمرو بن العاصي على لواتة في شرطه عليهم: أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية. وسُمع عمرو يقول على المنبر: لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به. ومدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها. وعلى ستة أميال منها الجبل، وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها، وأكثر ذبائح أهل مصر منها، ويحمل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران. وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها مقة فوق جبل وعر لا يرقى إليها فارس على حال. وهي كثيرة الثمار من الجوز والاترج والسفرجل وأصناف الفواكه، ويتصل بها شَعْراء عريضة من شجر العرعر. وبمدينة برقة قبر رويفع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحول مدينة برقة قبائل من لواتة ومن الأفارق. وفي الطريق من برقة إلى افريقية وادي مسوس، فيه قباب خربة وجباب يقال إن عددها ثلاث مائة وستون، وبها بساتين. وفي هذا الوادي التربة التي يغلى منها العسل.

ومدينة أجدابية: وهي مدينة كبيرة في صحراء، أرضها صفا وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء، وبها عين ماء عذب. ولها بساتين لطاف ونخل يسير، وليس بها من الأشجار إلاّ الأراك. وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم ابن عبيد الله، له صومعة مثمنة بديعة العمل، وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة. وأهلها ذوو يسار أكثرهم أقباط، وبها نبذ من صرحاء لواتة. ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور، لها ثلاثة قصور بينه

٧

المسالك والممالك للبكري

[٤] والكنايس وهي ثلاثة قصور مهدمة بالقرب منها عقبة تعرف بآبار قيس، وهما بيران عذبتا الماء بعيدتا الأرشية. وقال غيره: من جب العوسج إلى قباب معان بينهما ثلاثون ميلاً، وهي المعروفة بخرايب القوم. قال محمد: خرايب القوم مدينة خربها الروم فيها جباب. وبغربي خرايب القوم قصر أبي معد نزار ابن خلد بن يحيى بن بابان، ينزله من قريش من قرابة جبير بن مطعم نحو عشرين بيتاً وأحياء كثيرة من بني مدلج ومن قبائل البربر نحو ألف بيت من فاضلة وبني عقيدان. ويذكر أن كثيراً ما تتبدل صورة المولودة عندهم فتصير في خلق الغول والسعلاة وتعدو على الناس حتى تغل وتقيد. قال محمد بن يوسف: أخبرني محمد بن قاسم صاحب استجة أنّه صحّ عنده ذلك أو شاهده. ومنها إلى مدينة الرمادة، وهي مدينة لطيفة بقرب البحر لها سور ومسجد جامع وحولها بساتين بأنواع الثمار وبالقرب منها قصر الشماس وفيه عمارات يسيرة، ومن خرايب القوم إلى مدينة الرمادة خمسة وثلاثون ميلاً، ومنها إلى خرايب أبي حليمة، وهو قصر معمور وبه سوق وآبار خمس وجباب على البعد، فإذا أتيت قصر الروم وهي أقباء طوب يشرف عليها جبل في صفحه جباب ماء أكبرها تعرف بالمطفّلة، فإذا جئت وادي مخيل وهو حصن فيه جامع وله سوق عامرة حواليه جباب ماء وبرك وليس ينبط فيه ماء وهو راخي السعر كثير الخير، وبينه وبين أجدابية خمس مراحل.

برقة: واسمها بالرومية الاغريقية بنطابلس، تفسيره خمس مدن. وصار إليها عمرو بن العاصي حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر ألفاً يؤدونها إليه [*] جزية / على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم. قال الليث بن سعد: كتب عمرو بن العاصي على لواتة في شرطه عليهم: أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية. وسُمع عمرو يقول على المنبر: لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به. ومدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها. وعلى ستة أميال منها الجبل، وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها، وأكثر ذبائح أهل مصر منها، ويحمل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها مقة فوق جبل وعر لا يرقى إليها فارس على حال. وهي كثيرة الثمار من الجوز والاترج والسفرجل وأصناف الفواكه، ويتصل بها شَعْراء عريضة من شجر العرعر. وبمدينة برقة قبر رويفع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحول مدينة برقة قبائل من لواتة ومن الأفارق. وفي الطريق من برقة إلى افريقية وادي مسوس، فيه قباب خربة وجباب يقال إن عددها ثلاث مائة وستون، وبها بساتين. وفي هذا الوادي التربة التي يغلى منها العسل.

ومدينة أجدابية: وهي مدينة كبيرة في صحراء، أرضها صفا وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء، وبها عين ماء عذب. ولها بساتين لطاف ونخل يسير، وليس بها من الأشجار إلاّ الأراك. وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم ابن عبيد الله، له صومعة مثمنة بديعة العمل، وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة. وأهلها ذوو يسار أكثرهم أقباط، وبها نبذ من صرحاء لواتة. ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور، لها ثلاثة قصور بينه

وبينها ثمانية عشر ميلاً . وليس لمباني مدينة أجدابية سقوف خشب إنما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها . وهي راخية الأسعار كثيرة التمر ، [٦] يأتيها من مدينة / أوجلة أصناف التمور .

ومدينة سرت : وهي مدينة كبيرة على سيف البحر . عليها سور طوب وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب قبلي وجوفي وباب صغير إلى البحر. ليس حولها أرباض، ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة . ذبائحهم المعز ولحمانها عذبة طيبة، ليس يؤكل بطريق مصر أطيب من لحومها. وأهل سرت من أخس خلق الله خلقاً وأسوإهم معاملة ، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه . وربما نزل المركب بساحلهم موسوقاً بالزيت وهم أحوج الناس إليه ، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويوكونها ثم يصفونها في حوانيتهم وأفنيتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بابر ، فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم إلا على حكمهم . وأهل سرت يعرفون بعبيد قرلة ، وهم يغضبون من ذلك .قال الشاعر يهجوهم :

عبيدُ قرلةٍ شرُّ البرايا مُعاملةً وأقبحهُم فعالا
فلا رحم المهيمن أهل سرت ولا سقّاهم عذباً زلالا

وقال آخر :

يا سرت لا سرّت بكِ الأنفسُ لسانُ مدحي فيكم أخرسُ
البسْتم القبح فلا منْظرٌ يروقُ منكم لا ولا ملبسُ
بخستمُ في كل أكرُومةٍ وفي الخنا واللّوم لم تبخسوا

ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي ولا يعرفه غيرهم . وهم على خلاف أخلاق أهل أطرابلس، فإن أهل أطرابلس

أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة وأبرهم بغريب . ومن سرت إلى أطرابلس عشر مراحل ، ومن سرت إلى أجدابية ست مراحل ، ومن أجدابية إلى برقة ست مراحل أيضاً .

مدينة أطرابلس ويذكر أن تفسير أطرابلس بالأعجمية الإغريقية ثلاث [٧] مدن . وسماها اليونانيون طربليطة وذلك بلغتهم أيضاً ثلاث مدن ، لأن طر معناه ثلاث وبليطة يعني مدينة . ويذكر أن اشفاروس قيصر هو الذي بناها . وتسمى أيضاً مدينة أطرابلس مدينة أناس . وعلى مدينة أطرابلس سور صخر جليل البنيان . وهي على شاطىء البحر ، ومبنى جامعها أحسن مبنى ، ولها أسواق حافلة جامعة وحمامات كثيرة فاضلة . وبأطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود . وحولها أقباط في زي البربر كلامهم بالقبطية في قرارات في شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة أيام إلى موضع يعرف ببني السابري وفي القبلة مسيرة يومين إلى حد هوارة . وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب . ومرساها مأمون من أكثر الرياح .

ومغمداس : ومنها إلى قصور حسان مرحلة ، ومن سرت إلى مغمداس مرحلة ، ومن قصور حسان إلى الراشدة وهي بير شريب سمّاها بهذا الاسم حسان بن النعمان ، هذا وأنت تتوجه من مصر إلى المغرب . ومغمداس هو صنم قائم على شاطىء البحر حوله أصنام وبه قصر بناه الأعرابي عامل سرت لبني عبيد الله ، وبمغمداس التقى أبو الأحوص عمرو العجلي مع أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح القائم بدعوة الإباضية ، فاقتتلوا على البحر فانهزم أبو الأحوص العجلي إلى مصر واحتوى أبو الخطاب على معسكره وقتل بشراً كثيراً من أصحابه وانصرف إلى اطرابلس ، وذلك سنة اثنتين وأربعين ومائة . ولما قُتل زهير بن قيس ببرقة استعمل عبد الملك بن مروان حسان بن

النعمان الغساني على إفريقية ، فخرج إليها في المحرم سنة ثمان وستين فلقي عساكر الكاهنة بأرض قابس وعلى مقدمتها القائد الذي كان مع كسيلة بن
[٨] لزم . فاقتتلوا قتالاً شديداً فقُتل صاحب خيل حسان بن النعمان / وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل المعروف بقصور حسان بطريق مصر ، وقتل من أصحابه عدد كثير وأسر منهم نحو ثمانين رجلاً ، فأحسنت الكاهنة إليهم وأطلقتهم غير واحد وهو يزيد بن خالد القيسي ، فوصلوا إلى حسان وأخبروه بخبر يزيد . فسرّ بذلك حسان وكتب إلى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة ويسأله أن يمده بالجيوش ، فكتب إليه عبد الملك أن يقيم بمكانه فبنى هناك قصرين وهما اليوم خربان حولهما زعاق نزر في بيرين وبها جنات كثيرة : القصر الأبيض وهو قصر خرب وهو أدنى المراحل إلى خرايب أبي حليمة على ظهر العقبة بقرية جب خرب ، قال محمد : أخبر بعض الاسكندرانيين أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : من كثرت ذنوبه فليلقِ لوبيا وراء ظهره ، قال : والقصر الأبيض آخر حد لواتة أيضاً ويسكن تحت تلك العقبة مزاتة .

ومدينة أطرابلس كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقيها ، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير ، وداخل مدينتها بير يعرف ببير أبي الكنود يعيرون به ويحمق من شرب منه ، فيقال للرجل إذا أتى بما لا يلام : لا يعتب عليك لأنّك شربت من بير أبي الكنود . وأعذب آبارها بير القبة . وذكر الليث بن سعد قال غزا عمرو بن العاصي مدينة أطرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيهـــا ، فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء ، فخرج رجل من مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة فاشتد عليهم الحر ، فأخذوا

راجعين على ضفة البحر وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور . وكانت سفن البحر شارعة في مرساها إلى بيوتهم ،
[٩] فقطن المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة فدخلوا / منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا ، فلم يكن للروم مفزع إلاّ سفنهم ، وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في المدينة . وإنّما بنى سور مدينة أطرابلس مما يلي البحر هرثمةُ بن أعين حين ولايته القيروان .

ولمدينة أطرابلس فحص يسمى سوبجين يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة ، وهم يقولون فحص سوبجين يصيب سنة في سنين . ومن أطرابلس إلى جبل نفوسة مسيرة ثلاثة أيّام ، وجبل نفوسة على ستة أيام من القيروان ، وطول جبل نفوسة من الشرق إلى الغرب ستة أيام ، وتليهم قبيلة يقال لهم بنو رمّور ولهم حصن يسمى تيرقت في غاية المنعة لا يطمع فيه ولا يقدر أحد عليه . وبعد هذا الحصن قبيلة بني تدرميت لهم ثلاثة حصون . وفي وسط هذه القبائل مدينة كبيرة تسمى جادوا لها أسواق ويسكنها يهود كثير .

قال محمد بن يوسف : أم قرى جبل نفوسة مدينة شروس وهي كبيرة آهلة جليلة أهلها إباضية ليس بها جامع ولا في ما حولها من القرى ، وهي أزيد من ثلاثمائة قرية آهلة لم يتفقوا على رجل يقدمونه للصّلاة بهم . وبين أطرابلس ومدينة شروس خمسة أيّام ، بينهما حصن لبدة ، حصن من بناء الأول بالصاروج والحجر حوله آثار عجيبة للأول وخرائب كثيرة ، ويسكن هذا الحصن قوم من العرب جملتهم نحو ألف فارس وهم محاربون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر وهم أزيد من عشرين ألفاً بين راجل وفارس ، وظاهرون عليهم . وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون الكثير والفواكه ، ويجتمع فيما حوله

من القبائل إذا تداعوا ستة عشر ألف رجل . وافتتح عمرو بن العاصي ، رحمه
[١٠] الله ، نفوسة وكانوا نصارى ومن نفوسة رجع / عمرو بكتاب عمر رضي
الله عنه . ومن أراد الطريق من نفوسة إلى مدينة زويلة فإنّه يخرج إلى مدينة
جادوا المذكورة ، ثمّ يسير ثلاثة أيام في صحراء ورمال إلى موضع يسمّى
تبري ، وهو في سفح جبل فيه آبار كثيرة ونخيل ، ثمّ يصعد في ذلك الجبل
فيمشي في صحراء مستوية نحو أربعة أيام لا يجد ماء ، ثمّ ينزل على بير تسمى
أودرف ، ومن هناك يلقى جبالاً شاهقة تسمى تارغين يسير فيها الذاهب ثلاثة
أيام حتّى يصل إلى بلد يسمى تامرما فيه نخيل كثير يسكنه بنو قلدين وفزانة ،
وعندهم غريبة وهي أن السارق إذا سرق عندهم كتبوا كتاباً يتعارفونه فلا
يزال السارق يضطرب في موضعه ذلك ولا يفتر حتّى يقرّ ويردّ ما أخذ ولا
يسكن عنه ما به حتّى يمحي ذلك الكتاب . وتسير من هذا البلد إلى بلد يسمى
سباب يومين ، وهو بلد كثير النخل ، وكذلك الذي قبله . وأهل سباب
يزدرعون النبات الذي يكون منه الصبغُ المعروف بالنيل ، وتسير من سباب
في صحراء مستوية لا شيء فيها غير رمل رقيق لا يشوبه حجر ولا مدر ،
إذا رأى الرائي العظم في تلك الصحراء من بعيد حسبه قصراً وإن رأى بعرة
حسبها رجلاً .

ومن هذه الصحراء إلى زويلة يوم وهي نحو في مدينة أجدابية ، وهي
مدينة غير مسورة في وسط الصحراء . وهي أول حد بلاد السودان وبها جامع
وحمّام وأسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها ، ومنها يفترق قاصدهم
وتتشعب طرقهم ، وبها نخيل وبَساط للزرع يسقى بالإبل . ولما فتح عمرو
برقة بعث عقبة بن نافع حتّى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين .
وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي الشاعر . قال بكر بن حماد :

الموتُ غادرَ دعبلاً بزويلةَ وبأرض برقة أحمد بن خصيب

[١١] وبين زويلة ومدينة أجدابية أربع عشرة مرحلة ولأهل زويلة / حكمة في
احتراس بلدهم ، وذلك أن الذي عليه نوبة الاحتراس منهم يعمد إلى دابة
فيشد عليها حزمة حطب كبيرة من جرايد النخل تنال سعفها الأرض ثم يدور
بها حوالي المدينة ، فإذا أصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن يتبعه على
جمال السروج وداروا بالمدينة فإن رأوا أثراً خارجاً من المدينة اتبعوه حتّى
يدركوه أينما توجه لصّاً كان أو عبداً أو أمة أو بعيراً . وزويلة من أطرابلس
بين المغرب والقبلة ، ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية إفريقية وما هنالك .
ومبايعاتهم بثياب قصار حمر . وبين زويلة وبلد كانم أربعون مرحلة . وهم وراء
صحراء بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم ، وهم سودان مشركون ويزعمون
أن هنالك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين ، وهم على زي
العرب وأحوالها . وبين مدينة زويلة ومدينة سبهى مسيرة خمسة أيام ، وهي
مدينة كبيرة بها جامع وأسواق . وبين مدينة سبهى ومدينة هل مثل ذلك ،
وهي مدينة عامرة كثيرة النخل وعيون الماء .

ومن مدينة هل إلى مدينة ودان يوم ولها قلعة حصينة وللمدينة دروب
وهي مدينتان فيها قبيلتان من العرب : سهميون وحضرميون فتسمى مدينة
السهميين دلباك ومدينة الحضرميين مدينة بوصى وجامعهما واحد ؛ بين الموضعين
وبين القبيلتين تنازع وتنافس ، قد آل ذلك بهم مراراً إلى الحرب والقتال .
وعندهم فقهاء وقرّاء وشعراء وأكثر معيشتهم من التمر ولهم زرع يسير
يسقونه بالنضح . ومن مدينة ودان إلى مدينة تاجرفت ثلاثة أيّام وهي مدينة
آهلة بها جامع يسكنها أهل ودان ، والتمر بها كثير وأكثر أجناسه البرني ،
ومنها يخرج إلى مدينة سرت ؛ وبينها وبين زويلة مسيرة اثني عشر يوماً ،

وبينها وبين مدينة ودان مثل ذلك ، وهي متوسطة بينهما ، زويلة بغربيها
[١٢] وودان بشرقيها ، هكذا قال محمد .

والذي مرّ هنا من ذكر المسافة بين تاجرفت وزويلة أربعة عشر يوماً على الطريق الأقصد ، ومن تاجرفت إلى الفسطاط تسع وعشرون مرحلة . وطريق آخر من زويلة إلى تاجرفت : من زويلة إلى مدينة تمسّى يومان . ومدينة تمسّى كبيرة بها جامع وأسواق يسيرة . ومنها إلى مدينة زهى ثمانية أيّام في صحراء ، وفي وسط الطريق منزل لأهل ودان . ومدينة زهى كبيرة واسعة فيها جامع ولها نخل كثيرة وعين ماء نزة ، يسكنها مزاتة . ثمّ تمشي ستّة أيّام إلى فحص بركانة ، ثم إلى الفاروج وهو قصر قد خرب يجاوره جب وحوله سبخة وبينه وبين سرت خمس مراحل ، ثم إلى مدينة أجدابية مرحلة ، ثم منها ثلاثة أيام إلى قصر زيدان الفتى ، ثم تمشي أربعة أيام إلى مدينة أوجلة ، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل ، وأوجلة اسم الناحية ، واسم المدينة أرزاقية . وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه وبمدينتها مساجد وأسواق ، ثم أربعة أيام إلى مدينة تاجرفت .

ومن سلك من أطرابلس إلى ودان فإنّه يسير في بلد هوارة نحو الجنوب في قياطن وبيوت شعر وهناك مرئيات ومنازل إلى قصر ابن ميمون ؛ وذلك كلّه من عمل أطرابلس . ثم من قصر ابن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على ربوة يسمى كرزة . ومَن حواليه من قبائل البربر يتقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به في أموالهم إلى اليوم . ومن هذا الصنم إلى ودان مسيرة ثلاثة أيام .

وكان عمرو بن العاصي قد بعث إلى ودان بسر بن أرطاة وهو محاصر أطرابلس فافتتحها وذلك سنة ثلاث وعشرين . قال ابن عبد الحكم : ثم إنهم نقضوا

عهدهم ومنعوا ما كان بسر بن أرطاة فرض عليهم ، فخرج عقبة بن نافع الفهري
[١٣] إلى المغرب بعد معوية بن حديج ، وذلك سنة ست وأربعين ، / ومعه بسر بن أرطاة وشريك بن سحيم المرادي . فأقبل حتى نزل بغدامس من سرت ، فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه في أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان ، فافتتحها وأخذ ملكهم فجدع أذنه ، فقال : لمَ فعلت هذا وقد عاهدني المسلمون ؟ قال : أدباً لك إذا مسست أذنك ذكرت فلم تحارب العرب . واستخرج منه ما كان بسرٌ فرض عليه ثلاثمائة رأس وستين رأساً . ثم سألهم عقبة هل وراءكم أحد قالوا : جرمة ، وهي مدينة فزان العظمى . فسار إليها ثماني ليال من ودان فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا ، فنزل منهم على ستة أميال وخرج ملكهم يريد عقبة . وأرسل عقبة خيلاً حالت بينه وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب وأعيا وكان ناعماً فجعل يبصق الدم . فقال : لمَ فعلت هذا وقد أتيتك طائعاً ؟ قال عقبة : أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب العرب . وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبداً . ثم مضى عقبة من فوره إلى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى إلى أقصاها . ثم سألهم هل وراءكم من أحد قالوا : نعم أهل جاوان ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة على رأس جبل وعر وهو قصبة كوّار . فسار إليهم خمس عشرة ليلة فحاصرهم شهراً فلم يستطع لهم بشيء . فمضى أمامه على قصور كوار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها فأخذه وقطع إصبعه فقال : لمَ فعلت هذا بي ؟ قال : أدباً لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك ذكرت فلم تحارب العرب . وفرض عليهم ثلاثمائة وستين رأساً . ثم سألهم : هل من ورائكم أحد ؟ فلم يعلموا من ورائهم أحداً ، فكرّ

راجعاً إلى قصر جاوان فلم يعرض له ولا نزل به . وسار ثلاثة أيام فأمنوا
[١٤] وانبسطوا وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم / ماء الفرس فنفد ماؤهم وأصابهم عطش كاد يهلكهم . فصلى عقبة بأصحابه ركعتين ودعوا الله عزّ وجلّ فجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى انكشف عن صفا فانفجر منها الماء ، فنادى عقبة في الناس ان احتفروا فاحتفروا ماء معيناً طيباً فسمي لذلك ماء الفرس ، ثم كر راجعاً إلى جاوان من غير طريقه التي أقبل منها فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً فوجدهم مطمئنين قد أمنوا . فاستباح ما في مدينتهم من ذراريهم ونسائهم وأموالهم وقتل مقاتليهم ثم انصرف راجعاً حتى أتى زويلة . ثم ارتحل حتى قدم عسكره بعد خمسة أشهر فسار متوجهاً إلى المغرب وجانب الجادّة ، وأخذ إلى أرض مزاتة فافتتح كل قصر بها ، ثم سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قسطيلية ، ثم انصرف إلى القيروان .

الطريق من أوجلة المتقدمة الذكر إلى الواحات

من أوجلة إلى بلد سنترية عشر مراحل في صحراء ورمال قليلة الماء . وسنترية هذه كثيرة العيون والثمار والحصون ، أهلها بربر لا عرب فيهم . وتسير من سنترية على طرق شتى إلى أودية الواحات ومن سنترية إلى بهنسى الواحات عشر مراحل ، وهي غير بهنسى الصعيد ، ومن بهنسى الواحات إلى أريش الواحات ثماني مراحل . وبهنسى الواح مدينة مسورة فيها أسواق ومساجد . وذكر محمد بن سعيد الأزدي ، رجل من أبناء مدينة سفاقس ، أنّه دخلها ورأى فيها في يوم عيد النصارى ، وأهلها عرب مسلمون وقبط نصارى ، تابوتاً فيه رجل ميت يجعلونه على عجلة يسمونه ابن قرمى ويزعمون

أنّه من الحواريين يتطوفون به في سكك البلد ويتبركون بذلك ويتقربون
[١٥] إلى الله ، / تجرّ تلك العجلة البقر فإن نفرت من موضع ولم تسر فيه علموا أن في ذلك الموضع نجاسة .

وأريش بلد كثير العيون الحارّة والثمار والنخيل ، مياهها كلّها حامة ، ومن أريش ثلاثة أيام إلى الفرفرون ، وبالفرفرون معادن الشبوب المريّش والقصبي وفيه أنواع الزاج وفيه العيون الحامضة وغير ذلك من المياه المختلفة الأطعمة . والفرفرون هذا بلد كثير الأشجار والنخيل وفيه قرى كثيرة وأهلها قبط نصارى .

وتسير من الفرفرون إلى الواح الداخل أربع مراحل في صحراء لا ماء فيها ولا عمارة . وهذا الواح الداخل كثير الأنهار والعمارات والحصون ، منها حصن يسمى بالقصر في وسط عين ماء ثرثار يتشعّب منه أنهار تسقي زرعهم ونخلهم وثمارهم . وتسير منه في قرى متصلة إلى حصن يسمى قلمون مياهه حامضة ، منها يشربون ويسقون وبها قوامهم . وإن شربوا سواها من المياه العذبة استوبؤوه . وآخر هذا الواح الداخل قرية كبيرة تسمى القصبة لها مياه عذبة سايحة تسقي نخلها وثمارها ولها ثلاث أعين ملحة يجتمع ماؤها في سباخ فيكون ملحاً ، ملح العين الواحدة أبيض وملح العين الثانية أحمر وملح العين الثالثة أصفر ، وهذا الأصفر هو المستعمل بمصر وبرقة .

ومن هذا الواح إلى الواحين الخارجين ثلاث مراحل وهو آخر بلاد الإسلام ، وبينه وبين بلاد النوبة في صحراء ست مراحل . وفي بعض الواحات قبائل من لواتة . وزعموا أن في أقصى الواحات بلداً يقال له واح صبروا وأنه بلد لا يقع عليه إلاّ من قد ضلّ في الصحراء في النادر من الزمان . فالواقع عندهم يقول إنّه يكون في بلادهم ما شاء ، وهم في أخصب عيش . فإذا أراد

الرجعة أروه صوب بلاده . وقد وقع في هذا البلد من عرب بني قرّة رجمة ابن قايد القري ورجع إلى موضعه ، ثم طلبه بعد ذلك فلم يقدر عليه فأعدّ مقرب بن ماضي أمير / بني قرّة بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة زاداً وماء [١٦] كثيراً وظهراً ، وذهب في الصحراء يطلب واح صبروا . وبقي يجول في الصحراء مدة فلم يقدر عليها حتى خاف من نفاد الزاد فكرّ راجعاً ، فنزل ذات ليلة ربوة من الأرض في بهماء تلك الصحارى ، فوجد بعض أصحابه في ناحية من تلك الربوة بنياناً للأول فبحثوا عنه فإذا هو لَبِن نحاس أحمر محيط بالربوة أساس سور للأول ، فأوقروا منه جميع ما كان عندهم من الظهر ورحلوا عنه ، ولو قدروا على إصابة موضعه لم يفرغ من نقل ما فيه من النحاس إلاّ في الزمان الطويل . وأتى مقرب في منصرفه الواح الخارج فأخبره رجل من أهله أنّه غدا إلى حائطه فوجد أكثر تمره قد أُكل ووجد أثر قدم إنسان لا يشبه هذا الخلق في العظم فاحترسه هو وأهله ليالي ، حتى طرقهم في بعض الليالي خلق عظيم لم يعهد مثله وجعل يأكل التمر . فلما همّوا به وأحسّ بهم بارى الريح حُضراً ولم يعلموا له أمراً . فنهض معهم مقرب إلى الأثر حتى وقف عليه فاستعظمه وأمرهم أن يحفروا زبية في الموضع الذي كان يدخل منه ويغطوا أعلاها بالحشيش ويرقبوه ليالي تباعاً ، ففعلوا ، فلمّا كان بعد ليال أقبل على عادته فتردى في الزبية فبدروا فغلبوه بكثرتهم وترديه ، فإذا هي امرأة سوداء عظيمة الخلق مفرطة الطول والعرض لا يُفقه منها كلمة ، فكلموها بكل لسان علم هنالك فلم تجاوب منهم أحداً . فبقيت عندهم أياماً يأتمرون في أمرها ثم اتفقوا على إرسالها وركوب النجب والخيل في أثرها إلى أن يقفوا منها ومن موضعها على حقيقة خبر . فلما أُرسلت لم يكن طرف العين يلحقها وفاتت شأو النجب والخيل، ولم يقف أحد من أمرها على حقيقة . ويذكرون

أن هناك رمالاً عظيمة تعرف بالجزاير كثيرة النخل والعيون لا عمران فيها [١٧] ولا أنيس بها وأن / عزيف الجن يسمع بها الدهر كلّه ، وربما أقام بها غزاة السودان ولصوصهم لانتهاز الفرصة في المسلمين ، ويتكادس التمر هناك أعواماً لا يقع عليه أحد ولا يبلغ إليه حتى ينتجعه الناس في السنين الجدبة وعند الحاجة والضرورة .

٨

نزهة المشتاق للإدريسي

[٢٢] ويلي أرض زغاوة أرض فزان وبها من البلاد مدينة جرمة ومدينة تساوة ، والسودان يسمون تساوة جرمى الصغرى . وهاتان المدينتان يقرب بعضهما من بعض وبينهما نحو مرحلة أو دونها [وهما] في العظم وكثرة العامر سواء ، ومياههم من الآبار ، وعندهم نخيلات ويزرعون الذرة والشعير ، ويسقونهما بالماء نطلاً بآلات يسمونها النجفة ، وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة . وعندهم معدن فضة في جبل يسمى جبل جرجيس وفائده قليل ، وقد ترك الطالبون عمله واستخراجه لمن قصده .

ومن تساوة إلى هذا المعدن نحو من ٣ مراحل ومن مدينة تساوة إلى قبيل من البربر في جهة المشرق نحو من ١٢ يوماً . ويسمون أزقار وهم قوم رحالة وإبلهم كثيرة وألبانهم غزيرة ، وهم أهل نجدة وقوّة وبأس ومنعة ، لكنّهم يسالمون من سالمهم ويميلون على من حاولهم . وهم يصيفون ويربعون حول جبل يسمى طنطنه ، وفي محيطه من أسفله ينابيع وعيون مياه جارية ومناقع كثيرة تجتمع بها المياه وينبت عليها الحشيش كثيراً ، وإبلهم ترعى هناك وينتقلون منه إلى أمكنة من عادتهم المقام بها .

ومن هذا الجبل الذي يستدير حوله ازقار إلى أرض بغامة ٢٠ مرحلة في أرضين خالية من الأنيس ، قليلة المياه ، منخرقة الهواء ، دارسة المسالك ، داثرة المعالم . ومن قبيلة ازقار إلى مدينة غدامس ١٨ مرحلة ومن ازقار أيضاً إلى مدينة شامة نحو من ٩ مراحل ، وبينهما مجابتان مياههما قليلة ، وربما أفرطت

الريح بها مع حر الهواء فنشفت المياه حتى لا توجد البتة .

وأهل ازقار فيما يذكره أهل المغرب الأقصى أعلم الناس بعلم الخط الذي ينسب إلى دانيال النبي عم . وليس يدرى بجميع بلاد البربر على كثرة قبائلها قبيلة أعلم بهذا الخط من أهل ازقار ، وذلك أن الرجل منهم ، صغيراً كان أو كبيراً ، إذا تلفت له ضالة أو عدم شيئاً من أموره خط لها في الرمل
[٢٣] خطّاً فيعلم بذلك موضع ضالته فيسير حتى يجد متاعه كما أبصره في / خطه . وربما سرق الرجل منهم متاع صاحبه ويدفنه في الأرض بعيداً أو قريباً ، فيخط الرجل الذي فقد متاعه ويقصد موضع الخبيّة ويخط بإزائها خطّاً ثانياً ، ويقصد بعلمه إلى موضع الخبية فيستخرج منها متاعه وما ضاع له ، ويعلم ممّا خطه الرجل الذي تعدى عليه وأخذ متاعه ويجمع أشياخ القبيلة فيخطون له خطّاً فيعلمون من ذلك البريء من الفاعل . وهذا عند أهل المغرب مشهور مذكور ، ولقد أخبر بعض المخبرين أنّه رأى رجلاً من هذه القبيلة في مدينة سجلماسة وقد خبيت له خبية بحيث لا يعرف ، فخط لها خطّاً وقصد موضعها فاستخرجها ، وأعيد عليه العمل بذلك ثلاث مرات ، فاستخرجها في الثانية والثالثة كما فعل في المرة الأولى . وهذا شيء عجيب من قوّتهم على هذا العلم على كثرة جهلهم وغلظ طبعهم . وفيما جئنا به كفاية في ذلك والحمد لله على ذلك . وهنا انقضى ما تضمنه الجزء الثاني من الإقليم الثاني والحمد لله وحده . إن الذي تضمن هذا

الجزء الثالث من الإقليم الثاني

من الأرضين بعض أرض ودان وأكثر بلاد كوار وبعض بلاد التاجوين المجوس وأكثر بلاد فزان .

وأمّا أرض ودان فإنّها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر . وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك في أهلها ناشئاً متوارثاً إلى أن جاء دين الإسلام فخافوا من المسلمين فتوغّلوا هرباً في بلاد الصحراء فتفرقوا ولم يبق بها الآن إلاّ مدينة دواد ، وهي الآن خراب ليس بها إلاّ بقايا قوم من السودان معايشهم كدرة وأمورهم نكدة ، وهم في سفح جبل طنطنه ، وإبلهم قليلة وأكثر أهلها يحفرون أصول نبات يسمى أغرسطس
[٢٤] وهو النجيل وهو عندهم من نبات الرمال فيجففونه / ويدقونه بالحجر ويخبزونه خبزاً يتقوتون به ويأكلون منه ، ويأكل جلتهم وخيارهم اللحوم الجمالية مقددة ، ويشربون ألبان الإبل ، وأكثر نيرانهم يقدونها في بعر الجمال وبعض الشوك ، والحطب عندهم قليل .

وفي جهة الشمال من هذه المدينة زويلة بناها عبد الله بن خطاب الهواري وسكنها هو وبنو عمّه في سنة ٣٠٦ وهي منسوبة إلى هذا الرجل وبه اشتهر اسمها . وهي الآن عامرة وسنأتي بذكرها في موضعها من الإقليم الثالث بعون الله .

وفي جبل طنطنه معدن حديد جيد ، وفي جنوب هذه الأرض مسارح ومرابع لأزقار وهم قوم من البربر رحالون في هذه الأرض ، كما قدمنا ، منتجعون بإبلهم ، وقد ذكرنا لمعاً من أخبارهم . . .

[٢٧] وأيضاً إن هذه الأرض تتصل بها أرض الواحات الخارجة ، وهي الآن تعرف بأرض سنّرية . وسنّرية هذه محدثة قريبة العهد سنأتي بذكرها بعد هذا ، وفيها ممّا يلي جنوبها مدينة هي الآن خراب وقد كانت فيما سلف عامرة بالخلق آهلة بالناس . وتسمى هذه المدينة شبرو ، وقد تهدم بناؤها ، وغارت مياهها ، وتشرد حيوانها ، وتنكرت معالمها ، فلم يبقَ منها إلا طلل

دارس ، وأثر طامس ، وبها بقايا نخل ماحلة ، وربما بلغتها العرب عند تصرفها في أكناف هذه الأرض . وبشرقي هذه المدينة مع الشمال جبل وعر ليس بكثير العلو لكنّه ممتنع الصعود إليه لانقطاع أحجاره ، وفي أسفله بحيرة كبيرة دورها نحو من ٢٠ ميلاً ، ماؤها عذب لكنه قليل العمق ، وفي وسطها نبات وبها حوت كثير الشوك سهلك الطعم . ويمد هذه البحيرة عين ماء تأتيها من جهة الجنوب وتقع فيها . وعلى هذه البحيرة ينزل رحالة أهل كوار ، وربما زاحمهم العرب عليها فأوقعوا الضرر بهم . وبهذه الأرض في وقتنا هذا مدينة مرندة وهي مدينة عامرة بأهلها والداخل إليها قليل لقلة بضاعاتهم ، واختصار صنائعهم ، وعدم الخيرات لديهم . لكنّها ملجأ ومسكن للوارد والصادر من رحالتهم وظواعنهم .

وبشمال هذه الأرض تتصل مدينة زالة . وزالة هذه بها حصن منيع فيه رجل ثائر بنفسه . وبين هذه المدينة ومدينة سرت ٩ أيام بين غرب وشمال إلى ناحية البحر . ومن زالة أيضاً إلى أرض ودان ٨ أيام . ومن زالة إلى زويلة ١٠ أيام منحرفة إلى الجنوب مع الغرب . وقد ذكرنا في هذا الجزء ما يحتاج إليه مستقصى بحول الله وتأييده . وهنا انقضى ذكر ما تضمنه الجزء الثالث من الإقليم الثاني والحمد لله وحده .

[٢٨] ومدينة أطرابلس مدينة حصينة عليها سور حجارة ، وهي في نحر البحر بيضاء حسنة الشوارع متقنة الأسواق وبها صناع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير
[٢٩] من / الجهات ، وكانت قبل هذا مفضلة العمارات من جميع جهاتها كثيرة شجر التين والزيتون وبها فواكه جمة ونخل إلاّ أن العرب أضرت بها وبما حولها من ذلك وأجلَت أهلها ، وأخلَت بواديها ، وغيّرت أحوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياهها ، واستفتحها الملك رجار في سنة ٥٤٠

فسبى حرمها ، وأفنى رجالها ، وهي الآن له في طاعته ، ومعدودة في جملة بلاده ، وأرض مدينة أطرابلس عديمة المثال في إصابة الزرع ولا يدرى أن على معمور الأرض مثلها في ذلك ، وهذا مشهور معلوم .

ومن مدينة أطرابلس في جهة الشرق إلى مدينة صرت ٢٣٠ ميلاً ، وهي ١١ مرحلة . وذلك أن السائر يخرج من مدينة أطرابلس إلى المجتنى ٢٠ ميلاً ، ومن المجتنى إلى ورداسا ٢٢ ميلاً ، ومن ورداسا إلى رغوغا ٢٥ ميلاً ، ومن رغوغا إلى تاورغا ٢٢ ميلاً ، ثم إلى المنصف ٢٥ ميلاً ، ثم إلى قصور حسان بن النعمان الغساني ٤٠ ميلاً ، ثم إلى الأصنام ٣٠ ميلاً ، ثم إلى صرت ٤٦ ميلاً . وهذا الطريق يبعد عن الساحل تارةً ويقرب أخرى ، وكلّ ذلك في ملك قبيلتين من العرب وهما عوف ودباب .

وبين مدينة صرت والبحر ميلان ، وعليها سور تراب وما استدار بها رمل . وبها بقايا نخيل ولا زيتون بها ، وبها كثير من شجر التوت وبقايا من شجر التين كثير . غير أن العرب تأتي على أكثر ذلك بإفسادها . وليس بها من العشب ما يأوجلة ، ولا من التمر ما بودان . وكان نخيلهم فيما سلف فوق الكفاف لهم ، وكانت لهم أعناب وفواكه إلاّ أنّها قد تلفت في وقتنا هذا ولم يبق بها شيء إلا ما كان في بطون الأودية ورؤوس الجبال . ومياهها من المطر في المواجل ، وآبارها قليلة وعليها قبائل من البربر .

وعلى مدينة أطرابلس جبل مقدة وبينهما ٣ مراحل . ومن مدينة أطرابلس إلى جبل نفوسة ٦ مراحل . وكذلك من جبل نفوسة إلى سفاقس ٩ مراحل ، ومن جبل نفوسة أيضاً إلى قسطيلية ٦ مراحل .

[٩١] وأهل جبل نفوسة كلّهم إسلام لكنهم خوارج نكار على مذهب ابن منبه اليماني . وقد ذكرنا هذا المذهب في ذكرنا أهل جزيرة جربة .

ومن جبل نفوسة إلى جبل دمر ٣ مراحل في رمل متصل . وفي أطراف هذا الجبل قوم من البربر يسمون زهانة ، وهم قوم ينتجون الإبل ويركبون أمضاها وأسرعها خطىً ويسيرون فرقاً إلى ما تباعد منهم من قبائل العرب ، فيضربون عليهم ويغيرون على إبلهم ويعودون بغنائمهم إلى جبلهم ومواضع مساكنهم التي يأوون إليها . وليس لهم شغل إلا هذا وليس أحد من العرب المجاورين لهم إلا ويتشكى أذيّتهم ، وقليلاً ما يُظفر بأحد منهم لسرعة جري نجبهم ودلالتهم بتلك الأرض وتحصنهم في أمكنتهم كما قلناه . وتتصل هذه البلاد في جهة الجنوب ببلاد ودان .

[٩٢] ومن مدينة أطرابلس إلى قصر على رأس قاليوشا ١٤ ميلاً ، ومنه إلى قصر الكتاب ٨ أميال ، ومنه إلى قصر بني غسان ١٢ ميلاً ، إلى مصب وادي لادس ١٨ ميلاً ، ومنه إلى طرف رأس الشعراء ١٤ ميلاً فذلك من رأس [٩٣] قاليوشا إلى رأس الشعراء روسية ٤٠ ميلاً ، وعلى التقوير ٥٢ ميلاً ، ومن راس الشعراء إلى قصر شريكس ١٤ ميلاً ، إلى قرطيل المسن وهو طرف داخل في البحر ٤ أميال ، ومنه إلى لبدة ٤ أميال .

وكانت مدينة لبدة كثيرة العمارات ، مشتملة الخيرات ، وهي على بعد من البحر . فتسلطت العرب عليها وعلى أرضها فغيرت ما كان بها من النعم وأجلت أهلها إلى غيرها ، فلم يبق الآن منها إلاّ قصران كبيران وعمارهما وسكانهما قوم من هوارة البربر . ولها على نحر البحر الآن قصر كبير عامر آهل به صناعات وسوق عامرة . وللبدة نخل كثير وزيتون يستخرجون زيته في وقته .

ومن لبدة إلى قصر بني حسن ١٧ ميلاً ، ومنه إلى مرسى باكرو ميل واحد . وهو مرسى حسن يكنّ من كل الرياح ، ومنه إلى قصر هاشم إلى

قصر سامية ١٢ ميلاً ، ومن قصر سامية إلى سويقة ابن مثكود ١٢ ميلاً ، ومن السويقة إلى طرف قانان المشهور ٢٠ ميلاً ، فذلك من أطرابلس إلى طرف قانان على التخلية ١٨٠ ميلاً وعلى التقوير ٢١٠ أميال . وهنا انقضى ذكر ما تحصل في هذا الجزء من ساحل البحر الشامي حسبما أوجبته القسمة له ، وسنأتي بذكر ما بقي منه فيما يأتي بحول الله تعالى . والسويقة التي ذكرناها تنسب إلى ابن مثكود ويسكن حولها وبها قبائل من هوارة برابر تحت طاعة العرب ، وبها سوق مشهودة وهي قصور كثيرة وأهلها يحرثون الشعير على السقي ، والعرب يخزنون بها طعامهم . وهنا انقضى ما تضمنه الجزء الثاني من الإقليم الثالث والحمد لله .

إن الذي تضمنه هذا

الجزء الثالث من الإقليم الثالث

من الأرضين أكثرها خلاء ، وعامرها قليل ، وأهلها عرب مفسدة في الأرض مغيرة على من جاورها . وفيها من البلاد زويلة ابن خطاب ومستيح وزالة وأوجلة وبرقة . وعلى ساحل البحر الشامي من القصور جُمل لا يحيط
[٩٨] بها التفصيل ، وفيها من / البلاد المشهورة صرت وأجدابية ، أما وإن كانتا في زماننا هذا في نهاية ضعف وقلّة عامر فقد بقي لهما ومنهما توهّم رسم وحلية اسم . والمراكب ترد عليهما بالأمتعة النافقة فيهما ومنافعهما على قدرهما . وها نحن ذاكرون لهذه المدن والأرضين والقصور والبحور واصفون لحالاتها ، والحول والقوّة لله سبحانه .

فأما مدينة برقة فمدينة متوسطة المقدار ليست بكبيرة القطر ولا بصغيرة ،

غير أنّها في هذا الوقت عامرها قليل وأسواقها كاسدة ، وكانت فيما سلف على غير هذه الصفة . وهي أوّل منبر ينزله القادم من بلاد مصر إلى القيروان ، ولها كور عامرة بالعرب ، وهي في بقعة فسيحة يكون مسيرها يوماً وكسراً في مثله ، ويحيط بهذه البقعة جبل وأرضها حمراء خلوقية التراب ، وثياب أهلها أبداً حمر ، وبذلك يُعرف أهلها في سائر البلاد المحيطة بها . والصادر عنها والوارد إليها كثير في الأحايين لأنها بعيدة عن البلاد المجاورة المقاومة لها في جميع حالاتها . وهي بريّة بحرية ، وكان لها من الغلات في سائر الزمان القطن المنسوب إليها الذي لا يجانسه صنف من أصناف القطن . وكان بها وإلى الآن ديار لدباغ الجلود البقرية والنمور الواصلة إليها من أوجلة . وهي الآن يتجهز منها المراكب والمسافرون الواصلون إليها من الإسكندرية وأرض مصر بالصوف والعسل والزيت ، وتخرج منها التربة المنسوبة إليها فينتفع بها الناس ويتعالجون بها مع الزيت للجرب والحكة وداء الحية ، وهي تربة غبراء وإذا ألقيت في النار فاحت لها رائحة كرائحة الكبريت وهي فظيعة الدخان كريهة الطعم .

ومن برقة إلى مدينة أوجلة في البرية ١٠ مراحل بسير القوافل ، وكذلك من برقة إلى أجدابية ٦ مراحل ، وهي من الأميال ١٥٢ ميلاً ؛ ومن برقة إلى الإسكندرية ٢١ مرحلة ، وهي من الأميال ٥٥٠ ميلاً ، والأرض التي بينهما يقال لها أرض برنيق .

وأجدابية مدينة في صحصاح من حجر مستوٍ كان لها سور فيما سلف ، وأمّا الآن فلم يبق منها إلا قصران في الصحراء والبحر منها على ٤ أميال .
[٩٩] وليس بها ولا حولها شيء من النبات وأهلها الغالب عليهم يهود ومسلمون تجار ، ويطوف بها من أحياء البربر خلق كثير . وليس بأجدابية ولا ببرقة ماء جار ، وإنما مياههم من المواجل والسواني التي يزرعون عليها قليل الحنطة ،

والأكثر الشعير ، وضروباً من القطاني والحبوب .

ومن أجدابية إلى أوجلة ٥ مراحل ، ومدينة أوجلة مدينة صغيرة متحضرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة وذلك على قدر احتياجهم واحتياج العرب . وهي في ناحية البرية يطيف بها نخل وغلات لأهلها ، ومنها يدخل إلى كثير من أرض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو . وهي في رصيف طريق الوارد عليها والصادر كثير ، وأرض أوجلة وبرقة أرض واحدة ومياهها قليلة وشرب أهلها من المواجل .

ومن أوجلة إلى مدينة زالة ١٠ مراحل غرباً وهي مدينة صغيرة ذات سوق عامرة ، وبها أخلاط من البربر من هوارة وتجارات ، وفي أهلها حماية ومروءة . ومن زالة يدخل إلى بلاد السودان أيضاً ، وكذلك من مدينة زالة إلى مدينة زويلة ١٠ أيام ، وبين زالة وزويلة مدينة صغيرة تسمى مستيح . ومن زالة إلى أرض ودان ٣ أيام ، وودان جزائر نخل متصلة وعمارات كثيرة . ومن زالة إلى مدينة صرت ٩ أيام . ومن مدينة صرت إلى أرض ودان ٥ مراحل .

وودان هذه ناحية في جنوب مدينة صرت ، وهما قصران بينهما مقدار رمية سهم . والقصر الذي يلي الساحل خال والذي مع البرية مسكون . ولها آبار كثيرة ويزرعون بها الذرة ، وبغربيها غابات وحولها شجر التوت كثير ، وشجر تين ذاهب ونخل كثير وتمور لينة حلوة ، أما وإن كانت تمور أوجلة أكثر فتمور ودان أطيب . ومنها يدخل إلى بلاد السودان وغيرها .

وأمّا مدينة زويلة ابن خطاب فمنها إلى صرت ٥ مراحل كبار ، ومنها إلى السويقة المسماة بسويقة ابن مثكود ١٦ مرحلة . ومدينة زويلة ابن خطاب في صحراء ، وهي مدينة صغيرة وبها أسواق ومنها يدخل إلى جُمل من بلاد

[١٠٠] السودان . / وشرب أهلها من آبار عذبة ، ولها نخل كثير ، وتمرها حسن ، والمسافرون يأتونها بأمتعة من جهازها وجُمل من أمور يحتاج إليها . والعرب تجول في أرضها وتضر بأهلها قدر الطاقة . وكلّ هذه الأرضين التي ذكرناها ملك بأيدي العرب . فمن قصر العطش إلى قافز هي لناصرة وعميرة ، وهما قبيلتان من العرب ، ومن قافز إلى طلميثة إلى لك هي لقبيلة من البربر متعربين يقال لهم مزاتة وزيبانة وفزارة . وهم يركبون الخيول ويعتقلون الرماح الطوال ويحمون تلك الأرض عن العرب أن تدوس ديارهم ولهم عزّة ونخوة وجلادة .

فأمّا البحر الذي تضمنه هذا الجزء فهو لمن قطعه روسية ٧ مجار وأمياله ٧٠٠ ميل . وهذا الجون على تقويره ١٣ مجرى وأمياله ١٣٠٠ ميل وذلك لأن من طرف قانان إلى مدينة صرت ٣ مجار . وقد ذكرنا مدينة صرت فيما سلف . ومن مدينة صرت إلى قصر مغمداش مجرى ونصف ، ومنه إلى الجزيرة البيضاء مجرى ونصف ، إلى قصر سربيون مجرى ، ومن قصر سربيون إلى قصر قافز نصف مجرى ، إلى برنيق نصف مجرى ، إلى الأبراج الأربعة مجرى ، ثم إلى توكرة ٥٠ ميلاً ، ثم إلى طلميثة ٥٠ ميلاً ، ثم إلى الطرف مجريان . وهذا ذكر مجمل ، ونزيد أن نذكر ما عليه من القصور : فإذا خرج الخارج من طرف قانان صار إلى قصور حسان قطعاً في البرية ٤ مراحل كبار ليس بها شيء من الماء ، وهو وطاء لا عوج به ولا أمت . وقصور حسان لا عامر بها وإنما هي الآن في وقتنا هذا خراب لم يبق منها إلاّ أثر غابر . وبها ماء يشرب من بئرين قريبتي القعر ومنهما يتزود بالماء المار بها والجائي ، ويأخذ منها ما يكفيه لشربه في مسافة سفره . ومنها إلى الأصنام ٣٠ ميلاً وتسمى هذه الحلوق جون زديق ، والماء يوجد بها في جرون محفورة في الرمل على ضفّة البحر ، وسميت الأصنام لأن بالقرب منها في البرية عدّة أصنام

وهي من بناء الروم الأول . ومن الأصنام إلى القرنين وهو قصر كبير
[١٠١] عامر ، وفي وسطه بئر عميقة ، وإليها مياه الأمطار في زماننا . ومنه إلى صرت ١٣ ميلاً ، ومدينة صرت ذكرناها قبل هذا بما فيه كفاية . ومنها إلى قصر العبادي على البحر ٣٤ ميلاً ، ومن قصر العبادي إلى اليهودية ٣٤ ميلاً ، وهو قصر عامر وفيه زراعات على مياه تستخرج بالسواني من آبار . ومن اليهودية إلى قصر العطش ٣٤ ميلاً ، وهو قصر عامر وفيه زراعات وفيه ثلاث جباب . ومن قصر العطش إلى منهوشة ٣ مراحل لا ماء فيها ، وهي سباخ وطيئة ، ومنهوشة على البحر ومياهها في أحساء تحتفر في الرمل على البحر ، وسميت منهوشة لأن في رمالها أفاعي صغاراً طول الواحدة شبر لا زائد وهي تضر وتنهش من لا يعلم أمرها ومن أسرى بالليل في تلك الأرض . وبها قطائع بقر وحشية وكذلك بها ذئاب كثيرة وضباع تفترس السالك إذا تبينت الضعف فيه .

ومن منهوشة إلى بئر الغنم نحو من ١٣ ميلاً وهي على آخر السبخة المنسوبة إلى منهوشة . ومنها إلى الفاروخ مرحلة وهي من الأميال ٣٠ ميلاً . ومن الفاروخ إلى حرقرة ٢٥ ميلاً ، ثم إلى برسمت ٢٠ ميلاً ، ثم إلى سلوق ٢٤ ميلاً ، ثم إلى أويرار ٣٠ ميلاً ، ثم إلى قصر العسل ١٢ ميلاً ، ثمّ إلى مليتية ٢٧ ميلاً ، ثم إلى برقة ١٥ ميلاً . والطريق من سلوق إلى قافز مرحلة . وقافز قصر في وسط وطاء برنيق . وفي شرقيها غابة متصلة إلى البحر ، وبينها وبين البحر ٣ أميال ، وبمقربة من قافز في جهة الشرق بحيرة مع طول البحر يحجزها تل رمل وماؤها عذب وطولها ١٦ ميلاً ، وفي سعتها نحو من نصف ميل ، ومن نصف هذه البحيرة تبتدىء الغابة . وبهذه الأرض قبائل رواحة . ومن قافز إلى قصر توكرة مرحلتان ، وهو قصر عامر آهل وفيه قوم

من البربر وحوله أرض عامرة وسوان يزرع عليها القطاني ، والشّعراء محيطة بها ، ومنها إلى قمانس ، وهو قصر ، ١٠ أميال ، ومنه إلى أوطليط ، وهو قصر ، نصف يوم ، وهو قصر عامر بالناس ، ومنه إلى الأبراج
[١٠٢] الأربعة ، وهو قصر ، / يوم ، ومنه إلى قصر العين ١٠ أميال ، ومنه إلى قصر طلميثة ، وهو حصن جيد عليه سور حجارة ، ١٠ أميال ، وهو عامر بالناس ، والمراكب تقصد إليه بالمتاع الحسن من القطن والكتان ، ويتجهز منه بالعسل والقطران والسمن في المراكب الواصلة إليه من الإسكندرية ، وحوله قبائل رواحة من جهة المغرب ، ومن طلميثة إلى جهة المشرق قبائل هيب . وسنأتي بما يتصل بهذه البلاد والأرضين بعد هذا إن شاء الله تعالى . وهنا انقضى ذكر ما تضمنه الجزء الثالث من الإقليم الثالث والحمد لله وحده .

إن الذي تضمن هذا

الجزء الرابع من الإقليم الثالث

من البلاد البرية سنترية وصحار متصلة إلى أعمال الإسكندرية ومع ذلك ديار مصر وبعض بلادها العليا ، وبلاد أسفل الأرض منها متصلة بمعظم النيل وبلاد الفيوم والريف ثم أسفل الأرض وما تحويه من الأقاليم والبلاد المعمورة التي هي من أعمال مصر ومنسوبة إليها . ونذكر ذلك ذكراً متصلاً شافياً ، ونذكر من أخبار مصر وعجائب بنيانها ومشاهير عجائبها والداخل فيها والخارج عنها ومقاييس مياهها ؛ كل ذلك على توال ونسق إن شاء الله تعالى .

فنقول إن من مدينة برقة إلى الإسكندرية على طريق مستقيم ٢١ مرحلة ، وذلك من برقة إلى قصر الندامة ٦ أميال ، ومنها إلى تاكنست ٢٦ ميلاً ، إلى مغار الرقيم ٢٥ ميلاً ، وهنا يجتمع هذا الطريق بالطريق الأعلى . ومن

مغار الرقيم إلى جب حليمة ٣٥ ميلاً ، ومن جب حليمة إلى وادي مخيل ٣٥ ميلاً ، ومن وادي مخيل إلى جب الميدان ٣٥ ميلاً ، ومن جب الميدان إلى جناد الصغير ٣٥ ميلاً إلى جب عبد الله ٣٠ ميلاً ، ثم إلى مرج الشيخ ٣٠ ميلاً ، ثم إلى العقبة ٢٠ ميلاً ، ثم إلى حوانيت أبي حليمة ٢٠ ميلاً . ومن
[١٠٣] حوانيت / أبي حليمة إلى خربة القوم ٣٥ ميلاً ، ثم إلى قصر الشماس ١٥ ميلاً . ومن قصر الشماس إلى سكة الحمام ٢٥ ميلاً . ومن سكة الحمام إلى جب العوسج ٣٠ ميلاً . ومن جب العوسج إلى كنائس الحرير ٣٠ ميلاً ، إلى الطاحونة ٢٤ ميلاً . ومن الطاحونة إلى حنية الروم ٣٠ ميلاً . ومن حنية الروم إلى ذات الحمام ٣٤ ميلاً . ومن ذات الحمام إلى ثونية ١٨ ميلاً ، ثم إلى الإسكندرية ٢٠ ميلاً . وهذه الطريق هي الطريق العليا في الصحراء وأمّا طريق الساحل فإنّه من الإسكندرية إلى راس الكنائس ٣ مجار . ومن مرسى الكنائس إلى مرسى الطرفاوي مجرى . ومن مرسى الطرفاوي إلى أول جون رمادة ٥٠ ميلاً . ومنه إلى عقبة السلم [...] ومن عقبة السلم إلى مرسى عمارة ١٠ أميال . ومن مرسى عمارة إلى الملاحة ٣٠ ميلاً . ومن الملاحة إلى لكّة ١٠ أميال . ومما يلي لكة في البرية قصران يسمى أحدهما كيب والثاني قمار . ومن لكة إلى مرسى طبرقة ٥٠ ميلاً . ومن طبرقة إلى مرسى راس تيني مجرى ونصف . ومن راس تيني إلى البندرية مجريان . ومن البندرية ينعطف البحر ماراً في جهة المغرب على استواء إلى طرف التعدية مجريان لا عمارة بهما وإنما هناك ممّا يلي البحر جبال وشعاب لا يقدر أحد على سلوكها لصعوبة مراقيها وخشونة طرقاتها وتعذر منافذها . ومن طرف التعدية يأخذ جون زديق في الابتداء إلى آخره . وهذا الجون الذي يأتي البندرية في أوله إلى أن ينتهي إلى الإسكندرية قطعه روسية ٦ مجار وهو ٦٠٠ ميل ، وطول هذا الجون إلى

الإسكندرية على التقوير ١١ مجرى ونصف ، وهي من الأميال ١١٥٠ ميلاً . ومن آخر عمالة طلميثة المتقدم ذكرها يكون أول عمالة هيب وزواحة ، وهم قبائل من العرب أهل إبل وأغنام وثروة وبلادهم آمنة وادعة . وبجبال أوثان حروث كثيرة وأهلها يتصيدون فيها وينبت بها البطم والعرعر والصنوبر كثيراً . وفي هذه الجبال زراعات ومعايش ونخل كثير وعسل عجيب ، وآخر عمل هيب لكة . وبعد البندرية على نحو ١٠ أميال قصر كبير يسكنه قوم من لحم ، ويسمى القصر بهم ، وأهله كلّهم عسالة يتخذون النحل ويشتارون عسلها ، وأكثرهم يستعملون قطع العرعر ثم يستخرجون منه القطران ويسافرون به إلى ديار مصر .

٩

كتاب الاستبصار

[١١٠] ذكر بلاد إفريقية وما فيها من العجائب وذكر البلاد الساحلية منها والصحراوية وذكر ما فيها من الآثار

مدينة أطرابلس : فأول مدن إفريقية على الساحل مدينة أطرابلس . وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر . والبحر يضرب في سورها ، وسورها من حجر جليل من صنعة الأولين . وقيل إن تفسير أطرابلس ٣ مدن ، وقيل مدينة اياس . وبها سوق حافلة وحمامات كثيرة وبساتين في شرقها ، وهي كثيرة الفواكه جمة الخيرات ، وأكثر أهلها تجار يسافرون براً وبحراً ، ولهم سمح في تجاراتهم ، وهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت . وداخل سورها بئر يعرف ببئر أبي الكنود ، يقال إنّه من شرب منه يحمق فهم يعيرون به ؛ يقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام عليه : لا عتب عليك لأنّك شربت من بئر أبي الكنود .

ومن أطرابلس إلى نفوسة ٣ أيام ، وطرف هذا الجبل الخارج في البحر هو طرف أوثان ، ما بين أطرابلس والإسكندرية ، وهو الطرف الذي إذا عدته المراكب استبشرت بالسلامة . وهذه المدينة تعد من بلاد إفريقية، وسنذكر ما ورد فيها من الآثار والله المستعان .

قال الناظر : كان في مدينة أطرابلس المذكورة رجل غُزّيّ اسمه قراقوش
[١١١] استند إلى ذروة هذا الأمر العزيز — أيد الله دوامه — / بعد شرود وفرار كان

منه ، وأسلم لأوليائه وآلائه ، وساعد غاوياً شقياً لفظه البحر من جزيرة ميورقة — فتحها الله — ولم تزل سعادته مخلصة من تلك الورطات ، إلى أن هلك الشقي الميورقي ، وأناب قراقوش إلى حزب التوحيد ، فغلب على طرابلس وأخرج منها المستولي عليها أبا زبا الفارسي ، وهو ثائر الزاب المذكور في الأراجيز . قال الضبّي :

وثائرُ الزاب إن حلّت عساكره بأرضِ سوسة ضاقتْ بالورى الحيلُ

فأدرك أهل علم الحدثان اسماً مركباً من الزاي والباء ، فقالوا ثائر الزاب ، لعلمهم بموضع ثورته وجهلهم باسمه ، حتى أبرز الأمر العزيز أبا زبا في الزاب . فلما توجه الخليفة أبو يوسف ، رضي الله عنه ، لفتح بلاد إفريقية سنة ٥٨٣ [= ١١٨٧ — ١١٨٨] ، خاطبه أبو زبا ضارعاً راغباً في الصلح والقبول ، ثم نكث واستبد بطرابلس حتى أناب قراقوش وصح توحيده ، فأخرجه منها وبعثه مقيداً ، فحل بحضرة مراكش سنة ٥٨٦ [= ١١٩٠] ؛ ونحن الآن في شهر رجب الفرد سنة ٥٨٧ [= يوليه — أغسطس ١١٩١] ، وكلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو .

[١١٢] مدينة بَرْقة : وهي مدينة كبيرة أزلية قديمة ، فيها آثار كثيرة للأول ؛ وهي في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها ؛ وعلى ٦ أميال منها جبل كثير الخصب والفواكه والمياه السائحة . وأرض برقة كثيرة الخصب تصلح السائمة في مراعيها ؛ وأكثر ذبائح أهل مصر والإسكندرية من غنم برقة لعظم خلقها وكثرة شحمها ولذة لحمها . واسمها باللغة الإغريقية بنطابلس ، تفسيره ٥ مدن . ويذكر أن في تلك الخرائب التي ببرقة والآثار القديمة داراً منقورة في حجر صلد ، عليها باب من حجر صلد

كذلك ، من أغرب ما يكون في الدنيا ، لا تدخل الذرة بين العضادة والباب ، ولا بينَ العتبة والباب ، ولا يفتح الباب إلا للداخل ، ولا يقدر أحد على الخروج منه إلاّ أن يدخل عليه آخر ، ويقال إنّه كان مفتوحاً لا قفل له . وأخبرني بعض من دخل ذلك الطريق أن رجلاً دخل فيه ليرى الدار ، فرأى داراً منقورة في حجر صلد ، وفيها من عظام الناس كثير ، فهاله ذلك فأراد الخروج فوجد الباب قد انغلق ولم يقدر على فتحه ، وأيقن بالهلكة حتّى طلبه بعض أصحابه فجاء إلى ذلك الباب فسمع صوته يستغيث بفتح الباب ، ففتحه فخرج الرجل . وفي تلك الآثار عجائب لمن يتأمّلها .

[١٤٤] مدينة أجْدابية : هي مدينة كبيرة في صحراء صفا ، وآبارها منقورة في ذلك الصفا ، طيبة الهواء والماء وبها عين ثائرة عذبة ، ولها بساتين ونخل يسير ، وبها جامع حسن البناء بناه الشيعي ، وله صومعة مثمنة بديعة العمل . وبها حمّامات وفنادق كثيرة ، وأسواق حافلة مقصودة ، وأهلها ذوو يسار وأكثرهم أقباط . وبها نبذ من صرحاء لواتة . وليس لمبانيها سقوف من خشب ، وإنّما هي أقباء من الطوب لكثرة الرياح بها . ثمّ كذلك قبائل البربر والعرب إلى جبل نفوسة وطوله من المشرق إلى المغرب ٦ أيام ، وبينه وبين القيروان ٦ أيام ، وفيه مدن كثيرة . وفي هذا الجبل مواضع كثيرة فيها آثار قديمة للأول ، عجيبة فيها غرائب لمن تأملها . ووصل عمرو بن العاص — رحمه الله — إلى جبل نفوسة وافتتحه وكان أهله نصارى ، وفي جبل نفوسة رجع بكتاب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وفي وسط هذا الجبل مدينة جادوا [وهي] مدينة كبيرة لها أسواق حافلة وأكثر أهلها يهود ، وهي أم قرى جبل نفوسة .

مدينة شرُوس : وهي مدينة كبيرة جليلة قديمة ، فيها آثار للأول ،

وأهلها إباضية ، وليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى ؛ وفي نظرها أزيد من ٣٠٠ قرية . ولا يرون في مذهبهم الجمعة . وفي هذا الجبل أمم كثيرة على مذاهب شتّى ، وأكثرهم إباضية . وليس لهم أمير يرجعون إلى أمره وإنما [١٤٥] لهم شيوخ وفقهاء في مذاهبهم يرجعون إلى أمرهم ، ولهم رخص كثيرة في مذاهبهم . أخبرني الثقة قال : رأيت رجلاً دخل بلادهم فرأى إنساناً قد أراد التطهر ، فنزل على ماء ونزع ثيابه وجعل يشبر كأنّه يغتسل ، وكأنّه يتوضأ ، وكأنّه يريق على رأسه وعلى جسده الماء . فقال له الرجل : ما هذا ؟ فسكت عنه حتّى فرغ ، فأخذه الرجل الغريب وحمله إلى حاكم البلد ، وقال له : رأيت هذا يفعل كيت وكيت . فقال له الحاكم : من أين أنت ؟ فقال : من المغرب ؛ فقال : والله لولا أنّك غريب ببلدنا لأدبتك ، وما يدريك لعل له عذراً ؛ قال الله تعالى : ﴿ يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ . وهذا أفضل مذاهبهم فإن فيهم من لا يرى الاغتسال بالماء جملة ، وإذا كان على أحدهم غسل يتمرغ في التراب ويتيمم مكان الوضوء ؛ وببلاد إفريقية من هذا المذهب كثير . والزنا الحرام بجبل نفوسة في مذهبهم : ما منهم رجل غني إلا وله وصائف كثيرة يُلبسهن فاخر الثياب ويحليهن بالحلى ، ويبرزهن على الطريق للفواحش ؛ ولهم ديار معدة لذلك ، وهذا عندهم معروف لا ينكر . ومن جبل نفوسة إلى بلد غدامس ٧ أيام في الصحراء ؛ والماء منها على مسيرة ٣ أيام وأكثر . وبلد غدامس بلد كبير ونظر واسع كثير النخل والمياه ؛ وأهلها بربر مسلمون لا يلتثمون على عادة بربر الصحراء من لمتونة ومسوفة وغيرها .

مدينة غدامس : مدينة لطيفة قديمة أزلية ، وإليها ينسب الجلد الغدامسي . وبها دوامس وكهوف كانت سجوناً للملكة الكاهنة التي كانت بإفريقية ؛ وهذه الكهوف من بناء الأولين ، فيها غرائب من البناء والآزاج المعقودة تحت

[١٤٦] الأرض ما يحير الناظر إليها إذا تأملها : تنبيء أنها آثار ملوك سالفة ، وأمم دارسة . وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وإنما كانت خصبة عامرة . وأكثر طعامهم الدخن ، والكسأة تعظم بتلك البلاد حتى تتخذ فيها البراميل والأرانب البحرية . ومن غدامس يدخل إلى تادمكت وغيرها من بلاد السودان .

مدينة زويلة : مدينة كبيرة غارجة نزلة في الصحراء ، تقرب من بلاد كاغو وهي من السودان ، وقد أسسوا بعد الـ ٥٠٠ من الهجرة [= ١١٠٦] وهي مجمع الرفاق وإليها يجلب الرقيق ، ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد . ولما فتح عمرو بن العاص برقة وجبل نفوسة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين . وبها زويلة كثير النخل والثمار ، وبقربها قصر واجان ، وهو قصر عظيم على رأس جبل في طرف الفترة ، وهو على المدينة ، فسار إليه ١٥ يوماً فنزل عليه وحصره نحو شهر ، فلم يقدر ، فمضى أمامه على قصور كثيرة ففتحها ، وأخذ ملكها فقطع إصبعه ، فقال : لم فعلت بي هذا ؟ قال عقبة : إذا نظرت إلى إصبعك لم تقاتل العرب . وفرض عليهم ٣٠٠ رأساً ثم سألهم : هل وراءكم أحد ؟ فلم يعلموا ما وراءهم ، فكر راجعاً على قصور واجان ولم يتعرض له ولا نزل عليه . وسار ٣ أيام ، فلما رأوا أنه لم يتعرض لهم أمنوا وانبسطوا ، فأقام عليه يوضع يسمى اليوم به الفرس ، فقتل ملوكهم وأصابهم الحطش حتى كاد يهلكهم . [١٤٧] فقال فضل عقبة لأصحابه ركعتين ودعوا الله تعالى ، فجعل فرس عقبة يبحث بيده في الأرض حتى انكشفت صفاة نبعت ماء ، فنادى عقبة في الناس أن بادروا . فاحتفروا فوجدوا ماء معيناً زلالاً يسمى ماء الفرس .

وكان يقال لعقبة المستجاب لأنه قلما دعا في بيل شيء إلا استجيب له . ثم كر راجعاً إلى قصر واجان من غير طريقه الذي أتى منه ، فلم يتعرضوا

حتى طرقهم ليلاً فرجعهم مفضوحين . فاستباح ما في مدينتهم من ذراري وأموال ونساء ، وقتل مقاتليهم ثم انصرف راجعاً إلى زويلة . ومن زويلة كرّ إلى غدامس بعد خمسة أشهر . وسار متوجهاً إلى المغرب . وجانب طريق ابتاعه . وأخذ أرض مزاتة وهم قبيل كبير من البربر . فافتتح قصورهم إلى قفصة فافتتحها وافتتح بلاد قسطيلية . ثم انصرف إلى القيروان . ثم مضى في بلاد المغرب حتى انتهى إلى أقصى بلاد السوس ، ثم انصرف راجعاً فتوفي شهيداً بتهودة من بلاد الزاب .

بلاد الواحات : وهي بلاد كثيرة في الصحراء ما بين بلاد إفريقية وبلاد مصر ، ولولا هذه الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من إفريقية إلى مصر على الواحات أقرب . والدخول إلى بلاد الواحات من أرجنة ، وزَلّى ، وغيرها ، التي في صحراء مدينة طرابلس . وبلاد الواحات كثيرة التمر والنخل ، وفيها مدن كثيرة معمورة وغير معمورة ، وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى [١٤٨] الواح : / أريس الواح ، ونفيس الواح ، وواح النخارج ، وواح صبرواء كلها لها اسم مثل هذا وأهلها مسلمون . وهي آخر بلاد الإسلام ، بينهم وبين بلاد النوبة مرحل . وفي بعض مدن الواحات للبان من لواتة ، وربما أقمنا أقياظ . وزعموا أن في أقصى بلاد الواحات بئراً يقال له واح صبرواء لا يقع عليه إلا من ضل في الصحراء ، وفي الندر من الزمان . وأنه بلد عظيم كثير الخيرات من النخل والزرع وجميع الفواكه ومعادن الذهب ، وأن أغلب بلاد السودان ، وأن أوائل عندهم يكون في أغلب خبر ، فإذا أرادوا خروجه من بلادهم ، أروه طرف بلاده فدفت نفسه إليها . فلم يبث عندهم ورحل كيفما استطاع . وقد وقع في هذا البلد رجل من عرب أبي غزة ، وبقي فيه مدة ورجع إلى بلاده ، وأخبر بما رأى فيه من الخيرات وبما في أيدي أربابه

من الأموال ، وليس لهم مدافعة ولا بصر بالحرب ولا سلاح لأنّهم لم يعهدوا الحرب . فأهاج ذلك أمير بني قرة وكان اسمه مقرب بن ماض ، وعزم على النهوض إليهم . فأعد أزودة كثيرة وماء كثيراً ، وذهب في الصحراء يطلب واح صبروا ، وضل به الرجل الذي دخل ذلك البلد فوصل مدينة الواح الخارج فسأل عن واح صبروا ، فقالوا كلّهم : ما نعرف له طريقاً ولا يجده إلاّ من ضل في الصحراء في النادر من الزمان ، وهو كما ذكر لك وأكثر . فخرج من الواح الخارج يطلب واح صبروا ؛ فبقي يجول في الصحراء مدة فلم يجده ولا قدر على الوصول إليه ، فخاف نفاد الزاد فكرّ راجعاً . فنزل في رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض في بهماء تلك الصحراء ، فوجد بعض أصحابه في نواحي تلك الربوة بيتاً للأول ، فبحثوا عليه فإذا هو لبِن من نحاس أحمر ، فزادوا في البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول . فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك اللبن ، وساروا حتى أتوا مدينة الواح الخارج [١٤٩] فباعوا / ذلك النحاس بأموال كثيرة . ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجدوا فيها النحاس ، فلم يقدروا عليها وضلّوا طريقها ؛ ولو وجدوها لكان فيها غناهم إلى آخر الدهر .

قيل أتى رجل من أهل الواح الخارج إلى مقرب بن ماض فأخبره أنه دخل حائط نخل كان له فوجد أكثر تمره قد أُكل ، ووجد فيه أثر قدم إنسان لا يشبه هذا الخلق في العظم . قال فاحترسه هو وأهله ليالي حتى طرقهم ذلك الشخص فرأوا خلقاً عظيماً لم يُعهد مثله ، فجعل يأكل التمر ، فلمّا هموا به فاتهم فلم يعلموا له أمراً . قال فنهض معهم حتى وقف على أثر ذلك الشخص فاستعظمه ، وأمرهم أن يحفروا زبية في الموضع الذي كان يدخل فيه ، ويغطوا أعلاها بالحشيش ويرقبوه . ففعلوا ذلك ورقبوه ليالي متتابعة ؛ فلما كان ذات ليلة

أقبل ذلك الشخص على عادته ، فتردى في الزبية فبادروا إليه بجميعهم وغلبوه بكثرتهم حتى أخذوه ، فإذا بامرأة سوداء عظيمة الخلقة مفرطة الطول والعرض لا يُفقه منها كلمة . فرآها مقرب بن ماض فهاله أمرها ، فكلموها بكل لغة علموها من لغات السودان فلم تجاوب بواحدة منها ، وتكلمت بكلام لا يُفهم وبقيت عندهم أياماً يأتمرون في أمرها ، فقال لهم مقرب : نرى أن ترسل ، وتركب الخيل العتاق السوابق والنجب العشار في أثرها إلى أن يوقف على موضعها ويعلم حقيقة أمرها . فلمّا أُرسلت ، فاتت الخيل والنجب وبارت الرياح فلم يقفوا على حقيقة خبرها . ويذكر أن بين بلاد الواح وبلاد الجريد من إفريقية رمالاً عريضة فيها بقاع تُعرف بالجزائر وهي كثيرة النخل والعيون ، لا عمران فيها ، ولا أنيس بها . ويقال إنّه يُسمع فيها أبداً عزف الجن ، ولا شك أنها كانت بلاداً عامرة . ويتكدس هناك من التمر تحت النخل أكوام لا يقع عليها أحد إلاّ الطير والوحش ، وربما انتجعه الناس في السنين الجدبة وعند الضرورة .

[١٥٠] قال الناظر : وصح عندنا أن قبيلة سليم المنقطعين في صحراء طرابلس ينتجعون تمر هذه المواضع ، ومنها يتعيشون ؛ وإليها يلجأون عند المطلبة لهم وفيها يعتصمون ؛ وسمعت هذا قبل الوقوف عليه بمنّه .

١٠

معجم البلدان لياقوت

[١٣١:١] أجدابية – بالفتح ثم السكون ودال مهملة وبعد الألف باء موحّدة وياء خفيفة وهاء – يجوز أن يكون إن كان عربيّاً جمع جَدَب جمع قلة ، ثمّ نزلوه منزلة المفرد لكونه علَماً فنسبوا إليه ثم خففوا ياء النسبة لكثرة الاستعمال ؛ والأظهر أنّه عجمي . وهو بلد بين برقة وطرابلس المغرب بينه وبين زويلة نحو شهر سيراً على ما قاله ابن حوقل . وقال أبو عبيد البكري : أجدابية مدينة كبيرة في صحراء أرضها صفا ، وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء ، بها عين ماء عذب وبها بساتين لطاف ونخل يسير ، وليس بها من الأشجار إلاّ الأراك ، وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم المسمى بالقائم بن عبيد الله المسمى بالمهدي ، له صومعة مثمنة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة . وأهلها ذوو يسار وأكثرهم أقباط ، وبها نبذ من صرحاء لواتة ولها مرسى على البحر يعرف بالمادور له ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلاً ، وليس بأجدابية لدورهم سقوف خشب إنما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها . وهي راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من مدينة أوجلة أصناف التمور ، وقال غيره : أجدابية مدينة كثيرة النخل والتمور وبين غربيها وجنوبيها مدينة أوجلة وهي من أعمالها ، وهي أكثر بلاد المغرب نخلاً وأجوده تمراً . وأجدابية في الإقليم الرابع وعرضها سبع وثلاثون درجة . وهي من فتوح عمرو بن العاصي فتحها مع برقة صلحاً على خمسة آلاف دينار وأسلم كثير من بربرها . ينسب إليها أبو إسحاق إبراهيم

ابن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي ، يُعرف بابن الأجدابي ، كان أديباً فاضلاً له تصانيف حسنة منها « كفاية المتحفظ » وهو مختصر في اللغة مشهور مستعمل جيد وكتاب « الأنواء » وغير ذلك .

[٣٠٩:١] أطرابلس : أيضاً مدينة في آخر أرض برقة وأول أرض إفريقية ؛ وصف أمرها أيضاً في باب الطاء . ومن أطرابلس هذه في الغرب أبو سليمان محمد بن معاوية الأطرابلسي سمع مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، وغيره . روى عنه حبيب بن محمد الأطرابلسي ، وحبيب بن محمد الأطرابلسي رجل صالح فهم . سمع جماعة من أهل بلده ، روى عنه أبو مسلم العجلي ووثقه . وعبد الله بن ميمون الأطرابلسي روى عن سليمان بن داود القيرواني ، روى عنه أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن المروزي . وكان سليمان قدم مرو وحدّث بها وبها سمع منه أبو سهل . وموسى بن عبد الرحمن بن حبيب العطار الأطرابلسي أبو الأسود ، روى عن شجرة بن عيسى ومحمد بن سحنون وغيرهما . وعبد الله بن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي الأطرابلسي ، كان أبوه من أهل الكوفة نزل أطرابلس الغرب وولد عبد الله وأخوه يوسف بها فنسبا إليها ، وبها أولادهم ، وحديثهم كثير مشهور وبيتهم بيت المعرفة والدراية والإكثار من الحديث . وأبو الحسن علي بن أحمد بن زكرياء بن الخصيب المعروف بابن زكرون الأطرابلسي الهاشمي سمع أبا مسلم صالح بن أحمد بن عبد الله العجلي ، روى عنه الوليد بن بكر الأندلسي وغيره . وإبراهيم بن محمد الغافقي الأطرابلسي قاضي أطرابلس ، توفّي سنة ٢٥٣ بالمغرب عن ابن يونس . وإبراهيم بن القاسم الأطرابلسي ، روى عن أبي جعفر القروي وغيره ، روى عنه أبو محمد ابن حزم قاله الحميدي .

[٣٠٩:٢] أملس : موضع في برية أنطابلس بإفريقية له ذكر في كتاب الفتوح .

[١ : ٣٨١] أنطابلس : — بعد الألف باء موحدة مضمومة ولام مضمومة أيضاً وسين مهملة — ومعناه بالرومية خمس مدن ، وهي مدينة بين الإسكندرية وبرقة ، وقيل : هي مدينة ناحية برقة وقد ذكر أمرها في برقة .

[١ : ٣٩٧] أوجلة : — بالفتح ثم السكون وفتح الجيم ولام وهاء — مدينة في جنوب برقة نحو المغرب ضاربة إلى البرّ . قال البكري : من مدينة أجدابية إلى قصر زيدان الفتى ثلاثة أيام ، ثمّ تمشي أربعة أيام إلى مدينة أوجلة ، وهي عامرة كثيرة النخل . وأوجلة اسم للناحية واسم المدينة أرزاقية ، وأوجلة قرى كثيرة فيها

[١ : ٣٩٨] نخل وشجر كثير / وفواكه . ولمدينتها أسواق ومساجد ومنها إلى تاجرفت أربعة أيام ، ومن أوجلة إلى سنترية لمن يريد واحات عشرة أيام في صحراء ورمال .

أوجلى : اسم موضع ، قال عليّ بن جعفر السعدي : أوجلى وأجفلى لم يجيء على هذا الوزن غيرهما ، ولعلّ أوجلى هذه هي التي قبلها لأن أهل تلك البلاد لا يتلفظون بالتاء .

[١ : ٥٧٣] برقة : — بفتح أوله والقاف — اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية . واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن . قال بطلميوس : طول مدينة برقة ثلاث وستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق تحت تسع درج من السرطان وست وخمسين دقيقة ، يقابلها مثلها من الجدي بيت ملكها مثلها من الحمل عاقبتها مثلها من الميزان . وهي في الإقليم الثالث ، وقيل في الرابع ، وقال صاحب الزيج : طولها ثلاث وأربعون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة . وأرض برقة أرض خلوقية بحيث ثيابُ أهلها أبداً محمرة لذلك ، ويحيط بها البرابر من كل جانب . وفي برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة مثل جوز ولوز وأترج وسفرجل ، وفي

مدينة برقة قبر رويفع صاحب النبي صلى الله عليه وسلّم . وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك . ولها آبار يرتفق

[٥٧٤] بها الناس ولها ساحل يقال له أجية . وهي مدينة بها سوق / ومنبر وعدّة محارس على ستة أميال من برقة وساحل آخر يقال له طلموية . وبين الإسكندرية وبرقة مسيرة شهر . وقال أحمد بن محمد الهمداني : من الفسطاط إلى برقة مائتان وعشرون فرسخاً وهي ممّا افتتح صلحاً ، صالحهم عليها عمرو بن العاصي وألزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر ألف دينار وأن يبيعوا أولادهم في عطاء جزيتهم . وأسلم أكثر من بها فصولحوا على العشر ونصف العشر في سنة إحدى وعشرين للهجرة ، وكان في شرطهم أن لا يدخلها صاحب خراج بل يوجهوا بخراجهم في وقته إلى مصر ، إلى أن استولى المسلمون على البلاد التي تجاورها فانتقض ذلك الرسم فكانوا لهذه الحال على خصب ودعة وأمن وسلامة . وكان عبد الله بن عمرو بن العاصي يقول : ما أعلم منزلاً لرجل له عيال أسلم ولا أعزل من برقة ولولا أموالي بالحجاز لنزلت برقة . ومن برقة إلى القيروان مدينة إفريقية مائتان وخمسة عشر فرسخاً . وقد نسب إلى برقة جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد ابن زرعة الزهري البرقي أبو بكر مولى بني زهرة ، حدّث بالمغازي عن عبد الملك بن هشام ، وكان ثقة ثبتاً وله تاريخ ، وأخواه محمد وعبد الرحيم ابنا عبد الله رووا جميعاً كتاب السيرة عن ابن هشام ؛ قاله ابن ماكولا . وذكر ابن يونس أحمد بن عبد الله في البرقيين وذكر محمداً في المصريين ، وقال : إنّه كان يتجر هو وإخوته إلى برقة فعرف بالبرقي القائل في الحاكم وقد حدثت بمصر زلزلة :

بالحاكم العدلِ أضحى الدين معتلياً نجل الهُدى وسليل السادة الصلحا

ما زلزلتْ مصرُ من كيد يراد بها وإنّما رقصَتْ من عدلهِ فرحا

قال : وقد رأيتُ هذا البيت منسوباً إلاّ أنّه قيل في كافور الإخشيدي . قال : وقال البرقي في الحاكم وقد غاب وجاء في عقيب ذلك مطر :

أذرى لفقدكَ يومُ العيدِ أدمعه من بعد ما كان يبديالبشر والضحكا
لأنّه جاء يطوي الأرض من بُعد شوقاً إليك فلمّا لم يجدكَ بكى

[٨٠٩ :] تاجرفت : — بتشديد الجيم وكسر الراء وسكون الفاء وتاء مثناة مثل التي في أوله — اسم مدينة آهلة في طرف إفريقية بين ودان وزويلة ، وبينها وبين كل واحدة منهما أحد عشر يوماً متوسّطة بينهما زويلة غربيها وودان شرقيها. وبين تاجرفت وفسطاط مصر نحو شهر .

[٨٧٤ :] تمسّا : — بالتحريك وتشديد السين المهملة والقصر — مدينة صغيرة من نواحي زويلة بينهما مرحلتان .

[٥ : ٢] جادو : مدينة كبيرة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية لها أسواق وبها يهود كثيرة .

[٦٥ : ٢] جرمة — بالفتح — اسم قصبة بناحية فزان في جنوبي إفريقية لها ذكر في الفتوح ، افتتحها عقبة بن عامر وأسر أهلها .

[٣٣٠ : ٢] ذات الحمام : بلد بين الإسكندرية وإفريقية له ذكر في الفتوح ، وهو إلى إفريقية أقرب .

[٣٩٤ : ٢] خاور : أكبر مدينة كورة كاوار جنوبي فزان ، افتتحها عقبة بن عامر سنة سبع وأربعين بعد ممانعة وقتل أهلها وسباهم .

[٨١٣ : ٢] الرمادة : بلدة لطيفة بين برقة والإسكندرية قريبة من البحر ، لها سور ومسجد جامع وبساتين فيها أنواع الثمار ، وهي قريبة من برقة .

[٩٦٠ :] زويلة — بفتح أوله وكسر ثانيه وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام — بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل أجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية . قال البكري : وزويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء ، وهي أول حدود بلاد السودان ، وفيها جامع وحمام وأسواق تجتمع فيها الرفاق من كل جهة ، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم ، وبها نخيل وبساط للزرع يسقى بالإبل . ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين . وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور ، قال بكر بن حماد :

الموتُ غادَرَ دعبلاً بزويلة وبأرض برقة أحمد بن خصيبِ

والذي يذكره المؤرخون أن دعبلاً لما هجا المعتصم أهدر دمه فهرب إلى طوس واستجار بقبر الرشيد فلم يجره المعتصم وقتله صبراً في سنة ٢٢٠ . وبين زويلة ومدينة أجدابية أربع عشرة مرحلة . ولأهل زويلة حكمة في احتراس بلدهم وذاك أن الذي عليه نوبة الاحتراس منهم يعمد إلى دابة فيشد عليها حزمة كبيرة من جرائد النخل ينال سعفها الأرض ثم يدور بها حوالي المدينة ، فإذا أصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن تبعه على جمال السروج وداروا على المدينة فإن رأوا أثراً خارجاً من المدينة اتبعوه حتى يدركوه أينما توجّه ، لصّاً كان أو عبداً أو أمة أو غير ذلك . وزويلة من أطرابلس بين المغرب والقبلة . ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية إفريقية وما هنالك ومبايعاتهم بثياب قصار حمر . ومن بلد زويلة إلى بلد كانم أربعون مرحلة وهم وراء صحراء من بلاد زويلة ، يذكر خبرهم في كانم .

[٦٨٠ :] سرت : — بضم أوله وسكون ثانيه وآخره تاء مثناة من فوق — علم مرتجل غير مستعمل في كلامهم ؛ مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس

الغرب ، لا بأس بها وفي سمتها من ناحية الجنوب في البر أجدابية ومنها يقصد إلى طرابلس الغرب . قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي الحافظ من أصحاب السلفي : أنشدني أبو بكر عتيق بن القاسم السرتي لنفسه :

أقولُ لعَيني دائماً ولدمْعِها لسانٌ بسرِّ الحبِّ في الخد ناطق
أجدّك ما ينفكُّ لي منكَ ضائر بسرّيَ واشٍ أو لحيني رامق
فلولاكَ لما أعرف العشقَ أولاً ولولاه لم يُعرف بأنّي عاشق

قال البكري : ومدينة سرت مدينة كبيرة على سيف البحر ، عليها سور من طوب وبها جامع وحمام وأسواق ولها ثلاثة أبواب قبلي وجنوبي وباب صغير إلى البحر ، ليس حولها أرباض . ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة وذبائحهم المعز طيب اللحم . وأهل سرت من أخسّ خلق الله خُلقاً وأسوأهم معاملة . لا يبيعون ولا يبتاعون إلاّ بسعر قد اتفق جميعهم عليه . وربما نزل المركب بساحلهم بالزيت وهم أحوج الناس إليه فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها وبوكونها ثم يصفونهـا في حوانيتهم وأفنيتهم ليروا أهل المركب أن الزيت عندهم كثير ، فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما ابتاعوا منهم إلا على حكمهم . وأهل سرت يعرفون بعبيد قرلة وهم يغضبون من ذلك ، قال شاعر يهجوهم :

عبيد قرلةٍ شرّ البرايا معاملةً وأقبحهم فعالا
فلا رحم المهيمن أهل سرت ولا أسقاهمُ عذباً زلالا

وقال آخر :

يا سرت لا سرّتْ بك الأنفس لسان مدحي فيكم أخرس

ألبستمُ القبح فلا منظر يروقُ منكُم لا ولا ملبس
بخستمُ في كل أكرُومةٍ وفي الشقا واللّوم لم تبخسوا

وهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي ولا يعرفه غيرهم . وهم على خلاف أخلاق أهل طرابلس فإن أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة . ومن سرت إلى طرابلس عشر مراحل ، وإلى أجدابية ست مراحل .

[٨٥-٣] سروس : — أوله مثل آخره يجوز أن يكون فعولاً من سرس الرجل إذا صار عنيناً لا يأتي النساء ، وسروس ربما قيل بالشين المعجمة في أوله — مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية . وهي كبيرة آهلة ، وهي قصبة ذلك الجبل وأهلها إباضية خوارج ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى . وهي نحو ثلاثمائة قرية لم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة . وبين سروس وطرابلس خمسة أيام بينهما حصن لبدة .

[١٥٧-٣] سنترية : — بفتح أوله وسكون ثانيه ثم تاء مثناة من فوق مفتوحة وراء مكسورة وياء النسبة — بلدة في غربي الفيوم دون فزان السودان ، وهي آخر أعمال مصر وتُعد من نواحي واح الثالثة . وقد نسب إليها بعض أهل العلم ، وقال البكري : من أوجلة إلى سنترية عشر مراحل في صحراء ورمال قليلة الماء . وسنترية هذه كثيرة الثمار والعيون والحصون وأهلها كلّهم بربر لا عرب فيهم . وتسير من سنترية على طرق شتى إلى الواحات ، ومن سنترية إلى بهنسى الواحات عشر مراحل ، وهي غير بهنسى الصعيد .

[٢٠٦-٣] سهو : مدينة عامرة بينها وبين زويلة السودان مرحلة .

[٢٢٤-٣] سبهى ، قال البكري : وبين مدينة زويلة ومدينة سبهى خمسة أيام . وهي مدينة كبيرة فيها جامع وسوق ، وبين مدينة سبهى ومدينة هل مثل ذلك .

[٥٢١] طرابلس : — بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضاً مضمومة وسين مهملة ، ويقال أطرابلس ، وقال ابن بشير : طرابلس بالرومية والإغريقية ثلاث مدن ، وسمّاها اليونانيون طرابليطه ، وذلك بلغتهم أيضاً ثلاث مدن ، لأن طرا معناه ثلاث وبليطه مدينة . وقد ذكر أن اشباروس قيصر أول من بناها وتسمى أيضاً مدينة أناس . وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان . وهي على شاطىء البحر . ومبنى جامعها أحسن مبنى ، وبها أسواق حافلة جامعة وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود ، وحولها أنباط ، وفي بربرها من كلامه بالنبطية في قرارات في شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة أيام إلى موضع يعرف ببني السابري ، وفي القبلة مسيرة يومين إلى حد هوارة . وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب . ومرساها مأمون في أكثر الرياح ، وهي كثيرة الثمار والخيرات ، ولها بساتين جليلة في شرقيها . وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير ، وداخل مدينتها بير تعرف ببير أبي الكنود يعيرون بها ويحمق من شرب منها ، فيقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام : لا يعتب عليك لأنك شربت من بير أبي الكنود . وأعذب آبارها بير القبة . نذكرها في طرابلس فإنه لم تكتب الألف ، وقد ذكر في باب الألف ما فيه كفاية . وذكر الليث ابن سعد قال : غزا عمرو بن العاصي طرابلس سنة ٢٣ حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيها ، فحاصرها شهرين لا يقدر منهم على شيء ، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو بن العاصي متصيداً مع سبعة نفر فجمعوا غربي المدينة واشتد عليهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقاً بالمدينة ، ولم يكن في ما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن البحر شارعة في مرساها إلى بيوتهم ، ففطن المدلجي وأصحابه وإذا البحر

قد غاض من ناحية المدينة فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم . وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم إلا بما خف في مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في المدينة . وإنما بنى سورها ممّا يلي البحر هرثمة بن أعين حين ولايته على القيروان . ومن طرابلس إلى نفوسة مسيرة ثلاثة أيام ، وفي كتاب ابن عبد الحكم أن عمرو ابن العاصي نزل على مدينة طرابلس في سنة ٢٣ من الهجرة فملكها عنوة واستولى على ما فيها ، قال : وكان من بسبرت متحصنين فلما بلغتهم محاصرة عمرو طرابلس . . . واسمها نبارة وسبرت السوق القديم وإنما نقله إلى نبارة عبد الرحمن بن حبيب سنة ٣١ . فهذا يدل على أن طرابلس اسم الكورة وأن نبارة قصبتها . وقد ذكرنا أن طرابلس معناه الثلاث مدن وهذا يدل على أنها ليست بمدينة بعينها وأنها كورة . وينسب إلى طرابلس الغرب عمر بن عبد العزيز بن عبيد بن يوسف الطرابلسي المالكي ؛ لقيه السلفي وأثنى عليه ، وهو القائل في كتب الغزالي :

هذب المذهبَ حبر أحسن الله خلاصهْ
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصهْ

وسافر إلى بغداد ومات بها في سنة ٥١٠ . وأبو الحسن علي بن عبد الله ابن مخلوف الطرابلسي كان له اهتمام بالتواريخ وصنّف تاريخاً لطرابلس ، وكان فاضلاً في فنون شتى أخذ عنه السلفي وسافر إلى الحج ، فأدركته المنية بمكة في ذي الحجة سنة ٥٢٢ ، وقال أبو الطيب يمدح :

لو كانَ فيضُ يديهِ ماء غادية عزّ القطا في الفيافي موضع اليبسِ
أكارم حسدَ الأرضَ السماء بهم وقصرتْ كل مصر عن طرابلسِ

أي الثغور وهم قصدي أحاذره ... وأي قرن وهم سيفي وهم فرسي

وقال أحمد بن الحسين بن حيسرة يعرف بابن خراسان الطرابلسي :

أجرا غير زهد في محبتكم ... كوني بمصر وأنتم في طرابلس
إن زورتكم فثوابي في زيارتكم ... وإن هجرتكم فالهجر مفترسي
ولست أرجو نجاحاً في زيارتكم ... إلا إذا خاض بحراً من دم فرسي
وأشي ورماح الخط قد حطمت ... في كل أروع لا وان ولا نكس
حتى يظل عميد الجيش يتبعنا ... نهباً يغني كفيه الفجر في الغلس
يفدي بثبك عبد الله حاسدكم ... بجبهة الجور يفسي حافر الفرس

[٤٤٤:٧] طلمونية : بضم أوله وثانيه أيضاً والواو ساكنة ثم باء منقطة من تحتها نقطتان بلد بين برقة والإسكندرية .

[٧٧٩:٧] لمطماس : — بفتح أوله وبعد وهي عجمية بربرية فيما أحسب — وهي مدينة بالمغرب ثم في جنوبيه صحارية في بلاد السودان بعد بلاد إفزان تنبع فيها الجلود الغدامسية ، وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها في الجودة . كأنها ثياب الخز في النعمة والإشراق . وفي وسطها عين أزلية وعليها أثر بنيان عجيب روى بعضهم أنه فيها : ويزعمه أهل البادية بأنماط معلومة لا يقدر أحد أن يأخذ أكثر من حقه : وعليه يزعمون ، وأهلها بربر يقال لهم تاورية .

[٨٩٠:٢] فزان : — بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون — ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس المغرب ، وهو في الإقليم الأول ، وعرضه إحدى وعشرون درجة ، قيل : سميت بفزان بن سام بن نوح (عم) . بها نخل كثير وتمر كثير ومدينتها زويلة السودان والغلب على أموال أهلها السواد وقد ذكرهم جرير في شعر له فقال :

نظراً تشابه آجال النعام به ... عيداً تلاقت به فزان والنوب

[٨٩٠:٢] [البسيط] ... وذكر آخرون أن مصر فتحت عنوة . روى ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمي أن أبا قبيل حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول : لعمت في مدتي هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إلا لأهل أنطابلس ، فإن لهم عهداً توفي لهم به ، إن شئت فاقبل ، وإن شئت خمست ، وإن شئت بعت .

[٧٢٠:٤] قصور حسان : جمع قصر ، ويجوز أن يكون فعلان من الحسن فهو منصرف وأن يكون من الحسن وهو الجمال فهو لا ينصرف . كان عبد الملك بن مروان سيّر حسان بن النعمان الغساني إلى إفريقية لمحاربة البربر فواقعهم فهزموه ، فرجع عنهم وأقام بإفريقية خمس سنين وبنى في مقامه هناك قصوراً نسبت إليه إلى هذه الغاية .

[٢٢٠:٤] كاوار : ناحية واسعة في جنوبي فزان تحف بواحة بها مدن كثيرة منها قصر أم عيسى وآبار البيضاء وبلاس ، وأكبر مدنه أبو البياض ، وألوان أهلها صفر يلبسون الثياب الصوف ، وفي بلادهم أسواق ومياه جارية ونخل كثير ، وهم سلطان في سعة ملك الزغاوة .

[٣١٥:٤] كوار : إقليم من بلاد السودان جنوبي فزان افتتحه عقبة بن عامر عن آخره ، وأخذ ملكه قطع إصبعه ، فقال له : لم فعلت بي هذا ؟ فقال : أبداً لك إذا نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب . وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً .

[٣٤٥:٤] ليدة : مدينة بين برقة وإفريقية ، وقيل : بين طرابلس وجبل نفوسة ، وهو حصن من بنيان الأول بالحجر والآجر ، وحوله آثار عجيبة ، يسكن هذا الحصن قوم من العرب نحو ألف فارس يحاربون كل من يحاربهم ولا يعطون طاعة لأحد ، يقاربون مائة ألف ما بين فارس وراجل . كانت به

وقعة بين أبي العباس أحمد بن طولون وأهل إفريقية ، فقال أبو العباس يذكر ذلك :

إن كنتِ سائلة عني وعن خبري ... فها أنا الليثُ والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلي إن سألتِ فما ... فوقي لمفتخرٍ بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرّي بلبدة إذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتدر
إذاً لعاينتِ مني ما تناذره ... عنّي الأحاديث والأنباء والخبر

[٣٦٨:٤] لوبية : — بالضم ثم السكون وباء موحدة وياء مثناة من تحت — مدينة بين الإسكندرية وبرقة ينسب إليها لوبي ، وقال أبو الريحان البيروني — كان اليونانيون يقسمون المعمورة بأقسام ثلاثة تصير أرض مصر مجتمعاً لها فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبية . ويحدها بحر أوقيانوس المحيط الأخضر من جانب المغرب وبحر مصر من جهة الشمال وبحر الحبش من جهة الجنوب وخليج القلزم ، وهو بحر سوف أي البردي ، من جانب المشرق ، وهذا كلّه يسمى لوبية والقسم الآخر اسمه أورقى والآخر آسيا وقد ذكرا في موضعيهما .

[٣٩٦:٤] ماء فرس : كان عقبة بن عامر قد غزا فزان وتعداهم إلى أراضي كوار فنزل بموضع لم يكن فيه ماء ، فأصابهم عطش أشرفوا منه على الموت ، فصلّى عقبة ركعتين ودعا الله تعالى . وجعل فرس عقبة يبحث في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل فرس عقبة يمص ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسياً فشربوا واستقوا ، فسمي الموضع لذلك ماء فرس .

[٤٤٤:٤] مخيل : — بالفتح ثم الكسر — وادي مخيل وهو حصن قرب برقة بالمغرب فيه جامع وسوق عامرة وحواليه جباب ماء وبرك وليس ينبط فيه وهو وافي

الشّعراء ، بينه وبين أجدابية خمس مراحل ، وكذلك بينه وبين أنطابلس مدينة برقة .

[٥٠٢:٤] مرمى : مدينة بين جبل نفوسة وزويلة . قال البكري : ومن أراد المسير من جبل نفوسة إلى مدينة زويلة فإنّه يخرج إلى مدينة جادو ثمّ يسير ثلاثة أيام في صحراء ورمال إلى موضع يسمى تيرا ، وهو في سفح جبل فيه آبار كثيرة ونخيل ، ثم يصعد في ذلك الجبل فيمشي في صحراء مستوية نحو أربعة أيام لا يجد ماء ، ثم ينزل على بير تُسمى أودرب ، ومن هناك يلقى جبالاً شاهقة تسمى تارغين يسير فيها الذاهب ثلاثة أيام حتى يصل إلى بلد يسمى مرمى ، فيه نخيل كثيرة يسكنه بنو قلدين وفزانة ، وعندهم غريبة وهي أن السارق إذا سرق عندهم كتبوا كتاباً يتعارفونه فلا يزال السارق يضطرب في موضعه لا يسكن عنه ذلك ولا يفتر حتى يقر ويرد ما أخذ ، ولا يسكن عنه ما به حتى يمحى ذلك الخط . ويسير من هذا البلد إلى بلد يسمى سباب يومين وهو كثير النخل يزدرعون النيل ، ثم يسير في صحراء ذات رقيق يوماً إلى زويلة .

[٩١١:٤] وودان أيضاً مدينة بإفريقية افتتحها عقبة بن عامر في سنة ٤٦ أيام معاوية . وينسب إليها أبو الحسن علي بن أبي إسحاق الوداني صاحب الديوان بصقلية ، له أدب وشعر ذكره ابن القطاع وأنشد له :

من يشتري مني النّهار بليلة ... لا فرق بين نجومها وصحابي
دارت على فلك السماء ونحن قد ... درنا على فلك من الآداب
دان الصباح ولا أتى وكأنّه ... شيب أطل على سواد شباب

وقال البكري : ودان مدينة في جنوبي إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية ، ولها قلعة حصينة وللمدينة دروب . وهي مدينتان فيهما قبيلتان من العرب : سهميون وحضرميون . فتسمى مدينة السهميين دلباك ،

ومدينة الحضرميين بوصى . وجامعهما واحد بين الموضعين . وبين القبيلتين تنازع وتنافس يؤدي بهم ذلك مراراً إلى الحرب والقتال ، وعندهم فقهاء وقرّاء وشعراء . وأكثر معيشتهم من التمر ، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح . وبينها وبين مدينة تاجرفت ثلاثة أيّام ، والطريق من طرابلس إلى ودان يسير في بلاد هوارة نحو الجنوب في بيوت من شعر . وهناك قريات ومنازل إلى قصر ابن ميمون من عمل طرابلس ، ثم تسير ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على ربوة يسمى كرزه ، ومَن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين ويستسقون به إلى اليوم ، ومنه إلى ودان ثلاثة أيام ، وكان عمرو بن العاصي بعث إلى ودان بسر بن أبي أرطاة وهو محاصر لطرابلس فافتتحها في سنة ٢٣ . ثمّ نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان قد فرضه بسر عليهم فخرج عقبة بن نافع بعد معاوية بن حديج إلى المغرب في سنة ٤٦ ومعه بسر بن أبي أرطاة وشريك ابن سحيم حتى نزل بغدامس من سرت ، فخلف عقبة جيشه هناك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه في أربعمائة فارس وأربعمائة بعير بثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان ، فافتتحها وأخذ ملكها فجدع أنفه ، فقال : لمَ فعلت هذا وقد عاهدت المسلمين ؟ قال : أدباً لك إذا منست أنفك ذكرت فلم تحارب العرب . واستخرج منها ما كان بسر فرض عليه وهو ثلاثمائة وستون رأساً .

١١

آثار البلاد للقزويني

[٩٤] زويلة : مدينة بإفريقية غير مسورة في أول حدود السودان ، ولأهلها خاصية عجيبة في معرفة آثار القدم ، ليس لغيرهم تلك الخاصية حتى يعرفون أثر قدم الغريب والبلدي والرجل والمرأة والناص والعبد الآبق والأمَة . والذي يتولى احتراس المدينة يعمد إلى دابة يشدّ عليها حزمة من جرائد النخل بحيث ينال سعفه الأرض ثم يدور به حول المدينة . فإذا أصبح ركب ودار حول المدينة فإن رأى أثراً خارجاً تبعه حتى أدركه أينما توجه .

[١٦٣] بلاد بربر : بلاد واسعة من برقة إلى آخر بلاد المغرب والبحر المحيط . سكانها أمة عظيمة يقال إنّهم من بقية قوم جالوت لما قتل هرب قومه إلى المغرب فحصلوا في جبالها . . . إلخ .

[٤٠٨] طرابلس : مدينة على شاطىء بحر الروم ، عامرة كثيرة الخيرات والثمرات ، لها سور منحوت من الصخر وبساتين جليلة ورباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون . بها مسجد الشعاب وهو مسجد مشهور مقصود يأتيه الناس لبركته واحترامه . وبها بئر الكنود . وهي بئر زعموا أن من شرب من مائها يتحمق ، فإذا أتى رجل من أهل طرابلس بما يلام عليه يقولون له : لا نعيبك ، فإنّك شربت من بئر الكنود .

١٢

بسط الأرض لابن سعيد

[٦١] وتقع غدامس التي ينسب إليها الجلد المفضل حيث الطول ٣٩ درجة ودقائق ، والعرض ٢٩ درجة و ١٠ دقائق . وهي حصون على الجادة إلى بلاد الكانم ، وفي شرقيها ودان وهي جزائر نخل ومياه وأولها حيث الطول ٤١ درجة والعرض ٢٧ درجة و٥٠ دقيقة وإليها كان يلجأ المانرقي الطويل الفتنة . وفي شرقيها بلاد فزان وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ، ولها مدن وعمائر أكثر من ودّان . والجميع الآن في طاعة ملك الكانم . وقاعدة فزان مدينة زويلة حيث الطول ٤٣ درجة والعرض ٢٧ درجة و٤٠ دقيقة . وفي جنوبي فزان وودان محلات أزكان ، وهم برابر مسلمون أحذق خلق الله في خط الرمل . وفي جنوبيهم بالقرب من خط الإقليم الثالث جبل طنطنة وهو كبير ممتد من الشرق إلى الغرب نحو ٦ مراحل ، وفي شماليه عيون تنحدر منه تحتها مروج ينبت فيها حشيش كثير يرتاده البرابر والعربان ويقع الحرب عليه ، وفي أسفله معدن حديد جيد .

وفي شمالي زويلة مدينة سرت وهي من القواعد القديمة المذكورة في الكتب وعلى ألسن المارة ، وقد خربها العرب ولم يبق منها إلا قصور يسكنها أتباعهم ، وكذلك جهاتها على الطريق قصور لجيران العرب الذين يحرثون حولها ، وموضوع بقية هذه المدينة حيث الطول ٤٣ درجة و٣٠ دقيقة والعرض ٣٠ درجة . وهي على ساحل بحر الزقاق وفي غربيها جون زديق الذي يقال [٦٢] فيه : « جون زديق لا ماء ولا دقيق ولا من تلقاه في الطريق » . وفيما / بين

سرت وأجدابية يدخل البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع ، وتقع مدينة أجدابية حيث الطول ٤٤ درجة والعرض مع خط الإقليم الرابع . وبينها وبين البحر أميال ، ومنها إلى الفيوم محلات عرب وبرابر مقفرة ، وفيها صنع المعزّ صهاريج الماء من المطر حين عزم على فتح مصر من القيروان ، إذ الطريق عليها أقصر وعلى الساحل دورة.

وعن جنوبي الطريق إلى الإسكندرية مدينة أوجلة وهي جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحارى ، فيها ماء ونخل تحت خفارة هيب . وهي حيث الطول ٤٥ درجة و ٥٥ دقيقة والعرض ٢٧ درجة و ٥٢ دقيقة . وفي سمت عرضها مدينة سنترية حيث الطول ٤٩ درجة وهي أيضاً جزيرة نخل ومياه في صحارى . والجبال محدقة بها والعربان يطلون على جهاتها ويكفهم عنها أنها من بلاد السلطنة المصرية ، وفيها رمان يكون في أوله مرّاً ثم يكون حلواً إذا طاب ، وفي أرضها مستحجرات من عيدان النخل وحب اللوز يجلب إلى الإسكندرية فيعجب الناظرون منه . وهي مهلكة بالوباء لأهلها فكيف الغرباء ؛ وبين البحر وبينها ، حيث العقبة الصغيرة ، ٨ مراحل . وفي شرقيها وجنوبيها الواحات الشمالية ، وهي جزائر نخل ومياه على نوع ما تقدم في خطّها ، ويجلب منها الشب والزاج .

[٧٩] ومن شرقي جربة وجنوبيها يقهقر البحر إلى الشمال حتى تكون مدينة طرابلس المشهورة عليه ، حيث الطول ٣٨ درجة والعرض ٣٢ درجة و٢٠ دقيقة . وفي شرقيها على مرحلتين جبل نفوسة المتصل بجبل دمر وما يتصل به من الجبال إلى جبل درن الذي يدخل في البحر المحيط وطوله ٦ أيام وعرضه ٣ أيام ، وفيه مدن وعمائر وخلق كثير ومياه وخصب ، ومنه تمتار طرابلس أنواعاً من الخيرات حتى الخضر والفواكه ، وفيه الزيتون والتين والزبيب والتمر . ويتصل به جبال

إلى أن ينقطع في شرقي مدينة لبدة الخراب .

وآثار هذه المدينة من الرخام والحجارة الهرقلية تشهد بحالها المتقدم . وهي على البحر حيث الطول ٣٩ درجة و٣٠ دقيقة والعرض مقارب لعرض طرابلس . ومجالات دباب من حد قابس إلى بئر السدرة من برقة . وبعد لبدة يأخذ البحر في الدخول إلى الجنوب ، وعلى ساحله هنالك
[٨٠] عمائر لبطون من هوارة تحت خفارة دباب . وعلى الجملة فإذا / فارقت طرابلس مشرقاً لا تلقى مدينة فيها حمام ولا حبار (؟) إلى أن تصل إلى الإسكندرية . وفي آخر صعود البحر إلى الجنوب يكون قصر أحمد وهو آخر حد إفريقية ، حيث الطول ٤١ درجة و٢٢ دقيقة والعرض مع خط الإقليم الرابع . وفي عرضه قصور مسراتة تمتد نحو ١٢ ميلاً على زيتون ونخيل . وأهلها من هوارة تحت خفارة دباب ولهم غرام بحمل الخيل إلى الإسكندرية . وتجد منهم الحجاج معونة في تلك الطريق الشاقة . فأول ما يلقاك من حد برقة جون زديق المذكور وما بعده قد ذكر في الإقليم الثالث ؛ وشرقيه حيثُ بئر السدرة أول مجالات هيب إلى العقبة الصغيرة من أرض الإسكندرية . ويقع في دخلة البرين جون برنيق وراس طلميثة ، وهي فرضة مشهورة هنالك وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب وموضوعها حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٣ درجة و١٠ دقائق . ومنها تحمل المراكب الكبريت والعسل والقمح والشعير .

وفي شرقيها مدينة برقة التي كانت قاعدة البلاد البرقية فخربها العرب . ويقال لها اليوم مدينة المرج . وبينها وبين طلميثة ١٠ أميال . وخصب برقة الذي فيه الأشجار والخيرات هو في الدخلة التي في جنوبيها مسافته نحو ١٠ مراحل من غرب إلى شرق ، ومن جازه من عرب هيب فله

الصولة . ومن جبالها ينزل نهر درنا ويصب في البحر المالح ولم أر في جميع بلاد برقة على طولها نهراً غيره وفي جنوبيه الصحراء المقفرة . وتقع درنا حيث الطول ٤٦ درجة والعرض ٣٥ درجة و ١٧ دقيقة ، وكانت من مدن برقة المذكورة فخربها العرب . وهي الآن محسوبة من قصور العرب التي تأوي إليها اليهود ، وكلهم على جزيتهم .

وفي ساحلها راس أوثان الذي يأخذ البحريون على تعديته البشارة وهو واقع في الركن حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٤ درجة و٥٢ دقيقة . وفي شرقيه الهلال المشهور وهو جبل يظهر من بعيد في البحر في ميمنة جزيرة إقريطش الواقعة في الإقليم الخامس . وبينه وبين راس أوثان مرحلتان ونصف وبينه وبين درنا وهي في شرقيه مرحلتان . وفي شرقي درنا
[٨١] راس تيني المشهور وهو / في الركن الشرقي ، كما أن راس أوثان في الركن الغربي وموضوعه حيث الطول ٤٦ درجة و٤٧ دقيقة والعرض ٣٥ درجة غير دقائق . ومن هنالك يأخذ البحر في الصعود إلى الجنوب فيكون في جنوبيه من المراسي المشهورة القرسي ثم طبرق ، وهي كانت قاعدة البلاد في أيام الروم . وكانت البلاد تعرف بأنطابلس فسمتها العرب برقة لما رأتها كثيرة الحجارة المختلطة بالرمل .

ولطبرق مرسى قلّ أن يكون له نظير على هذا البحر ، ما للرياح عليه سبيل ، كأنه حوض منقور في حجر ، وبقايا أسوار هذه المدينة تدل على قديمها وهي حيث الطول ٤٧ درجة و ٢٢ دقيقة والعرض ٣٢ درجة و٥٥ دقيقة . وفي جهتها المجرى المعروف بالطنان وفي شرقي ذلك من القصور المشهورة عند العرب لك وقمار . وفي شرقيها العقبة الكبيرة وهي أوّل حد الديار المصرية .

وهنالك مرسى المسلم من المراسي المذكورة ، والعقبة حيث الطول ٤٨

درجة والعرض ٣٢ درجة و٢٥ دقيقة . وفي شرقيها العقبة الصغيرة حيث الطول ٤٩ درجة والعرض ٣٢ دقيقة . وهنالك دخلة هوارة المشهورة وهي دخلة في البحر ، وفي شماليها مرسى الكنائس المشهورة ، ومن هنالك مجالات هوارة ثم مجالات زنارة إلى آخر البحيرة .

١٣

تقويم البلدان لأبي الفدا

[١٢٧] وفي شرقيها [أي ودّان] بلاد فزّان ، وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ، ولها مدن وعمائر أكثر من ودّان . والجميع الآن في طاعة ملك الكانم (وفزّان بفتح الفاء والزاء المشدّدة وألف ونون) . وقاعدة فزّان مدينة زويلة . وفي جنوبي فزّان وودّان مجالات ازكان ، وهم برابر مسلمون ، وفي جنوبيهم جبل طنطنة وهو كبير ممتدّ من الشرق إلى الغرب نحو ست مراحل ، وفي أسفله معدن الحديد الجيد . وفي شمالي زويلة مدينة سرت . وفي جنوبي قابس الجبل العظيم الممتد شرقاً وغرباً فيعرف في جهتها بجبل دَمَر وفي جهة قفصة بجبل الأوْطَس وفي جهة القيروان بجبل وسلات ، وهو خصيب ويجيء منه الأموال السلطانية ، وفي جنوبي هذا الجبل مدينة القيروان . ويتّصل ببرقة جبل يقال له راس أوثان ، وهو ركن غربي ويقابله من جهة الشرق ركن آخر يقال له راس تبني . والبحر داخل في الجنوب بين هذين الركنين ثم بعد أن يتجاوز البحر راس تبني يأخذ في الجنوب والشرق حتى يتّصل بالعقبة التي هي حدّ ديار مصر من جهة المغرب وعندها مرسى ؛ والعقبة حيث الطول تسع وأربعون والعرض اثنتان وثلاثون .

وكانت بلاد برقة تسمّى في أيام الروم أنطابلس ، فسمّتها العرب لمّا فتحتها في صدر الإسلام برقة لكثرة حجارتها المختلطة بالرمل . قال في المشترك : وبرقاء كل موضع فيه حجارة مختلفة الألوان . وولاية برقة تجاور الديار المصرية وهي بين ديار مصر وبين إفريقية . وبرقة ولاية طويلة وقد استولت عليها العرب . وليس بها في زماننا مدينة جليلة ممصّرة . قال في العزيزي : ولبرقة

جبلان فيهما عدّة ضياع نفيسة وعيون ماء جارية ومزارع وآثار بناء للروم جليل ، وأسعارها على سائر الأوقات رخيصة جدّاً ، ويجهز منها إلى مصر
[١٢٨] القطران والشراب والضان / الكثير . قال : ولها ساحل ترسى به المراكب[1] .
ومن البلاد الواقعة بين بلاد المغرب والواحات أوجلة بالجيم واللام ، وهي جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحارى ، فيها ماء ونخل ، قال الإدريسي : ومدينة أوجلة مدينة صغيرة متحضّرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة ومنها يدخل إلى كثير من أرض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو وأرضها . وأرض برقة أرض واحدة ومياهها قليلة . ومنها إلى مدينة زالّة عشر مراحل غرباً . وزالّة مدينة صغيرة ذات سوق عامر ، وهي حصن منيع . ومن زالّة يدخل إلى بلاد السودان أيضاً . ومن زالّة إلى مدينة زويلة عشرة أيام في جهة الغرب والجنوب . ومن زالّة إلى سرت تسعة أيام . ومن سرت إلى ودّان خمس مراحل . وودّان هذه ناحية في جنوبي سرت ، وهما قصران وبينهما رمية سهم ، والقصر الذي يلي البحر خالٍ والذي يلي البرّيّة مسكون . ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذّرة . وبغربيها غابات وبها توت كثير وتين ونخيل . قال : ومن أرض كوار يجلب الشبّ .

وأوجلة حيث الطول خمس وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة والعرض سبع وعشرون درجة واثنتان وخمسون دقيقة ، وفي سمت

١ في نسخة : يقال له : أجية ولها مدينة بها منبر وسوق وعدة محارس على ستة أميال من برقة ، وساحل آخر يقال له طلميثة وسنذكره . قال ابن سعيد : وفي غربي مدينة سرت جون زديق الذي يقال فيه : جون زديق ... وفيما بين سرت وأجدابية يدخل البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع ، وتقع مدينة أجدابية حيث الطول أربع وأربعون درجة والعرض مع خط الإقليم الرابع ، وبينها وبين البحر أميال ، ومنها إلى الفيوم مجالات عرب وبرابر مفرقة ، وفيها صنع المعز الصهاريج المذكورة في الجدول وعن جنوبي الطريق إلى الإسكندرية أوجلة .

أرضها مدينة سنترية حيث الطول ثمان وأربعون درجة وخمسون دقيقة ، وهي أيضاً جزائر نخل ومياه في صحارى والجبال محدقة بها ، وفيها رمّان يكون في أوله مرّاً ثم يكون حلواً إذا طاب ، وهي مهلكة بالوباء لأهلها فكيف الغرباء . وبين البحر وبينها حيث العقبة الصغيرة ثماني
[١٢٩] مراحل . وفي شرقيها وجنوبيها الواحات الشمالية . قال الإدريسي : ومدينة سنترية صغيرة وبها منبر وقوم من البربر وأخلاط من العرب المتحضّرة ، ومنها إلى البحر الشامي تسع مراحل ، وشربهم من آبار وعيون قليل ، وبها نخل كثير ؛ من سنترية إلى أوجلة مغرباً عشرة أيام . وعن بعض كُتّاب عرب إسكندرية مِن مُقْطَعي سنترية أنّها على مسيرة عشرة أيام من إسكندرية فيما بين الغرب والجنوب . قال : وهي بلدة فيها نحو ألف نفر ، وبناؤها من طوب وغيره وبها عيون ماء في غاية الحرارة ، وهي وبيّة إلى الغاية . وممّا بين الغرب والجنوب عن سنترية على مسيرة ثمانية أيام أوجلة بلدة قريبة إلى الوصف من سنترية . وعلى مسافة ثمانية أيام عن أوجلة زالّة وهي بلدة ولها ملك بذاتها . وفي السمت المذكور عنها مدينة فزّان . وكذلك وراء فزّان بثمانية أيام في السمت المذكور عن فزان بلاد كاور . ومنها إلى بلاد التكرور وكاور جنوبي طرابلس الغرب . (سنترية بفتح السين المهملة ونون ساكنة ومثناة فوقية مفتوحة وراء مهملة ومثناة تحتية مشدّدة مكسورة ، وأوجلة بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الجيم ولام وهاء ، وزالّة بفتح الزاء المعجمة واللام المشدّدة وهاء ، وكاور بفتح الكاف وألف وفتح الواو ثم راء مهملة ، ووجدناها في الكتب مكتوبة كوار بتقديم الواو) .

مطر العدد	الاسماء	اسماء القائل عنهم	ثالث الاقالم العرقية وهو بلاد المغرب				ضبط الاسماء
			الطول		العرض		الاقليم الحقيقي	الاقليم العرقي	
			درج	دقائق	درج	دقائق			
٣٥	طرّة	ابن سعيد	لز	ك	كط	٦	من الثالث	من عمل توزر من بلد الجريد قاعدة مكراوة	عن عبد الواحد طرا بضم الطآء وتشديد الرآء المهملتين وفي آخرها الف وكذلك حققت اسمها من شخص آخر فقال طرة بتشديد الرآء
٣٦	اطرابلس المغرب	اطول قانون ابن سعيد ربع	لز لز مط مز	٢ كه ٣ مز	لب لب لب لب	ل ل كه ٢	من الثالث	من افريقية	بفتح الالف وسكون الطآء وفتح الرآء المهملتين والسين ولم الباء الموحدة واللام وفي آخرها سين مهملة
٣٧	غدامس	ابن سعيد	لط	٤	كط	٤	من الثالث	في الصحراء في الجنوب من بلاد الجريد	بفتح الغين والذال المعجمتين والف وميم مكسورة وسين مهملة
٣٨	قصر احمد	ابن سعيد	ما	كب	لم	لز	من اول الرابع	من افريقية	بفتح القاف وسكون الصاد المهملة ورآء مهملة واحمد اسم معلوم
٣٩	زويلة	اطوال ابن سعيد	لط مح	٢ ٤	ل كز	٢ مز	من اول الثالث	من اطراف سودان الغرب قاعدة بلاد فزان	من المشترك بفتح الزآء المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت ولام وهآء

الاوصاف والاخبار العامة

وطرّة من بلاد الجريد ويعمل بها الزجاج الصافي وتفاصيل الصوف وتجلب الى الاسكندرية وهي قاعدة بلاد مكراوة (؟)

واطرابلس آخر المدن التي في شرقي القيروان واذا فارقت اطرابلس متوجها لا تلتقي مدينة فيها حمام حتى تصل الى الاسكندرية واطرابلس مدينة على البحر مبنية بالحجر خصبة (؟) واسعة الكورة حصينة جدًا وليس بها ماء جار بل بها حباب وعليها سواقي قال في العزيزي وهي مربى للمراكب

وبغدامس الجلود المفصلة وهي على طريق بلاد السودان المعروفين بالكانم قال في العزيزي مدينة غدامس مدينة جليلة عامرة في وسطها عين ازلية عليها اثر بنيان رومي عجيب وبطيخ الماء منها ويقسمها اهل المدينة باقساط معلومة وعليه يزرعون واهلها قوم من البربر مسلمون ولهم مجد جماعة وليس لهم رئيس ومرجعهم الى متألفهم

عن ابن سعيد وقصر احمد آخر حدّ افريقية من جهة الشرق واول حد برقة وفي عرضه قصور مسافة مقدار اثنى عشر ميلا وهي بلاد لها زيتون وتخيل كثير واهل هذه الاماكن يجلب الخيل الى الاسكندرية وتجد الحاج بهم الرفق وقصر احمد قرية صغيرة وهو كالمخزن للعرب تخزن فيه غلالها ومن قصر احمد يركبون البريد الى برقه

وعن ابن سعيد وزويلة قاعدة بلاد فزان وهي جزائر نخل ومياه في صحارى وهي تحت حكم السودان وهو المشترك زويلة في قبلة اهل افريقية قال وزويلة ايضا مدينة محدثة كالربض للمهدية جعلها المهدي اول خلفاء العلويين مسكنا لرعيته وسكن هو وجنده المعدية وزويلة محلة كبيرة بالقاهرة قال في العزيزي ومدينة زويلة مدينة كثيرة النخل وزرع اهلها يسقى من الابار واما سبط فزان فان قد تقدم انه بالفآء والزآء المعجمة

على العدد	الاسماء	اسماء المنقول عنهم	ثالث الاقاليم العمرانية وهو بلاد المغرب						ضبط الاسماء
			الطول		العرض		الاقليم الحقيقي	الاقليم العرفي	
			درج	دقائق	درج	دقائق			
٤٠	برقة	اطوال ريم	مد ك	مه ٦	لب ط	٦ مد	من الثالث	من اوائل الغرب	بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وقاف وهاء
٤١	مدينة سرت	اطوال ابن سعيد	مر ام	٦ ل	لا ل	٦ ٦	من الثالث	من اوائل العرب	بضم السين وسكون الراء المهملتين ثم تاء مثناة من فوق
٤٢	طلميثا	ابن سعيد	مد	٣	ط	٤	من الثالث	مرسى برقة على البحر وعلى طرف القابة	بضم الطاء المهملة وسكون اللام وفتح الميم وسكون المثناة من تحت وثاء مثلثة والف في الآخر

الاوصاف والاخبار العامة

وبرقة على دخلة من البرّ قد دخلت شمالا في البحر وغالب بلاد برقة براري مقفرة وبها آثار مدينة عظيمة كانت عامرة في القديم وليس في بلاد برقة غير نهر واحد يقال له نهر درنا قال ابن حوقل وبرقة بلاد منوسطة وهي في مستوٍ من الارض وحواليها كورة عامرة وهي في وسط البوادي قال ابن سعيد ليس فيها مدينة معمرة لاستيلاء العرب عليها قال في العزيزي وهي موج افيح واسع وترتيبتها حمراء وبنى السور عليها ايام المتوكل

قال ابن سعيد وسرت من القواعد القديمة المذكورة في الكتب وقد خربها العرب وبقي بها قصورهم يسكنون بها وسرت على البحر قال وبعد ان يتجاوز البحر سرت يتعطف الى الشمال ويقطع البرّ الجنوبي في البحر والطريق من هذه الجهة على الفيوم الى مصر اقرب منها على الساحل وفي القرى بين سرت وبين الفيوم عمل المعزّ بن المهدي الفاطمي مهارج لما عزم على الوصول الى مصر

وطلميثا قرية مشهورة وبها قصر فيه يهود تحت حفارة العرب ومنها تحمل المراكب الشعير والعسل الى غيرها وقصر اليهود المذكور على هيئة برج كبير وعدّة اليهود الذين به الى يومنا هذا ما يزيد على مايتي يهودي وطلميثا عن الاسكندرية على نحو مسافة مهر والمراكب ترسي قبالة قصر اليهود وبالقرب منه وتحضر العرب وتبايعهم بالبضائع مقابضة (١٥)

كتب الرّحلات

١

رحلة ابن العربي *

ولما ذكر [الإمام] ابنُ العربي المذكور رحمه الله في كتاب « قانون التأويل » ركوبَه البحر في رحلته من إفريقية ، قال :

وقد سبق في علم الله أن يَعْظُم علينا البحر بزَوْله ، ويُغْرِقَنا في هوله ، فخرجنا من البحر ، خروج الميّت من القبر ، وانتهينا بعد خَطْب طويل : إلى بيوت بني كعب بن سُليم ، ونحن من السّغَب ، على عَطَب ؛ ومن العُرْي ، في أقبح زيّ ، قد قذف البحر زِقاق زيت ، مَزَّقت الحجارة مَنِيئتها ، ودسّمت الأدهانُ وَبَرَها وجِلدتها ، فاحترمناها أُزُراً واشتملناها لُفُعاً ، تمجّنا الأبصار ، وتخذُلنا الأنصار ، فعطفَ أميرُهم علينا ، فأوَينا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا ، وأكرم مثوانا ، وكسانا بأمرٍ حقيرٍ ضعيف ، وفنٍّ من العلم ظريف .

وشرحه : أنّا لمّا وقفنا على بابه ألفيناه ، يدير أعوادَ الشاه ، فِعْل السامدِ اللاّه ، فدنوت منه في تلك الأطمار ، وسمح لي بيَاذِقتُه ، إذ كنت من الصغر في حد يُسْمح فيه للأغمار ، ووقفت بإزائهم ، أنظر إلى تصرُّفهم من ورائهم ، إذ كان عَلِق بنفسي بعضُ ذلك من بعض القَرابة

---

* أزهار الرياض للمقري ٣ : ٨٩ – ٩١ ؛ وقد توفي ابن العربي سنة ٥٤٣ هـ . وكان عمره يوم قام برحلته إلى المشرق في صحبة أبيه لا يتجاوز سبعة عشر عاماً ، وقد بدأ الرحلة يوم الأحد مستهل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٥ .

في خُلُس بَطالة ، مَعَ غلبة الصَّبْوة والجهالة ، فقلت للبياذِقة : الأميرُ أعلم من صاحبه ، فلمحُوني شَزْراً ، وعَظُمت في أعينهم بعد أن كنتُ نَزْراً ، وتقدَّم إلى الأميرِ مَنْ نقل إليه الكلام ، فاستدناني ، فدنوت منه ، وسألني : هل لي بما هم فيه بَصَر ؟ فقلت : لي فيه بعضُ نظر ، سيبدو لك ويظهر . حرِّك تلك القطعة ، فَفَعَل ، وعارضه صاحبُه ، فأمرته أن يحرّك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير . وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنّم ابن عم الأمير مُنْشِداً :

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصل ربُّه وفي الهجر فهو الدَّهرَ يرجو ويتّقي

فقال : لعن الله أبا الطيّب ! أوَيَشُكُّ الربُّ ؟ !

فقلت له في الحال : ليس كما ظنّ صاحبُك أيّها الأمير ، إنّما أراد بالربّ هاهنا الصاحب . يقول : ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوِصال ، وبلوغ الغرض من الآمال ، على ريب ، فهو في وقته كلّه على رجاء لما يُؤمِّلُه ، وتُقاةٍ لما يُقطع به ، كما قال :

إذا لم يكن في الحبّ سُخط ولا رِضًى فأينَ حلاوات الرسائل والكُتْبِ

وأخذنا نُضيف إلى ذلك من الأغراض ، في طرَفي الإبرام والانتقاض ، ما حرّك منهم إلى جهتي داعيَ الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون مني ، ويسألونني كم سِني ؟ ويستكشفونني عنّي ، فبقَرتُ لهم حديثي ، وذكرت لهم نَجيثي ، وأعلمت الأمير بأن أبي معي ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة إلى مَثْواه ، فخلع علينا خِلَعه ، وأسْبل علينا أدْمعه ، وجاء كلُّ خِوان ، بأفنان الألوان .

ثمَّ قال بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه :

فانظر إلى هذا العلْمِ الذي هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُّبابة اليسيرة من الأدَب ، كيف أنقَذَانا من العَطَب ؟ وهذا الذي يرشدكم إن غَفَلتم إلى الطلب .

وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر ؛ انتهى مختصراً .

٢

رحلة العبدري *

[٦٩] ثمّ قطعنا برية المراحل الحمر ، وهي بيداء تغري بالرواحل الضمر ؛ على أنّها أقل البراري غرراً ، وأخفها مؤنة وضرراً ، ماؤها مورود ، قلّما يغبّ الورود ، ولكن معالمها دوارس ، ومسالكها طوامس ، للرمال المنهالة والرياح الروامس ؛ ومنها إلى قريتي زوارة وزواغة ، ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزوّاغة ، معتقدات شنيعة ، وأعمالهم كسراب بقيعة ؛ ومذاهب سوء ردية ، وضمائر شرّ عمر منهم كلّ طوية . إن استنام إليهم حاج لم يوقظه إلاّ برد ماء التقديس ، ودويّ أصوات النواقيس ، أو استأمن إليهم داج لم يرعه إلا تلفيق المعاذير ، عن إساءة رعي الخنازير ، لأنّهم يبيعونها من النصارى بأبخس الثمن ، ويعتقدون كل ذلك حقّاً تنتفي عنه الظنّ ، قطع الله دابرهم ، وخضد أصاغرهم وأكابرهم ، ولا أخلاهم من قارعة تجتاحهم قرعاً ، وتسحتهم أصلاً وفرعاً .

ثمّ خطرنا على قرية زنزور ، ولم أخبرها فلم أحدّث عنها بزور ، إلاّ أن منظرها معجب مؤنق ، وشجرها مخصب مورق ؛ ولا أدري هل مخبرها موافق ، أو هي ذات وجهين كالمنافق .

[٧٠] ثمّ وصلنا إلى مدينة طرابلس ، وهي للجهل مأتم وما للعلم بها غرس :

---

* هو محمد العبدري البلنسي ، بدأ سفره في رحلته هذه من حاصة بالمغرب في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨ .

أقفرت ظاهراً وباطناً ، وذمها الخبير بها سائراً وقاطناً ، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخلّب ، وتريه ظاهراً مشرقاً والباطن قد قطب . اكتنفها البحر والقفر ، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر ؛ وتفرقت عنها الفضائل تفرّق الحجيج يوم النفر ؛ لا ترى بها شجراً ولا ثمراً ، ولا تخوض في أرجائها حوضاً ولا نهراً ، ولا تجتلي روضاً يحوي نوراً ولا زهراً ، بل هي أقفر من جوف حمار ، وأهلها سواسية كأسنان الحمار ، ليس على ناشىء منهم فضل لذي شيبة ، ولا لذي الفضل بينهم هيبة ؛ ترى أجساماً حاضرة والعقول في عقل غيابات الغيبة ، وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ من العيوب العيبة ؛ إلى بخل لو مازج ماء البحر جمد ، وخالط الهواء سكن في آذار وركد ، وخلق يضيق به متّسع الفضاء ، ونزق يحق له في ذمهم كشف الغطاء ؛ وأذهان أربت في الضيق على الخاتم ، سواء لديها من حارب ومن سالم ، كأنّهم من ضيق أفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم ؛ فسبحـــان من خلقهم وأهل تونس في طرفي نقيض ، أولئك في الأوج وأولاء في الحضيض ؛ ولم أرَ بها ما يروق العيون ، وسما عن أن يقوم بالدون ، سوى جامعها ومدرستها فإن هما من حسن الصورة نصيباً ، ومن إتقان الصنعة سهماً مصيباً . وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة ، لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة . فما يشب بها للعلم طفل ولا يحج صرورة :

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له إذا لم يكن في فعله والخلائقِ

وقد حضرت بها تدريس الشيخ المسن القاضي الخطيب أبي محمد عبد الله بن عبد السيد ، وهو بيت قصيدتهم ، وكبش كتيبتهم ، وواسطة قلادتهم ، وأنف سيادتهم ، ذو سمت ووقار وقد أثر الكبر في جسمه ، كثير المواظبة

للمسجد والذكر خيّر في دينه ، وما كنت آتيه بعدما رأيته إلا بقصد الدعاء
[٧١] لأنّه ضيق الخلق لين النظر وفي لسانه حبسة لا يكاد يُفهم معها . وقد استفرغت جهدي وقت إقرائه في تفهّم ما يقول فما فهمته إلاّ بعد مدّة . وأظنه لا رواية له ، فإنّي سألته عن ذلك فأبهم جوابه وتنمر وحاولت مداخلته فصدني عن ذلك بشكاسته وجهامة لقائه . وما أبعد جميع أحواله من أحوال شيخنا الفقيه القاضي الأوحد الإمام قاضي الجماعة بحضرة مراكش كلأها الله أبي عبد الله محمّد بن علي بن يحيى الشريف قدس الله تربته وآنس في قبره غربته . فإنّه كان والله زين الدنيا والدين وهو كما قال القائل :

أقاموا بظهرِ الأرْضِ فاخضرّ عودها وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظهر

وتالله إنّ فقد مثله ليهوّن الرزايا . وإنّه لحقيق بما قال أحمد بن المعذل في ابن الماجشون : ما ذكرت أن الأرض تأكل لسان عبد الملك إلاّ هانت الدنيا في عيني . وقد سألت الشيخ أبا محمّد ابن عبد السيد عن أشياء ما قام فيها ولا قعد . وما استفدت منه في العلم فائدة سوى ما تقدّم تسطيره في قوله صلى الله عليه وسلّم : إذا نودي للصّلاة أدبر الشيطان . ولمّا حضرت تدريسه مرّ لهم في دولة التفسير قوله تعالى ﴿ وإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ وبالزُّبُرِ وبالكِتابِ المُنيرِ ﴾ فسألته ما الكتاب المنير الذي أراد هنـــا . فأجاب بأنّه جنس وهو بمعنى الزُّبُر قبله بإجماع من المفسرين . فقلت له : لم كرر ؟ فقال : للتأكيد ؛ وجمد على ذلك ولا يُفهم هنا للتأكيد معنى . ولو قال كرر لما تضمنه من المدح كان كعطف النعوت بعضها على بعض لكان أشبه . ولكن تكرار الباء يشعر بالفصل لأن فائدة تكرار العامل بعد حرف العطف إشعار بقوة الفصل بين الأول والثاني وعدم التجوز في عطف الشيء على نفسه ، والله أعلم .

ثم مر لهم بعدها قوله تعالى : ﴿ وغَرَابِيبُ سُود ﴾ وهي من الآيات التي صدئت فيها الأذهان الصقيلة ، وعادت بها أسنّة الألسنة مفلولة الشبا كليلة . وذلك
[٧٢] أن المنهج في كلامهم تقديم المتبوع على التابع فيقولون أبيض ناصع / وأصفر فاقع وأحمر قانٍ وأسود حالك وغربيب . ولا يقولون ناصع أبيض ولا فاقع أصفر ولا قانٍ أحمر لأن التابع فيه معنى زيادة الوصف فلو قدم لكان ذكر المتبوع بعده عيّاً إلاّ أن يكون لمعنى أوجب تقديمه . فلمّا قرعت أسماعهم بهذا سكتوا ولم يجد أحد منهم جواباً . وكان الشيخ قد ذكر ما قال بعضهم ، وأظنه القاضي أبا محمد ابن عطية : إنه من فصيح الكلام . فلم أقنع بذلك وقررته على ما تقدم فسكت . ومن جملة العجائب أن شيخاً ممّن حضر إقراءه أراد أن يحتج عنه لما كلمته ، فقال لي : إنّما ذكر السود لأنّه قد يكون في الغربان ما فيه بياض وقد رأيته في بلاد المشرق . فلم يفهم من الآية وقد حضر تفسيرها شيئاً إلاّ أن الغربيب هو الغراب .

وقد ظهر لي في الآية الأولى وجهان أردت أن أُثبتهما مستخيراً الله عز وجل . أحدهما أن قوله تعالى : جاءَتْهُمْ يعود في الضمير على المكذبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم داخلاً في الرسل المذكورين . والكتاب المنير القرآن . وقوله : ثمّ أخذت الذين كفروا معطوف على قوله : فقد كذّب الذين من قبلهم أي كذبوا ثمّ أخذتهم لقيام الحجة عليهم بالبينات وبالزُّبُر وبالكتاب المنير . وجاء تقديم قيام الحجة عليهم قبل العطف اعتراضاً للتهمم به . وهو من أرق وجوه البلاغة كما قال :

فإنّكَ إن أفُتْكَ يفتْكَ منّي فلا تسبق به أعلى نفيس

وكما قال حسان رضي الله عنه :

فإنّ في حربهم فاترك عداوتهم شرّاً يخاض عليه الصاب والسلع

وأرى مثل هذا في آية آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿ فإنْ كذّبوكَ فقد كُذّبَ رُسُلٌ من قبلك ﴾ ... الآية . وقوله جاءوا انصراف من المخاطبة إلى الغيبة كأنّه قال جاء هؤلاء المذكورون ، فيكون النبي صلى الله عليه وسلّم داخلاً في الضمير . وهو في موضع جاءتهم بالبيّنات وبالزُّبُر وبالكتابِ المُنير . فأقام الإخبار عن الغائب مقام المخاطب . كما قال : ﴿ حتّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ / وفيها [٧٥] وجه من التفخيم والتعجب كما أن المخاطب إذا استعظم الأمر رجع إلى الغيبة ليعمّ الإخبار به جميع الناس . وهـذا موجود في الآيتين . ومن ذلك قول النابغة الذبياني :

يا دار ميّة بالعَلْياء فالسّندِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

والوجه الآخر أن يكون المعنى على حذف مضاف كأنّه قال : ويخبر الكتاب المنير يعني القرآن . فيكون مثل قوله : ﴿ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أحْمَدُ ﴾ وهذا وجه حسن قريب . وكان شيخنا زين الدين أبو الحسن المالكي الإسكندري قد استحسنه حين عرضته عليه ، والحمد لله .

وأمّا الآية الأخرى وهو قوله تعالى : وغَرَابيب سُود ، فحسبك به إشكالاً أن فحول المفسرين أفحموا عن القول فيه ، وقصروا عمّا يتمّم الغرض ويوفيه . والذي ظهر لي في ذلك بعد طول تأمّل ، وفرط قلق فيه وتململ ، أن الموجب لتقديم الغرابيب هو تناسب الكلم وتماثل نسق الألفاظ وجرياتها على نمط متساوي التراكيب . وهو معنى قلّما يوجد في غير الكتاب العزيز حسبما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ فتذكّر إحداهُما الأخرى ﴾ وذلك أنّه لمّا

تقدم ذكر البيض والحمر دون إتباع كان الأليق بحسن النسق وترتيب النظام أن يكون السود كذلك ولكنّه لمّا كان في السود هنا زيادة الوصف كان الأليق بالمعنى أن تتبع بما يقتضي ذلك وهو الغرابيب ، فتقابل حظ اللفظ وحظ المعنى ، فوفي الحظان معاً وكمل الغرضان جميعاً ولم يطرح أحدهما للآخر . فيقع النقص من جهة المطرح ، وذلك بتقديم الغرابيب على السود . فوفي لفظ الغرابيب حظ المعنى في زيادة الوصف ووفي ذكر السود مفرداً من الإتباع حظ اللفظ إذ جاء مجرداً على صورة البيض والحمر ، فاتسقت الألفاظ كما ينبغي وتم المعنى كما يجب ، ولم يخلّ بواحد من الوجهين ، ولم يقتصر على الغرابيب ، وإن كانت متضمنة لمعنى السود ، لئلاّ تتنافر الألفاظ ؛ فإن ضم الغرابيب إلى البيض والحمر ولزها في قرن واحد كابن اللبون / إذا ما لز في [٧٤] قرن . وذلك غير مناسب لتلازم الألفاظ وتشاكلها وجريها في سنن الاتفاق . وبذكر السود وقع الالتئام واتسق نسق النظام ، وجاء اللفظ والمعنى في درجة التمام ؛ وهذا لعمر الله من العجائب التي تكل دونها العقول ، ويعيا بها اللسن فلا يدري ما يقول . والحمد لله على حسن عونه .

ومر بنا في دولة الموطإ حديث ابن عمر رضي الله عنه فيمن نسي صلاة فلم يذكرها إلاّ وهو وراء الإمام ، فقال في الكلام عليه : سمعت الإمام فخر الدين أبا علي ابن رشيق بمصر يقول في تعليل قطع الصلاة إذا ذكرت فيها صلاة أخرى إنّما ذلك لقوله صلى الله عليه وسلّم : من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها فإن ذلك وقت لها . قال فعين النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، وقت الذكر للفائتة ، فوجب أن يقطع التي هو فيها . فقلت : هذا عام محتمل للتخصيص بمن ذكرها في غير صلاة ، فأمّا من ذكرها في الصلاة فخارج عن هذا العموم بدليل قوله تعالى : ﴿ ولا تُبْطِلُوا أعْمالَكُم ﴾ كما خرج عنه من ذكرها في أوقات

النهي عند من يرى ذلك من العلماء . ثم إن هذا التعليل لا يأتي على مذهب مالك رحمه الله لأنّه لا يرى القطع واجباً بدليل أن من صلى صلوات وهو ذاكر لصلاة فإنّه لا يعيد منها إلا ما بقي وقته ؛ وبدليل أن الإمام إذا ذكر صلاة ثم قطع فقد أبطل على من خلفه . ولو كان القطع واجباً لصحت صلاة من خلفه لأنّه مغلوب على القطع ، كما إذا ذكر أنّه جُنُب ؛ ولكن القطع في ذلك استحباب ، فكأن الإمام متعمد له ، فلذلك أبطل على من خلفه . وكنت أذكر هذا المعنى من كلام الشيخ الإمام أبي الحسن اللخمي على المسألة ، فلمّا فرغت من كلامي هذا سكتوا ولم يجدوا جواباً . وهذا وما أشبهه إنّما أثبته تنبيهاً على ضعف العلم في هذا الأوان وقلة الراغب فيه لا أنّي معجب فيه بنفسي ، ويعلم الله أن معتقدي أن أدل دليل على فناء العلم وامّحاء رسومه هو كلامي وكلام أمثالي فيه فإنّه ما أوجبه إلاّ عدم علماء التحقيق ؛ وحسبنا الله وبه التوفيق . والذي أرى في الحديث الذي استدل به / ابن رشيق أنه يقصر [٧٥] على مثل الصورة التي ورد فيها وهي صلاة النبي صلى الله عليه وسلّم الصبح يوم الوادي بعد طلوع الشمس لا من حيث أنّه وارد في صورة . فإن معتقدي أن اللفظ إذا كان مستقلاً بنفسه اعتبر فيما يجب له ولم يقصر على الصورة التي ورد فيها ، ولكن من حيث قام الدليل أن ذلك هو المراد . وذلك أن حمله على العموم يؤدي إلى باطل متفق على بطلانه وهو أن من ذكر صلاتين فأكثر لا يؤديها أبداً ، لأنه كلّما وقف في صلاة ذكر فيها أخرى فتبطل عليه ، فالتخصيص في مثل هذا ضربة لازب ؛ والله أعلم .

ولم أرَ بأطرابلس أثر عناية سوى ما تقدم ذكره إلا قبّة باب البحر من بناء الأوائل في غاية الإتقان ونهاية الإحكام مبنية من صخور منحوتة في نهاية العظم منقوشة بأحسن النقش مرصوفة بأعجب الرصف ، متماثلة المقدار علوها

وسفليها ولا ملاط بين الصخور من طين ولا غيره . ومن العجيب ترتيب تلك الصخور ورصفها في الأساس فضلاً عن رفعها إلى السقف ووصولها إلى هنالك مع إفراط عظمها . وفي مقعد القبة صخرة مستديرة منقوشة يحار الناظر في حسن وضعها ، وعلى القبة قبة أخرى عالية ومبان مرتفعة . ورأيت للقبة السفلى باباً مسدوداً وعليه من خارجه صورة أسدين قد اكتنفاه مصورين من تلك الصخور بأبدع صنعة وأغربها ، وهما متقابلان على الباب وفي كل واحد منهما صورة لجام قد أمسك بعنانه شخص واقف وراءه ، وقد منعه به أشد المنع . ولعلّ ذلك كان لمعنى تعطل وجهل سرّه ؛ والله أعلم .

والذي في بلاد إفريقية من عجائب البناء وآثار الاعتناء أمر يضيق عنه الوصف . منها قصر لجم وسيأتي ذكره إن شاء الله ، ومنها قصر يُعرف بالمنارة غربي القيروان على مرحلة منه مبني من صخور منحوتة موضوع على الاستدارة كأنّه مخروط من عود ؛ وهو من فرط إتقانه كأنّه حجر واحد ، وفي أعلاه طوق ناتيء من تلك الصخور على هيئة قنطف قد نحتت ورققت أطرافه حتى [٧٦] تجردت . وعرض / من الأصل ، فأتت لذلك جميلة المنظر . وفي أعلى القصر من كل جهة صخور بارزة من البنيان عظيمة قد نحتت مستديرة وحفرت فيها مجار للماء من السطح فصارت ميازيب متسعة المجاري في غاية الإحكام وجمال المنظر .

وقد دلت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكتها في غابر الزمان على ضد ما هي عليه الآن . فإنّها شديدة الإهمال ، غير سديدة الأحوال ؛ طامسة المسالك ، دامسة كالليل الحالك ، عمرانها خراب ؛ وغدرانها سراب ؛ وعنوانها يباب ، يكلّ عن وصف بنائها لسان المنطيق ، ويضيق في ميدان تبيان خلائها عنان التلفيق ؛ حلّت بها الآفات والمحن ، وشفا منها الدهر على عقد لها من حقود وإحن ، لا يسلكها إلا مخاطر ، ولا يعدم من عربانها إيلام

خاطر ، وقد استوى لديهم الصالح والطالح ، واتفق في مذاقهم لكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح : اتخذوا أخذ الحاج خلقاً وديناً ، واعتقدوا إهلاكه ملّة وديناً ، فماله عندهم طعمة أحلى من مال اليتيم ، في [يد] الولي الفاجر اللئيم ، ومن حديث إخوان الصفاء ، ومن الوعد على ثقة الوفاء ، لبسوا أسبال المعاوز ، وألفوا خلال المفاوز . فهم بها أغنى عن الماء من ضب ، وأصب إلى صب الفواقر على فقر المسافر من صب ، على كل مرقب منهم عقاب ، يرقب الضيفان ليغزهم أمر عقاب . فما يمر بتلك المسالك سالك ، ولا يخطر على تلك المعابر عابر ، ولا يرد في تلك المناهل ناهل ، إلا انقضوا عليه انقضاض الصقور على البغاث ، وانكدروا عليه بحيث لا يغاث من استغاث . فمزقوا أشلاءه تمزيق الدهر للأحرار ، وعاثوا فيه عيث أويس في ثلة وأسامة في صوار ؛ لا أمِنَ هم من عوادي الدهر ربرب ، ولا عذب هم من موارد الآمال مشرب ، ولا رحل عنهم يوم حتى يستخلف عليهم نكبة ، ولا وردت عليهم ساعة إلا بتحفة غضبة ، حتى يصيروا عبرة للبادي والحاضر ، وأحدوثة المقيم والمسافر ، بحول الله الذي يسبّح له الضب والنون ، وأمره بين الكاف والنون .

فصل : وقد رأيت أن أثبت في هذا الفصل ما أعتقد أنّه الفصل في حكم [٧٧] السفر بهذه / البلاد لقضاء فريضة الله على العباد . فأقول : إن المرء إن كان عري الفؤاد من أوار الهوى ، خلي الأحشاء من نار الجوى ، ساكن البال والبلبال ، منفسح المجال على الأوجال ، صاحي اللب سليم الحشا ، ثابت الذهن قعد أو مشى ، فمهما أجرى السؤال ، في هذا المجال ، وسأل عن حكم الارتحال ، مع هذه الأحوال ، أجيب بقوله ألا صلّوا في الرحال ؛ وأمّا من تقلبه اشتغال وغرام ، باضطرام والتزام ، في احتدام ، وتطرق إلى تحرق ، وتأنّق من تملق ، واضطراب لاقتراب ، وافتراق لاجتماع ،

وإغراق في انخلاع ، شرب من كأس الحب حتى ارتوى ، وذوى بدنه من خوف النوى ، وهام بذكر حاجر واللوى ، نقل عن نسيم الصّبا حديث نجد وروى ، فحوى من علم الصبابة ما حوى ، واشتمل على أسرار عليها انطوى ، وأخذها مشافهة عن معلم الطوى ، سرت في جسمه حميّا راح الراح ، وغنّت على أفنان قلبه أطيار الارتياح ، وهبّ له نسيم وصل اهتز له وارتاح ، كما يهتز الغصن اللدن في كفاح الرياح ، فهو مع الأوجال والجوى بمنزل ، وعن حكم السؤال والجواب بمعزل ، لا يصغي أذناً إلى نصيح ، ولا يلقي أذناً إلى لاح يصيح . يخاطب وغير المخاطب عنى ، وينظر وإلى غير المنظور رنا ؛ يشدو مترنماً ويترنم مدندناً :

لم يحبب القلبُ حبّاً مثل حبكُمُ ولم ترَ العينُ شيئاً دونكم حسنا

فهذه حكمه حكمه ، وأمره أمره ، وإلزامه التزامه ، لا يمتثل إلاّ ما به الحب أمر ، ولا يسكن إلا ما سكن الهوى وعمر ، فإن صحا مرة فخوطب قال أنا ضيف عمر ، وإن هُدد بأمر أو خُوّف بزيد وعمرو ، قال وهو مشتعل الأحشاء بالجمر : دعوني فلا خوف ، ولا حر بوادي عوف :

دع من أحب لأعصينّك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه
القلب أعلم يا عذول بدائه وأحق منك بجفنه وبمائه

[٧٨] ثم مررنا على بلاد مصراطة ، وهو بلد لم يحو إلا جفاته ، وشأنه أحقر من أن يعمل فيه الوصف مقوله أو أداته ؛ على أنّه ذو قرى ظاهرة ، ومناظر عند ظهورها باهرة ، تخيل الحسن إذا نظرت ، وتحيله إذا اعتبرت :

مساكن غصّت بسكانها ولكن تراهنّ كالغامر

يظن بها الحسن ذو غرّة وما حسن دار بلا عامر

ثم جئنا البرية الردية ، وذيك معدن كل أذية ، سباخ تدهش النواظر ، وتذهل بفرط ما تهول الخواطر ، ومياه تحل قوى الأجسام ، وتثير كامن الأسقام ، وتنفذ كما تنفذ السهام ، ما يعدوها من أفلتها إلا نضواً ، لا يقل من شدة النحول عضواً .

وبعد طول التعني بهذا المهمه المرت لاحت لنا في البيداء قصور سرت ، ولسان حالها يقول لنزيلها : أقويت وأقفرت ، فإن عدلت عدلت ، وإن كنت ما جرت فقد جرت :

ليَ اسم ولكن لا مُسمى وراءه فلا تغترر إن كنت ذا فطنة باسم
فكَم طارَ في الآفاق صيت مشهر لمن ما له في صالح الفضل من قسم

وهذا الاسم يطلق على عدة قصور بينها مسافة أوها يسمى الشبيكة وهي أعمرها في هذا الوقت . وآخرها يسمى المدية . وأكثر ما يطلق اسم سرت عليها ، وحكمها كلّها حكم القفار . قلّما يعمرها إلا الأعراب ومن ليس به عبره . وقد ذكر البكري في مسالكه أن سرت مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخل وبساتين . وذكر نحو ذلك في أجدابية ، وبينهما نحو من عشر مراحل ، ولا وجود لشيء ممّا ذكر ، إلاّ أن يكون ممّا غبر ودثر . وأظنّه سمع بوجود التمر بها فظن أن بها نخلاً ، والتمر إليها مجلوب من بلاد أوجلة وهو جل عيشهم بها . وممّا أنشده البكري في سرت :

يا سرت لا سُرَّت بك الأنفسُ لسان مدحي فيكم أخرسُ
[٧٩] ألبسَتم القُبحَ فلا منظر يَروقُ منكُم لا ولا ملبسُ
بخستَمُ في كلّ أكرومةٍ وفي فعال القبح لم تبْخسوا

ثم سرنا من سرت سير من خاف يداً عادية ، أو أسداً ضارية أن تنوشه ، مقتحمين لقحم الخطر ، ومرتكبين لمركب الغرر ، في بريتي سنانة ومنهوشة وهما من القفار المعنّية ، وكل راحة فيهما عن المسافر مولية ، لا معهد بهما ولا أنيس . ولا محط للرحال عن ظهر العيس : بحر جيوش وغارات ، ومقر نوائب وملمات ، ماؤها وشل زعاق ، ولصها بطل لا يطاق .

وبعد مكابدة الأين ، ومعاينة الحَين ، ومقاساة غصّة وحرقة ، والسلو عن ألم وداع وفرقة ، وصلنا إلى القفر القواء أرض برقة ، فوجدنا برية هي أم البراري والقفار ، والمهامه التي يحار فيها أرباب الأسفار ، يستعذب عذابها المنفض من الحجاج ، كما استعذب الظمآن المورد الأجاج ؛ امتدت وطالت ، واشتدت وهالت ، واربدت وحالت ، ولو أنشدت لقالت :

أنا الغُولُ غالتْ من يطور فناءها وتخدع بالألطاف طوراً وبالبر
فإنْ أكلُوا برّي شربتُ نُفُوسهم وكم بينَ نفس المرء في الغدر والبر

سكنها من الأعراب كل فظ غليظ ، يحرج بجفائه الأحنف ويغيظ ، حتى تكاد منه النفس تفيظ ، لا جرم أنّهم يقرؤون التنزيل ، ويوالون المنفض بالجميل ، ولا معترض للحاج عندهم وإن كان فهو قليل ، والشأن عندهم في التبايع المعاوضة في المبيعات ، والتبادل في المثمونات ، لا يجري بينهم فيها دينار ولا درهم ، وباب التعامل بهما عندهم مبهم ، وقد ساوم أحد الحجاج بعضهم بجمل يعطيه به بكراً وزيادة دينارين . فقال له : لا أدخل خيمتي ما لم يدخل قطّ خيمة أبي ولا جدي . وهذا حالهم في العينين يجهلون بهما أثمان الأشياء ، ويستعملون نساءهم في البيع والشراء ، فلا يتوصل الحاج إلى شراء القوت إلاّ بعرض مبتذل وحال ممقوت ، ومن العجب عندهم أن كل امرأة لا بد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها البرقع ، وهي تتخلّل الناس

مكشوفة الرأس والأطراف حافية القدمين لا تهتم بستر ما سوى وجهها كأن
[٨٠] ليس لها / عورة سواه ، فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتساخ ، ومرصداً
لعارض الأوساخ ، لا تصان فتماط عن ذقن ، ولا تنزع فتماص من درن ،
حتى تصير أوسخ من عرض اللئيم ، وأقبح من وجه الشيطان الرجيم . فتفاجىء
العيون من ذلك أشوه منظر يُرى ، وتسمع الآذان من وصفها أقبح حديث جرى.

وما رأيت في أرض برقة مع اتساعها ما يحلى بعين الرامق ، وتعلق
به مقة الوامق ، سوى مسكن رأيته في خلاء من الأرض بين الرجل المشقوق
وقصر الصعافنة منقور في حجر صلد بأصل جبل على صورة دار رائعة وعلى
بابها صفة ، ولها بناء مليح نقر فيه عن يمين وشمال صور بيوت لم يتم عملها ،
وإذا دخلت من باب الدار ألفيت قبة مليحة متسعة مرتفعة السمك مربعة
منقوشة بأبدع النقش ، وفيها مصاطب قد دارت بها حتى اتصلت بالباب ،
وقبالة الباب باب آخر يطلع منه على درج إلى بيت آخر كبير وجميع ذلك
منحوت في حجر صلد يفوت الوصف إتقانه ، فسبحان من يرث الأرض
ومن عليها وإليه المرجع والمصير . وقد رأيت نحو هذا في موضع آخر من أرض
برقة حال الرجوع . وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

فصل : وبرقة مدينة قديمة من بناء الروم ، وكان اسمها عندهم
أنطابلس . قال البكري : ومعناها بلغة الروم الإغريقية خمس مدن . ومعنى
أطرابلس ثلاث مدن . وليس الآن هنالك مدينة تسمى برقة ولا مدينة مذكورة
إلا طلميثة . وهي قديمة ولست أدري أهي برقة فغير اسمها ثانياً إلى طلميثة
كما غير أولاً إلى برقة أم هي غيرها . وبرقة الآن عند الناس اسم أرض
لا اسم مدينة . والمغاربة يسمون بها ما ردت عين أقيان من غربي أجدابية إلى
الإسكندرية . وذاك نحو من أربعين مرحلة . وأمّا عرب تلك الأرض فإنّي

رأيتهم لا يسمون بها إلا مارد الحصوي شرقاً ، إلى أرض برنيق غرباً ،
وهو حد الغابة وما حاذاها من الساحل ومن القبلة ، ويسمون مارد الحصوي
إلى العقبة الكبيرة البطنان ، ومنها إلى الإسكندرية لا يذكرون إلا العقبتين
[٨١] وذلك مسيرة عشرة أيام .

فصل : وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم ، وعرب الحجاز
أيضاً فصحاء . ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم فلم يختلط
كلامهم بغيره ، وهم إلى الآن على عربيتهم ، لم يفسد من كلامهم إلا القليل ،
ولا يخلون من الإعراب إلا ما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون . وقد سألت
بدوياً لقيته يسقي إبله في الحصوي عن ماء يقال له أبو شمال هل ثمر عليه
— وذكرته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل الغرب — فقال لي : نعم
تطأون أبا شمال ، وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول ؛ وليس في الغرب
عربي ولا حضري يفعل ذلك . ومررنا بأطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد
منهم : يا حجاج معكم شيء تبيعونه؟ وأثبت النون وسكن الهاء للوقف ؛ ورأيت
أعرابياً منهم قد ألحت عليه امرأة تسأله من طعام معه ، فقال لها : والله ما
تذوقينه ، فأتى بضمير المخاطبة على وجهه ، وأثبت النون وسكّن الهاء .
وسمعت شخصاً ينشد في الركب مكتري رحالة ويقول : من يكري زاملة ؟
فسمعه بدوي فقال له : أعندك الزاملة ؟ فقال : نعم . قال : فلا تقل من يكري
وقل من يستكري . وذكر لي بعض أصحابنا ممّن حج معنا أن شخصاً شرب
من زمزم ، فقال : في هذا الماء رائحة الحبل وحرك الباء على لغة أهل الغرب
يعني الرشاء المستسقى به ، فسمعه أعرابي فقال له : ومن أين جاءت رائحة
الحبَل إلى الماء ؟ فأشار له إلى الرشاء . فقال له : قل الحبْل ولا تقل الحبَل .
وأمّا نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل الغرب بتفسيره ، فهم حتى الآن

يتحاورون به على سجيتهم ؛ فمن ذلك أن شخصاً منهم وقف علي بموضع نزولي من محلة الركب ، وكانت الترعة منه بعيدة ، فقال لي : يا سيدي تدعني أظهر ، يعني أخرج . وسألت شخصاً منهم عن الطريق فقال لي : إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صوب كذا ، يعني إذا خرجتم منها . وهذا اللفظ قد أكثر
[٨٢] فيه أهل الغريب في تفسير قول عروة بن الزبير / رضي الله عنه : لقد حدثتني عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر ، وأتوا عليه بشواهد وأمثال . وسمعت صبياً منهم ينادي في الركب : يا حجاج من يشتري الصفيف ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس فقلت له : اللحم معك؟ فقال: نعم . وأبرز لحم ظبي مقدد . وهذا اللفظ قد ذكره مالك رضي الله عنه في الموطإ وتهمم بتفسيره . فقال بإثر الحديث ، قال مالك رضي الله عنه : والصفيف القديد . وسألت شخصاً عن ماء هل هو معين ؟ فقال لي : هو ماء غدق . وهذا اللفظ فسره أبو عبيد في غريبه ؛ وسمعت آخر وقد ازدحم الناس في مضيق ، وهو يقول : تنحوا عن الدرب . وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى ، وبالله تعالى التوفيق .

فصل : ومما يلي الإسكندرية من هذه الأرض العقبة الكبيرة . وبينها وبين الإسكندرية عشرة أيام . ثم العقبة الصغيرة . وبينها وبين الكبيرة ستة أيام . ومنها إلى الاسكندرية أربعة أيام . وكلتاهما خلاء لا ساكن بها ولا مسكن . وأكثر مواضع هذه الأرض هكذا أسامٍ بلا مسميات وهي برية واحدة ممتدة إلى الاسكندريّة وفي آخرها المومأة المضنية المؤذية أوحش المراحل على الراحل قفر لوبية : أرض تستوحش منها لنكارتها القلوب ، وينسى مع رؤيتها كل خطب ينوب ، فقربها كرب من أعظم الكروب . ونوبتها على المسافر

من نوائب الدهر وهي ضروب :

ولولا حبيب حبّه أضرم الحشا ... يصرفني شوقي إليه كما يشا
أهيمُ به حيّاً ومِيتاً وإنّني ... لأضمر من حبيه أضعاف ما فشا
ترنحني من ذكره أريحيّة ... كما اهتز غصن للنسيم إذا نشا
تركتُ إليهِ دونَ منٍّ أحبّة ... تصدع إذ فارقتهمْ مني الحشا
لما بتّ في أكنافها ليلة ولا ... خشيت هجيراً لافحاً أن يعطشا

[٨٩] ثم وصلنا إلى مدينة الإسكندرية ، فأنزلنا شيخنا الفقيه زين الدين بمدرسة إقرائه . وأولانا من بره وتأنيسه ما يكافيه الله به . وأقمنا بها سبعة أيام . ثم سافرنا على طريقنا الأولى إلى العقبة الصغيرة . ثم تياسرنا منها إلى العقبة الكبيرة . وهذه الطريق معطشة . وماؤها في آبار عميقة ما رأيت أبعد منها . وقلّما يأتي الاستقاء منها إلاّ بحبال موصولة . والغالب في ورودها الغب . فشق سلوكها لذلك . ثم منها على طريقنا الأولى إلى البطنان . ثم إلى قصر الصعافنة . ثم إلى الرجل المشقوق . ثم إلى الحصوي وهذه كلّها أسماء مواضع تنزلها العربان . ما بها مستعتب سوى قصر الصعافنة . ومن الحصوي على الطريق الوسطى بين طريق الغابة وطريق القبلة إلى أبي شمال وهي عين غزيرة بيضاء عذبة . ثم إلى جرسون . ثمّ إلى مراوة . وتركنا عن اليمين طريق المرج وقبة هيب وطلميثة وهي مدينة أرض برقة ومرسى سفنها . ورأيت ما بين جرسون ومراوة آكاماً غليظة دائرة بديار منحوتة منها في حجر صلد من أبدع العمل وأغرب
[٩٠] الإتقان عجيبة محكمة جدّاً . ودخلت / واحدة منها بإزاء الطريق ، فوجدتها على نعت دار متقنة . وعن يمين مدخلها حجرة عظيمة للطبخ . وعن يسازه حجرة أخرى للرحض والتطهر . وفي مقابلة الداخل بيت كبير مليح جدّاً منقوش على أحسن صفة تكون عليها البيوت المبنية . وتلك الآكام كلّها

منحوتة ديراً على تلك الصفة . ومن مراوة إلى سوسة وهي حصن خرب على شرف مرتفع ينظر على فحص متسع فيه مواجل كثيرة لماء المطر قلّما تنضب لكثرتها وعظمها . وفي سمتها آبار المياس . ولم أمر راجعاً عليها لسبب أوجب ذلك . فتيامنّا عنها . ثم وصلنا إلى أرض برنيق . وهي أرض طيبة للزراعة كثيراً . وبها قصور عدة يخزن فيها . وأولها القمانس . وهي ثلاثة قصور متقاربة واحدها قمينس ، هكذا ينطقون به على لغتهم المعروفة بالقاف وهي أسماء أعجمية . ومررنا على قصر جليط . وهو في آخر أرض برنيق من جهة الغرب . ثم على أجدابية وهي حُصين قديم على قدر دار كبيرة عالية . وذكر بعض المؤرخين أنّه كان به ماء جار ونخل . وليس الآن هنالك إلا قصر ماثل في خلاء من الأرض لا ماء جار ولا شجرة واحدة . ومنها إلى عين أقيان وهو ماء شريب في رملة بيضاء . وهو حد برقة عند المغاربة لأن برقة عندهم اسم الأرض ويطلقونها على ما ردت الإسكندرية إلى هذا الموضع . وقد تقدّم أن برقة اسم مدينة وقد رأيت عرب تلك الأرض لا يطلقون اسم برقة إلاّ على الغابة وما حاذاها . وذلك من القمانس إلى الحصوي . ومنه إلى العقبة الكبيرة ثم إلى البطنان . ومنها إلى الإسكندرية لا يذكرون إلا العقبتين . ثم وصلنا إلى برية سنانة ومنهوشة . ثم إلى مدينة سرت ثم إلى الشبيكة آخر قصورها وأعمرها ، مارين على الطريق الأولى إلى مصراتة . وهي مواضع وقرى عامرة . وآخرها من جهة الغرب سويقة ابن مطكود . ومنها إلى بني حسن . وهي قرية مجموعة عامرة . وبينها وبين مصراتة مواضع على الساحل عامرة وقصور قديمة . [٩١] وهنالك مدينة لبدة فيها / آثار قديمة وبنيان عجيب . وفيها من أساطين الرخام وألواحه ما يقصر عنه الوصف . وفيها صورة امرأة من رخام بإزاء الطريق . ولا شك أن البلدة كانت دار مملكة . وهي الآن متهدمة دارسة ليس بها إلاّ

عمارة قليلة . وفي جنوب بني حسن مسلاتة . وهم قوم يبرون أهل الدين ، ويكرمون الحجاج ، وهم على خير وصلاح . ثم وصلنا إلى مدينة أطرابلس . وكان ذكر لي بها شيخ يدرس الفقه يُعرف بابن عبيد فحضرت مجلسه ، فرأيته قليل التوقير لمجلس العلم . فخرجت ولم أكلمه . ثم وصلنا إلى قابس .

٣

رحلة ابن رشيد السبتي *

[٢] كان سفرنا على بركة الله تعالى ورجاء صنعه الجميل وحفظه الكفيل يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول ، عرّف الله بركته ، ولم يكن توجهي للاسكندرية عازماً على التغريب ولكن لأخذ كتب كنت أودعتها هنالك ونيّتي العودة إلى مصر برسم القراءة بها ، فغلب عليّ من يلزمني حقّه وموافقته من فضلاء الأصحاب ؛ وكان سفرنا في جفن صغير لأهل أطرابلس ، والله تعالى الواقي والعاصم ، وتغير علينا الهواء في بعض الطريق ، فألجأنا إلى مرسى يُعرف بطبرق ، من مراسي برقة ، أقمنا به يومين أو نحوهما ، ودخل علينا هنالك [جفن] آخر كان فيه بعض رفقائنا ، فالتقوا معنا وحمدنا الله على السلامة . ثم ساعدت الريح وأخذنا في المسير معاً والله تعالى أهل التيسير إلى أن وافينا موضعاً يعرف بمرسى هوّارة من صحراء برقة ويعرف بقصر أحمد ، وهناك أهلّ علينا هلال شهر ربيع الآخر ، وسافرنا منه على حالة خوف من العدو البحري — قصمه الله — ونزل هناك جماعة من الحجاج مؤثرين المسير في البرّ ، لما سمعوا من وجود العدوّ في البحر ، وعصمة الله واقية وكفالته كافية .

ثم ساعدت الريح وأخذنا في المسير ولطف الله كفيل بالتيسير والتسيير ، فوافينا مدينة أطرابلس — حرسها الله — غدوة يوم الأربعاء الثالث لشهر ربيع الثاني ، فرأينا بلداً حسناً وناساً فضلاء . . .

* قام ابن رشيد برحلته سنة ٦٨٥ وهو هنا يصف عودته من الإسكندرية إلى طرابلس .

[٣] ولقينا بأطرابلس شيخها ورئيسها وفاضلها وقاضيها الفقيه الفهامة الفاضل الصالح أبا محمد عبد الوهاب بن أبي الحسن ابن عبد السيد ، تولى الله جزاءه ، وحفظ مجده وضاعف سناءه — ورأيت من قيد اسمه عبد الله بن عطية بن أبي البسام ابن عبد السيد — فرأينا رجلاً فاضلاً سرياً حفياً على سنن الفضلاء ، تواضعاً عن رفعة ، ومجداً عن كسب وعن وراثة ، فأضافنا واحتفل ، وكان من جملة عنايته بنا وبأصحابنا أن قال : إن هذا الجفن الذي وصلتم فيه جفن صغير ، وقد بلغنا أن العدوّ ، قصمه الله ، ظهر في هذا البحر ، ولست بتارككم للسفر فيه . وكان هنالك جفن كبير وصل طرابلس [. . .] قدم قبلنا من الإسكندرية وكان في تلك الليلة مسافراً إلى المهدية — وكان ذلك عند غروب الشمس يوم قدومنا — فقال : تخيروا إمّا أن تقيموا فقد أعددت لكم منزل ابني ، أو تسافروا في هذا المركب ، فقلنا له : وكيف ذلك والمركب مسافر في هذه الليلة ؟ فقال : في حكمي إمساكه إلى الغدوة ، فشكرناه على ذلك ، واخترنا السفر ، فأمر في الحال من توجه إلى البحر وأمر بإمساك المركب ، وتشاغلنا تلك الليلة بإصلاح الزاد ، واستخرنا الله تعالى في السفر فيه فتيسر ذلك والحمد لله ؛ ونقلنا أسبابنا من الجفن الذي كنّا فيه صبيحة اليوم وسافرنا ضحوته أو ضحاءه يوم الخميس الرابع لشهر ربيع الآخر ، عرّفنا الله التيسير والتسهيل وصنع لنا بفضله الصنع الجميل .

ولم يتمكن لنا سماع من الشيخ أبي محمد لاستعجال الحال ولا استجزناه ، ولم نلق بها أحداً من أهل العلم ولا كان بها ، إلا ما ذكر لنا من شخص له مشاركة في العربية لم يتمكن لقاؤه .

وبها مدينة حسنة الوضع رائقة الصنع ، والمدينة بجملتها حسنة البناء متسعة الشوارع حتى كأنّها تحاكي شيئاً ما من وضع الإسكندرية . اجترت

[٧] تلك الليلة التي أقمنا بها ، بعد المغرب ، بشارعها الأكبر ، ولم أكن عرفت المدينة ، فنفحني نسيم عاطر ، كأنّه باكرة ماطر ، فخلت نسيم الصّبا جاءت بريّا القرنفل ، فالتفتُّ نحو تضوعه متنشقاً ذلك النسيم ، وعهدي بالمنتسم العطر عهد قديم ، فألفيت عن يسار المارّ باباً شارعاً ، لما حوله من الأبواب فارعاً ، فتوقفت أتنشق ذلك العرف إلى أن تعرفت أنّها مدرسة ، فأقدمت على الدخول تحكيماً في الاذن للعرف ، فوافيت وسطها روضة مخضلة من خيري أحمر ، قد استوى على سوقه ، وناصى بعضه بعضاً ببسوقه ، وقد علّل بالسقي شجره فأينع ، وتفتّح زهره فاستكمل واستجمع ، فأقمت بها ساعة أتعلل بذلك النسيم ، وكأنّي حللت بجنّة النعيم ، وكلّما انسحب الظلام ، طاب عرفاً ذلك النمام ، ولذّ ذلك الانتسام ، فأذكر في ذلك قول الكاتب الجليل المحدث الحافل [أبي] عبد الله [ابن] الأبار رحمه الله وقد استطرد لوصف الخيري :

خلَعُوا على زهرِ الرّياض حلاهمُ فَغدا بهم خيريُّها يتأدّبُ
فمعَ الصّباحِ تَبَتُّلٌ وتَقَلّصٌ ومع الظلام تبذُّلٌ وتسحُّبُ

ثمّ انصرفنا من هناك عشاء لمحل المبيت وإصلاح حال السفر ، يمّنه الله وأمّنه ، وتيسر بفضل الله السفر كما وصفنا بمشاركة ذاك الرجل الفاضل ، جزاه الله خير الجزاء ، ورأينا من تجار ذلك المركب بوصاته بنا من المبرة والكرامة ما شكرناه وحمدناه ، والله يتولى جزاءهم ويوفي من الخيرات أجزاءهم ، فسرنا على اسم الله وبركته إلى أن وافينا المهدية عند نصف الليل من ليلة الأربعاء العاشرة من شهر ربيع الآخر . . .

٤

رحلة التجاني *

[٨٣] ومن شعراء صفاقس أيضاً ثم من الفريانيين ورؤسائها عبد الله بن عبد الرحمان بن علي الفرياني ممّن تقدّم عصرنا قليلاً ، مولده بمالقة من بلاد الأندلس وأبوه هو المنتقل إليها من صفاقس ، له رحلة أبعد النجعة فيها شرقاً وغرباً ، أخبرنا عنه صاحبنا أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري وقد رآه وجالسه بطرابلس وسمع منه بعض شعره وكان هجّاء مقذعاً .

[١٠١] وملك الموحدون قابس ، وتوغل مدافع في الهرب فاستجار بأعراب طرابلس فأجاروه ، وكان شاعراً حافظاً للسيرة والأخبار عالماً بالأنساب ، فلمّا أتى عليه عامان طريداً شريداً استشار عشيرته في اللحاق بعبد المؤمن ، فأشاروا عليه بذلك ، فسار إليه فلقيه بمدينة قابس ، فرضي عنه وأسكنه هنالك فتوفّي بها وقد ناهز التسعين .

[١٠٤] ثمّ توجه قراقوش بعد افتتاحه [قابس] إلى طرابلس ، وقد كانت بايعته أول إقباله وانتقضت عليه فحصلت طرابلس وقابس تحت إيالته ، ووقع بينه وبين يحيى بن إسحاق الميورقي تغير ، والميورقي إذ ذاك ببلاد الجريد ، فسار الميورقي إليه إلى طرابلس ، وخرج قراقوش للقائه فالتقيا بخارجها فانكسر قراقوش وفر إلى جبالها ولم يدخل إلى البلد خوفاً من الحصار ، وكان من حصار

* قام التجاني عبد الله بن محمد بن أحمد برحلته هذه في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي بين عامي ٧٠٦ – ٧٠٨ .

الميورقي لطرابلس واستيلائه عليها ما يُذكر عند ذكر طرابلس إن شاء الله تعالى .

ثمّ أخذ الميورقي أيضاً في الحركة إلى قابس ، وكان نائب قراقوش خرج منها لما انهزم قراقوش ووجّه إليها الشيخ أبو سعيد ابن أبي حفص من تونس حافظاً من الموحدين يُعرف بابن تافراجين ، فتحرّك الميورقي إليها ، وكتب إلى أهل قابس ينذرهم ويحذرهم ومن بعض فصول كتبه في ذلك : « ولمّا عزمنا على قرع بابكم ، والحلول بجنابكم ، رأينا تقديم الإنذار إليكم . . . .
[١٠٩] ولا تغترّوا بأهل طرابلس فلو كان لهم سواد يقطع ، / أو مياه تصد وتمنع ، لجروا إلى الطاعة ، وحملوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة » .

فلمّا انقضى أجله الذي حد ولم ير منهم إجابة ، ولا آنس منهم إنابة ، زحف إليها بجموعه فحاصرها حصاراً شديداً وقطع جميع غابتها ، فيقال إنه لم يبق منها إلا نخلة واحدة تركها عبرة لهم ، فأنابوا له ، بعد أن اشترطوا عليه مسالمة واليهم ابن تافراجين وأن يتوجه بأهله وماله في البحر ، فاشترط لهم ذلك ووفى به وأغرمهم ستين ألف دينار عقوبة لهم . وقد وصف ذلك كلّه كاتبه أبو محمد عبد البر بن فرسان في كتاب كتبه عنه لأهل طرابلس وهي إذ ذاك في طاعته مبشراً بافتتاحه لقابس ، ونقلت هذا الكتاب بطرابلس من خط شيخنا الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن عبد العظيم ابن عبيد يقول في بعض فصوله : « الحمد لله الذي أعاض من النصب راحة ، وأضاء بإشراق الدعوة العباسية جهة من هذه المدينة كانت مظلمة وساحة ، بعد لجاجة شيطانها ، ومكابدة قطانها ، وتضيق أعطانها ، بمجانيق مسامتة لمبانيها ، على توانيها ، لا تبلغ أهلها ريقاً ، ولا تجد لهم للمدافعة طريقاً ،
[١١٠] فريقاً ترهب على البعد وتقتل فريقاً ، / وكنا قبل وضع تاجها ، وخلع رتاجها ، وكسر مهابتها ، والتوغل في غابتها ، خاطبنا جمهورهم ، واستنزلنا معمورهم

للطاعة ومغمورهم رغبة في الإبقاء عليهم ، وإنذاراً لم يكن بد من تقديمه إليهم ، فرفعوا عواءهم ، وركبوا أهواءهم ، واستنهضوا غويهم فنصب للشقاوة لواءهم ، وكان فيها من رجال الدرق ، ورماة الحدق ، غثاء أستدوا إليهم ظهورهم فانقصمت ، وتمسكوا بعراهم فانفصمت ، وغوغاء استنفروها من الجبال ركدوا بعد الهبوب ، وعرفوا سموم تلك الجنوب » .

[١١٠] استقر قراقوش بودان فتوجه الميورقي إليه بمن استصحب معه من العرب الدبابيين الموتورين من قبل قراقوش ، فحصره بها إلى أن فني طعامه وأعطى بيده سلماً ، واشترط على العرب أن يقتلوه قبل قتل ولده ، وكان شديد المحبّة له ، فلما خرج هو وولده إليهم قال له الولد : يا أبت إلى أين يروحون بنا ؟ فقال : إلى حيث رحنا بآبائهم ، فقتلوه وقتلوا ولده بعده وصلبه الميورقي بظاهر ودان وذلك في سنة تسع وستمائة ؛ وهذا الأخير من صفة موت قراقوش هو
[١١١] مما تلقيته من أفواه العرب الدبابيين ، وهم يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن آبائهم عمن حضر ذلك من أجدادهم ، وترك قراقوش ولداً آخر اشتهر أمره بعد مدّة وكان شجاعاً كريماً حسن الصورة جدّاً تميل العيون إلى شخصه والأسماع إلى ذكره ، ورتبه الخليفة المستنصر بالحضرة في أجناده ، قدمه لطائفة منهم ، فحدثته نفسه بالثيارة وأراد أن ينسج على منوال أبيه فهرب بجمع من أصحابه ولحق ببلاد ودان حيث قُتل أبوه ، وأشعل تلك البلاد ناراً فأنفذ إليه ملك الكانم من قتله وأراح تلك البلاد من فتنته وحمل رأسه إلى بلاده فطيف به فيها وذلك في سنة ست وخمسين . وقد كان البطالون من الأجناد بالحضرة قد اشتغلوا بذكره ، وأكثروا الخوض في أمره .

وقد كنا وعدنا بذكر السبب في وصول قراقوش إلى هذه البلاد ونحن الآن نذكر ذلك :

كان صلاح الدين يوسف بن أيوب إنّما ملك هو وعمه أسد الدين شركوه بجيش نور الدين محمود بن زنكي وقوة سلطانه ، وهما في ذلك من جملة أمرائه وأعوانه ، وبعد استيلائه على مصر وموت أسد الدين حدثت بين صلاح الدين ونور الدين وحشة خاف بسببها صلاح الدين أن يتحرك نور الدين على مصر ويستولي عليها ، فاحتاط لنفسه وبنى على الاندفاع أمامه إن وصل ، وذلك في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فانقسم أمره بين بلاد اليمن وبلاد
[١١٢] المغرب فقال له أخوه تورانشاه بن أيوب : أنا أتوجّه إلى اليمن وأستفتحها وأعيدها لك إن احتجت إليها ، فتجهز إليها في السنة المذكورة وافتتحها في السنة التي بعدها وهي سنة تسع وستين ، وقال له الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه بن أيوب : أنا أتوجه إلى المغرب فأفعل مثل ذلك ، فاشتغل تقي الدين بالنظر في حركته ثم إنه زهد في بلاد المغرب وعرف ما بينه وبين إفريقية من العربان والمهالك فاستعفى من ذلك .

وكان سرى خبر تغريبه إلى جمع من جنده وخواصه فاشرأبوا لذلك وبنوا عليه ، فلمّا امتنع تقي الدين من التغريب فر بطائفة منهم مملوكه قراقوش الأرمني وبطائفة أخرى منهم إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظمي ، وهو منسوب إلى الملك المعظم شمس الدولة أخي صلاح الدين ، وكان في أجناد تقي الدين ، فجاز المذكوران بمن معهما إلى المغرب ، ولما جاوزا العقبة رأيا أن يفترقا لينفرد كل واحد منهما بما قدر له من الملك والرئاسة ، فصار قراقوش إلى سنّرية فافتتحها وخطب فيها للسلطان صلاح الدين ولأستاذه تقي الدين بعده وكتب إليهما بذلك وافتتح زلة وأوجلة وأزال من بلاد فزان دولة « بني خطاب » اهواريين وكانت قاعدة ملكهم زويلة وهي المعروفة بزويلة بني
[١١٣] الخطاب ، وعذّب ملكها محمد بن / خطاب بن عبد الله بن زنفل بن خطاب

آخر ملوكهم على المال حتى هلك . وخطب فيها لصلاح الدين ولتقي الدين .

ولم يزل على هذه الطريقة يفتح البلاد ويخطب فيها لمن ذكر إلى أن وصل إلى طرابلس فاجتمع عليه الدبابيون ونهضوا معه إلى جبل نفوسة فاستولى عليه واستخلص منه أموالاً عظيمة أرضى بها العرب ، وكان من الاتفاق أن مسعود ابن رمان أمير الرياحيين خالف في ذلك الزمان على بني عبد المؤمن وفر أمامهم ، فوصل إلى هذه البلاد فكان تارة يكون مع زغب وتارة يكون مع دباب ، فلمّا سمع بوصول قراقوش ومن معه من رماة الغز سُرَّ بهم ، وتوجه بمن معه من أبطال الرياحيين إليه فحصر قراقوش بهم طرابلس وصادف بلاداً لم تتوقع ثائراً ولا مخالفاً فهي خالية من الأجناد ومن العُدد والأقوات ، فاستولى عليها فعظم إذ ذاك أمره ، وتوقع من بتونس وغيرها شره ، ووصلت إليه العربان من كل مكان فاحتيج إلى تكليف الرعية فوق طاقتهم ، فأبغضه الناس بعدما كانت القلوب كلّها قد مالت إليه ، وأقبلت عليه ، وقد ذكرنا في هذا التقييد من أفعاله الشنيعة ومخالفته على بني عبد المؤمن وتلاعبه بالمهاجرة إليهم مرة والفرار عنهم أخرى ودوام ذلك نحواً من أربعين عاماً إلى أن قتله الميورقي ما وسعه الذكر واحتمله هذا التقييد ، بحول الله تعالى .

[١١٤] وكان يقال لقراقوش المظفري لأنه مملوك الملك المظفر والناصري لأنه كان يخطب للملك الناصر صلاح الدين ، وكذلك كان يكتب في ظهائره . وقفت على ظهير بتوسيع أملاك لبعض أهل طرابلس سمى فيه نفسه « قراقوش الناصري ولي أمر المؤمنين » بسكون الميم في لفظ أمر وكتب علامة الظهير بخطه « وثقت بالله وحده » ، وتاريخ الظهير عام تسعة وسبعين .

[١١٩] ومن هذه القرية [الزارات] كان الابتداء بسلوك منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم ، وهذا المذهب

هو الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصاً أهل الساحل منهم ، فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يمر بهم من المسلمين للروم ، فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ، ويتجنبون إيواءهم وقِراهم ، وهم من بقايا الشرذمة الضالة التي قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد في إفريقية ، فإنّه لمّا أظفر الله به وأراح منه البلاد والعباد ، تفرقت أتباعه في الأقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذه المواضع . . . إلخ .

[١٨١] وأول من افتتح هذه الجزيرة [جربة] في أول الإسلام رويفع بن ثابت ابن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري من بني مالك بن النجار وهو من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وممّن سكن مصر منهم ، وكان معاوية أمّره على طرابلس وذلك سنة ست وأربعين فغزا منها إفريقية سنة سبع وأربعين ووصل إلى جربة فافتتحها ثم رجع من عامه فمات في برقة وقبره بها ، ويقال بل مات بالشام .

[١٨٢] ونزلنا يومنا ذلك بقرية مارث وهي قرية حقيرة وعليها غابة نخل يسيرة ، ومنها يوم السبت إلى قرية أجاس وهي قرية ضخمة ذات مبانٍ كثيرة ولها غابة متسعة ، وبها عين حرارة عذبة الماء غير أنّها مستوبأة . وأخبرني أهلها أنّهم احتفروا في هذا الوقت بئراً عذبة الماء سالمة من الوباء ، فهم الآن يشربون منها ويسقون من تلك العين بهائمهم وزروعهم . ورأيت بها مسجداً يذكر أهلها أن له فضلاً مشهوراً عندهم وأن الدعاء مستجاب عنده ، وقد أظهر بعض زهادهم به الاغتباط ، فلازم به الرباط ، وإن كان هذا المرابط وجميع أهل هذه البلدة على المذهب السيء المنسوب للخوارج ، وهذا المذهب هو الغالب على سائر البقاع التي بين قابس وطرابلس كما تقدم قبل هذا .

وبهذه القرية كانت إقامة جعفر بن حبيب حين وجهه باديس بن المنصور

من المهدية لقتال يانس الصقلي لما أقبل من مصر مدّعياً ولاية طرابلس ، فأقام جعفر بن حبيب بقرية أجاس هذه متلوماً عليه نحو ثلاثة أشهر إلى أن كانت [١٨٢] الوقيعة بينهما بظاهر زنزور ، قرية من قرى / طرابلس سيأتي ذكرها بعد هذا ، وذلك كله في سنة تسعين وثلاثمائة ، وبسط هذه الوقيعة : أن باديس بن المنصور كان والياً على إفريقية وكانت طرابلس مستثناة عليه لا يليها أحد من قِبَله بل تتعين ولاتها من مصر . فأحب والي طرابلس إذ ذاك أن يرتحل إلى مصر فكتب إلى الحاكم يطلب ذلك منه ليكون بين يديه في حضرته وأن يوجه إليه من يتسلم البلد من يده ، فوجه إليه يانس المذكور وكان والياً على برقة ، فلمّا وصل إلى طرابلس توجه واليها إلى مصر وأمكنه من البلد . فلمّا علم بذلك باديس وجه إلى يانس يستفهمه عن سبب وصوله ويستدعي منه سجلاً إن كان بيده بالولاية ، فبعث إليه : إنّما بُعثت نائباً عن أمير المؤمنين ومثلي يكبر عن أن يولى بسجل ، فحينئذ وجه باديس جعفر بن حبيب المذكور لقتاله فأقام المدة المذكورة بقرية أجاس هذه متلوماً عليه وبعث إليه في أثناء تلك المدة يخيره في واحدة من ثلاث : إمّا بعث السجل إن كان بيده ، وإما القدوم على باديس ليفاوضه فيما وصل إليه ، وإما المناجزة بالحرب ، فعاد جوابه إليه يقول : أما الوصول فلا سبيل إليه ، وأما سجل الولاية فأنا أكبر من ذلك إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس ، وأما الثالثة فأنا أوافيك عن الحركة إلي وأجيئك إلى موضعك فأقاتلك به ، فتحرّك إليه جعفر بن حبيب متوجهاً إليه فنزل غربي زنزور ونزل يانس بالجانب الشرقي منها والزيتون بينهما ثم التقيا فكانت الهزيمة على يانس وقُتل أكثر جنده وأُخذ [١٨٣] هو أسيراً فطلب ممّن أسره أن يحملوه إلى جعفر فأبوا / من ذلك واحتزوا رأسه ثم حملوه إلى جعفر ونجا فلال المنهزمين فلجأوا إلى مدينة طرابلس ، فأبى

أهل طرابلس من تمكين جعفر من البلدة ومن اللاجئين إليها ، إلى أن وصل إليهم فلفل بن سعيد الزناتي ، فمكنوه من البلدة وهو أصل ملك الزناتيين لها .

[١٨٥] وغمراسن اسم لناحية من الجبل المتصل الذي أصله جبل درن بالمغرب وهو الجبل الأعظم الذي قلّ على وجه الأرض ما يدانيه سموّاً وامتداداً وكثرة خصب واتصال عمارة ، ومبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس ماراً مع المشرق مستقيماً إلى أن يصل إلى هذا الموضع فيسمى دمر ثمّ يمتد فتسمى مسافة منه جبل نفوسة فإذا حاذى طرابلس رق وخفي وامتد كذلك رقيقاً إلى أن يصل إلى طرف أوثان من أرض برقة فينقطع هناك ، وهو من مبدئه إلى منتهاه مخصوص بسكنى البربر وبه كل طريفة من الثمار وغرائب الأشجار ، والماء ينبع منه في مواضع معروفة .

[١٩٠] وعرضت لمخدومنا أعزّه الله في أواخر شهر ذي القعدة هذا شكاية شديدة وتواتر لدينا الخبر أيضاً عن جدب برقة وفتنة أهلها بما لا سبيل إلى اجتيازها معه ، ووصل إلينا عقد بشهادة عدول من أهل طرابلس وخطاب قاضيها أن ركباً فيه نيف على سبعمائة نسمة جاء من برقة وأنّه لم يخلص منه حاشا مائة أو نحوها ، وأن سبب ذلك أنّهم لم يجدوا هنالك ما يقتاتون به حاشا لحوم الحيات فعدا عليهم سمها فأهلكهم ، وصح لدينا من هؤلاء الذين خلصوا منه أنهم [١٩١] كانوا يمرون في كثير من أرضها بالأحياء والحيام فيها مضروبة وجميع من في تلك الحيام موتى من رجال ونساء وأطفال ، إلى غير ذلك ممّا يحكونه من بيع من بقي في تلك الأحياء من الأحياء للناس وأكلهم للحومهم ، فحاولنا بما اجتمع من هذه الأخبار المفظعة ومن مرضه الشديد رده إلى تونس لتكون إقامته بها إلى أن يعافى من مرضه ، ويصل ركب الارسال المشرقين ، فنتوجه حينئذ معهم من تونس .

[٢٠٥] وقربنا نحن مرحلتنا من الغد فبتنا على غير ماء ثم أصبحنا يوم الاثنين فنزلنا ببئر تعرف بالعقلة وهي بئر مرة تتضمنها أرض قفرة ، ووجدنا بعض المحاميد قد أوردها ذلك اليوم إبلاً كثيرة فزادها إلى المرارة تغيراً ، وأخبرني بعضهم أن حفر تلك البئر محدث وأن البئر القديمة المعروفة هنالك أبعد يسيراً منها ، وإنما انتقل الورد إلى هذه لفضل مائه على الماء الآخر ، وأرض هذه البئر من الأرض المعروفة عندهم بأرض فِسِّي — بكسر الفاء وكسر السين المهملة مشددة — ثم انتقلنا يوم الثلاثاء إلى ماء يعرف بالقُصار بضم القاف كذا ينطقون به وهي أحساء لا يستطيع أحد لمائها شرباً ، ولا يحب لليلة قربها قرباً ، ومنه يوم الأربعاء إلى ماء يعرف بأبي الخُبُر — بضم الخاء والباء — لا يحمد مذاقه مختبر ، ولا يصبر لتجرع صبره مصطبر ، ومن هذا الماء فارقنا أرض المحاميد وودعنا في هذا اليوم أميرهم يعقوب بن عطية وانقلب راجعاً إلى مخيمه وبتنا نحن تلك [٢٠٦] الليلة هنالك ثم / ارتحلنا من الغد فنزلنا بماء يعرف بتاذر ، وهو أول أرض الخواري وهم بنو جارية بن وشاح بن عامر وقد تقدم رفع نسب وشاح إلى سليم عند ذكرنا للمحاميد ، ورئاسة الخواري الآن في المراغمة منهم وأميرهم في حين تاريخه سالم بن مرغم بن صابر بن عسكر بن حميد بن جارية ، ووصل إلينا بهذا المنزل بعد أن كان قد انصرف عنّا من منزل أجاس قبل وصولنا لغمراسن على ما تقدم ، فصحبنا في هذا المنزل وما بعده من المنازل ، ولما اجتمع بنا رغب إلى مخدومنا أن تكون إقامتنا عنده بمنزل زنزور إلى أن تصل المشارقة وأن لا يتجاوزه إلى طرابلس ، وجعل هذا الغرض من أكبر مطالبه ، وأقصى مآربه ، وإنما فعل ذلك مضاهاة لابن عمّه يعقوب بن عطية حيث أقمنا عنده بمنزل غمراسن تلك المدة المتقدمة ، فلم يكن بد من إسعافه بما طلب فتوجهنا بانين على الإقامة معه حيث ذكر .

وكان انتقالنا عن تاذر يوم الخميس فملنا إلى طريق الساحل متياسرين ، وسامتنا من البحر مدخلاً في البر آخذاً من المشرق إلى المغرب بطول خمسة أميال أو نحوها ، ومرساها مرسى مستحسن عند أهل البحر ويعرف هذا الموضع في القديم بقصر صالح ، وسيأتي له ذكر فيما بعد هذا ، وهنالك السبخة المفضل ملحها على جميع السباخ ومنها يمتار أكثر بلاد النصرانية جئناها وبها إذ ذاك
[٢٠٧] ماء يسير وكأنّها / طرف من سبخة التاكرت التي بتوزر ، وأهل ذلك الموضع يذكرون أنّهم إذا رفعوا ما على وجهها من الملح ووصلوا إلى تراب الأرض احتفروا فيه قليلاً فوجدوا طبقة من الملح أخرى ثم يحتفرون فيجدون طبقة أخرى وكذلك إلى سبع طباق وهم يجهدون إلى الطبقة السابعة لأن النصارى يتغالون في اشترائه منهم ، ويذكرون أن له عندهم منافع طبية متعددة .

واجتزنا بعده أيضاً على ورد يعرف بتفاضلات — بالتاء المثناة من أعلاه والفاء والضاد المعجمة — وهي أحساء ماء بين أحقاف رمال ، ووجدنا العرب قد أوردتها في ذلك اليوم من النعم الدثر ، ما ضاق به متسع ذلك القفر ، وتمادى السير بنا إلى أن نزلنا بظاهر زوارة الصغرى وتعرف أيضاً بوطن بلد المرابطين ، وهي قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع وماؤها في غاية العذوبة ، وقد استولى الآن الخراب على هذه القرية فليس العامر منها إلا بعض الغامر ، وأهلها قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم موصوفون بتصميم في دينهم وأمانة فيما يودع عندهم ، مكفّرين بمواقعة الذنوب ، ورأيت منهم أقواماً قد نحلت من العبادة أبدانهم ، واصفرت ألوانهم ، بانين في ذلك على هذا الأصل الفاسد من تكفير العصاة على ما تقدم بيانه عند ذكر جربة .

[٢٠٨] وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف بعبد الرحيم الزواري ، / وجميعهم يعظمه ويقدمه رئاسة وسنّاً وصلاحاً بزعمهم . اجتمعت به فرأيت شيخاً

مجتهداً في العبادة حسن السمت إلاّ أنه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله ، وخسر حاله وماله ، وتوسمت في أحد من وصل معه الطلب ، فتكلمت معه فوجدته قد شارك في طرف من العلم ، وانجر الكلام معه من التحدث في أصل المعتقد إلى التحدث في مسألة المسح على الخفّين في الطهارة فشنع بها على مثبتيها كثيراً وفاقاً لمذهب الخوارج ، فذكرت له بعض الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فردها بالجملة وقال هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشيء منها ، قال : وقد نص لنا سيدنا أبو يزيد مخلد بن كيداد على طرح ما كان من الأحاديث يناقض أصلاً من أصولنا ، فلعنت النص ومن نصه ، وأبعدت عني نفلتات لم يصن لسانه عنها شخصه ، وقد وافقت الخوارج على إنكار المسح على الخفين أضدادهم الشيعة مستندين في إنكاره إلى ما رووه عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه كان لا يرى المسح ، وذلك غير صحيح عنه كرم الله وجهه فإن حديث التوقيت في المسح وهو حديث صحيح يروى ، وقد تغالى الشيعة في هذا واتخذوه شعاراً حتى إن الواحد من غلاتهم ربما تألى فقال : برئت من موالاة أمير المؤمنين ومسحت على خفي إن كان كذا ، وإلى هذا أشار الشاعر بقوله ، ونذكر حكاية هذا الشعر على ما ذكرها
[٢٠٩] أبو سليمان الخطابي في معالمه ، قال : / كان الحسن بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعنهم والياً على المدينة من قبل أبي جعفر المنصور فعتب على بعض كتّابه فحبسه فكتب له من السجن :

أشكُو إلى الله ما لقيتُ ... أحببتُ قوماً بهم شقيتُ
لا أشتم الصالحينَ جَهْراً ... ولا تشيّعتُ ما بقيتُ
أمسح خفي ببطن كفّي ... ولو على جيفة وطيتُ

قال فأطلقه وأكرمه .

وأما الخوارج فوقفوا في إنكار المسح مع نص الكتاب ولم يروا نسخه بالسنّة ، ورويت عن مالك رحمه الله في ذلك رواية شاذة لا ينبغي أن تحمل على ظاهرها ، وقد تأولها عليه من صححها عنه . وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول وقد نصوا على تفسيق من قال به ، وقول هذا الزواري إن هذا من أخبار الآحاد ليس كذلك فقد نص الأئمة على أن هذا الحكم ممّا ارتفع عن رتبة خبر الآحاد ووصل إلى رتبة التواتر .

وأمام هذه القرية بمقربة منها قصر يسمى وزدر – بكسر الواو وسكون الزاي وكسر الدال المهملة – قد محي رسمه ، وبقي اسمه ، وتخرب أكثر البناء الذي يحف به ولم يبق من أهله إلا أناس قليلون / سكنوه حبّاً للوطن ، [٢١٠] وهذا القصر هو المشهور ببيع من يجتاز به الحجاج وغيرهم للنصارى ، ولم تزل الركوب تحترس إذا مرت به خوفاً من أهله ، وخوفهم على سرقة الرجال ، أكثر من خوفهم على سرقة الرحال ، فإذا جازوا عليهم ولم يفقدوا أحداً ممن معهم هنأ بعضهم بعضاً بذلك . وكان هذا الفعل فيهم كثيراً شائعاً فيما تقدم وأمّا الآن فقد قلّ ذلك لقلة العابرين به . وسألت أقواماً منهم عمّا اشتهروا به من هذا الفعل فأقروا به ولكنهم ادّعوا انقطاعه عنهم جملة . قالوا: وهذا الخراب الذي في موضعنا الآن إنما هو مساكن القوم الذين كانوا يفعلون ذلك ، أهلكهم الله تعالى وأخرب بيوتهم .

فبتنا تلك الليلة بظاهر وطن ثم أصبحنا من الغد مرتحلين فاجتزنا في أول المرحلة على زوارة الكبرى التي تسمى كُوطين – بضم الكاف وكسر الطاء المهملة – وهي قرية أضخم من الأولى وأكبر غابة ، وفي أهلها شجاعة موصوفة وعزة أنفس وطاعتهم للعرب مشوبة بعصيان . وكان نزولنا منتصف النهار بظاهر ولول . وبين وطن وولول عشرون ميلاً وهما قريتان متشابهتان ،

عذوبة ماء وخراب بنيان . وولول هي منتهى أرض زوارة ، وسميت بذلك لأن أقواماً من البربر يعرفون ببني ولول نزلوا بها وكذلك تعرف في القديم بأرض بني ولول ، وهي أكثر بقاع الأرض ظباء ولأهلها دربة في صيدها بأشراك ينصبونها لها تميزوا بذلك عن غيرهم .

ومن ولول يوم الأحد إلى موضع يعرف بتليل وهو حصن في رأس [٢١١] تل مشرف على البحر ، وتحفّ بالقصر في سند التل دور كثيرة معمورة وما تحت التل سوانٍ ومزارع ، وليس هناك شجرة واحدة وإنما معتمدهم في سكناهم بذلك القصر على ما يزدرعونه بتلك السواني ، وبها آبار معينة إلا أن ماءها شريب وليس العذب منها إلاّ ما بين التل والبحر ، وأهله برابر نكارة موصوفون بخبث وشرّ .

وارتحلنا عنه يوم الاثنين فاجتزنا في أول المرحلة على زواغة وبينهما ستة أميال أو نحوها ، وزواغة هي أكبر قرية في ذلك الموضع وأضخمها وبها نخل كثير ، ومنها يظهر للمتوسم بعض مباني طرابلس وبينهما نحو خمسين ميلاً ، وأهلها لم يزالوا في القديم مشكورين مكرمين للحجاج على الضد من جيرانهم أهل زوارة ، ولم يكن يُسمع عن أحد منهم بيع مسلم ولا تعرض له بسوء ولكنهم في هذا الزمان أظهروا تعديهم ، ومدوا إلى المراكب البحرية والركائب البرية أيديهم ، كأنهم حسدوا أهل زوارة على تميزهم بتلك الفضيلة التي اشتهروا بها ، وبهذه المدينة آثار قديمة وأعمدة مرتفعة من الرخام قائمة إلى الآن لا بناء يكنفها ، ووجدت ساريتين منها متجاورتين على شكل واحد وكل واحدة مؤلفة من أربع قطع في غاية الضخامة والارتفاع وحسن الصنعة غير أن إحداهما قد سقطت قطعة من أعلاها ، فأخبرني أهل الموضع أن بعض [٢١٢] كبراء / العرب كلفهم رمي تلك القطعة لأنه سمع أن كل قطعة منها مملوءة

ذهباً فرموها وكسروها فلم يجدوا بها شيئاً ، وإلى جانبها من جهة البحر آثار المدينة القديمة المعروفة بصبرة ، وربما كتبت بسين مكسورة عوض الصاد ، وهي كانت في القديم قاعدة ذلك الموضع كلّه ولم يكن هناك أحصن منها ، واستفتحها عمرو بن العاص ، رحمه الله تعالى ، أوّل دخوله لإفريقية بعد افتتاحه لطرابلس ، جرد إليها خيلاً وهم آمنون قبل أن يصل إليهم الخبر بفتح طرابلس فصبحتها خيله ، وقد فتحوا أبوابها لتسرح ماشيتهم ، وكان على الخيل عبد الله بن الزبير ، فدخلوها فلم ينج من أهلها أحد إلا ناس قلائل توجهوا في مراكب لهم إلى صقلية ، واحتوى أصحاب عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو فأمرهم بهدمها وإحراقها .

وبعد مجاوزتنا لزواغة اجتزنا أيضاً على قرية أخرى تعرف بصرمان وسيأتي لها ذكر بعد هذا ، ثم اجتزنا على زاوية تعرف بزاوية أولاد سهيل فنزلنا هنالك ، وهي رابطة حصينة يحف بها شجر كثير من التين والرمّان والخوخ وغير ذلك ، ولها أرض متسعة تعرف بالسابرية ، وأولاد سهيل قوم من العمور ، والعمور فخذ من الوشاحيين ينتسبون إلى عمور بن وشاح أخي جارية بن [٢١٣] وشاح أخي المحاميد ، وهم أخ رابع اسمه جواب وهو أبو الجواوبة ، وقبيلا العمور والجواوبة في زماننا هذا لم يبلغ من كثرتهم أن يقوم كل قبيل منهما بنفسه فهم تابعون لإحدى قبيلتي إخوتهم الجواري أو المحاميد ، وقد كانت قبل هذا لهم بهذه الأرض صولة ، ساعدتهم فيها من الأيام دولة ، ثم أخمد الدهر ذكرهم ، وطوى أمرهم ، وهم الآن تابعون للجواري ، وسهيل صاحب هذه الزاوية رجل كان يعرف بأبي عيسى يُذكر عنه صلاح واعتناء بإضافة من كان يرد عليه وتوفّي عام ثلاثة وسبعين وستمائة ، وخلفه في إقامة رسم هذه الزاوية أبناؤه ، وهم ناس صلحاء سكنوا تلك الزاوية رحمة للمجتازين

بهم ، فإنّهم يرفدونهم بما يحتاجون إليه من زاد وغيره ويرجعون إليهم ما استلبتهم العرب ، والدبابيون يرعون لهم حق رباطهم وحق مشاركتهم لهم في النسب .

ولما نزلنا بمقربة من هذه الزاوية وصل إلينا أهلها راغبين في الوصول إلى موضعهم والتحرم بطعامهم ، فسرنا مع مخدومنا إليهم فأصعدونا إليهم فوجدناهم قد شحنوها بالعُدد المنمنمة على نحو التحبيس عليها ، ورأيت هنالك كتباً كثيرة محبسة ، وزرنا بداخلها قبر الشيخ أبي عيسى رحمه الله ، ثم أتوا بطعام محتفل فطعمنا وانتشرنا وبتنا تلك الليلة بمقربة منها ، ثم لما أصبحنا سرنا فاجتزنا بزاوية أضخم منها حالاً ، وأكثر رجالاً ، وبها مبان كثيرة ولها [٢١٤] أرض / متسعة وتعرف بزاوية أولاد سنان إخوة الوشاحيين والنوائل ، وهم بنو سنان بن عامر بن جابر ، وعامر هو أبو وشاح ونائل كما تقدم عند ذكرنا للنوائل ، فبنو سنان يتداعون مع الوشاحيين في عامر أبيهم ، وهذه الزاوية راجعة إلى حكم عبد الله بن دباب بن أبي العز ابن صابر بن عسكر بن حميد ابن جارية الشديد القسوة المشهور هو وبنوه بربط البربر وتعذيبهم بالنار وغيرها لاستخراج أموالهم منهم ، وهنالك مجمع العرب وسُوقهم ، وبها يباع مجتلبهم ومسوقهم .

وكان نزولنا في هذا اليوم بموضع يعرف بلماية ، وهي قرية صغيرة وبها نخل يسير وقصور مرتفعة متفرقة ، وبمقربة منها قرية تعرف بقرقوزة — الأولى راء والثانية زاي — وبها آثار قديمة وكانت لها غابة نخل فأُهملت وبطل ثمارها ، فبتنا تلك الليلة بلماية كما تقدم .

ثم أصبحنا يوم الأربعاء الثامن والعشرين من هذا الشهر وهو شهر ربيع الأول فحللنا بمنزل زنزور ، فرأيت غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار وبها مياه عذبة وأكثر شجرها الزيتون وأكثره من الغرس القديم على نحو زيتون

الساحل ، وليس يعظم شجره في موضع من المواضع ما يعظم في هذه القرية ، وبها مع ذلك نخل كثير ورطبه متناهي الطيب ، وبها أيضاً من شجر التفاح
[٢] والرمّان / والعنب والتين كثير ، وهي كثيرة القصور وقد استولى الرمل على أكثرها ، وهم الآن يتوقعون استيلاءه على باقيها ، ويقال إن طولها الآن نحو من خمسة أميال وعرضها نصف ذلك ، وهي أشبه البقاع بجزيرة جربة هيأة غراسة ، واتصال عمارة ، ولا فرق في المنظر بينهما ، إلاّ أن مساكن أهل جربة أخصاص من النخيل كما تقدم ومساكن هؤلاء دور مبنية ، وكانت فيما تقدّم من أملاك أهل طرابلس ، فلمّا وقعت فتنة الميورقي بتلك الجهات وانقطع بسبب ذلك طرق أهل البلد إليها وانتفاعهم بشيء من غلتها ، زهدوا فيها فباعوها من بعض البربر فهو أصل ملك المجريسيين . وبها جامع متسع للخطبة يذكر أن عمرو بن العاص ـ رحمه الله ، أسسه واحتجر من هذا الجامع موضع فدفنت فيه أم سالم بن مرغم وكثير من ولده وضرب عليه بباب .

ويجاور هذا الجامع قصر خرب متسع يعرفونه بالقصر القديم يقال إنّه أول قصر بني بزنزور . ولم يبق منه الآن إلاّ سوره المحيط به ، وهم يعظمون أمره ويقولون إن فناء ما بقي منه يؤذن بخراب البلدة وفناء أهلها ، وإلى جانب هذا الحائط يكون مجتمعهم لنصب سوقهم وهي سوق نافقة ضخمة يجتمع
[٢] البربر بها من الأقطار / المتنائية في كل جمعة ، فيبيعون هنالك جميع ما يجلبونه . وأهل زنزور قوم من البربر هواريون ثم مجريسيون كما تقدم .

وهوارة يقال إن أصلهم من البربر وإن أباهم هوار بن المثنى بن المسور ابن يخصب ، ويقال ابن أبي المثنى ، وكذا رأيت بخط أبي إسحاق الأجدابي ، وسمي هوارة لكلمة قالها في حكاية طويلة اختصارها أنه كان ساكناً بالحجاز فضلّت له إبل فتوجه في طلبها إلى أن بلغ إلى مصر ودخل إلى بلاد المغرب

طالباً لها فمر بجبال طرابلس فقال لغلامه : أين نحن من الأرض ؟ فقال له الغلام : بأرض إفريقية ، فقال : لقد تهورنا ، والتهور الخمق ، فسمي هوار لذلك ، وحالف بإفريقية قوماً من زناتة فرأى عندهم العرجاء أم صنهاج ولمط بني لمط الأكبر وقد كان زوجها لمط توفّي عنها وكانت جميلة فتزوجها هوار فكثر نسله منها واتسع ، فهم الهواريون ومجريس فخذ منهم ، سموا باسم أمهم ، وكانت لأبيهم وخيع زوج أخرى تسمى تاسا ينسب إليها التاسيون فبنو مجريس وبنو تاسا بنو أب واحد .

وكانت لمجريس قبل هذا قوّة واشتداد بقربتهم هذه وامتناع من العرب . لم يكن أحد من العرب ولا غيرهم يدخل غابتها ولا يتجاوز شجرة واحدة
[٢١٧] منها إلاّ بإذن منهم ، وكان بها إذ ذاك أجناد / مرسومون في ديوان العطاء كلهم من أهلها قد عُدُّوا هنالك جنداً لمن يلي طرابلس ، ورسم لهم عطاء يقبضونه من خراج طرابلس فكانوا يذيقون الأعراب شرّاً ، ويكفون منهم فساداً كثيراً وضرّاً . ولم تزل العرب حاقدة عليهم إلى أن ضعف الأمر وتمكن مرغم بن صابر من الدولة وطلب من الملك أخذ هذه القرية بظهير فأعطيها وذلك في أول سنة ست وسبعين وستمائة ، فأخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري قال : لمّا وصل مرغم بن صابر إلى طرابلس أراني الظهير وسألني هل هو صحيح فقلت له : إنّه صحيح ، وهو بالعلامة الجارية . قال : فحينئذ أيقن بتملكها ولم يكن يصدق بذلك ، ولا خطر له قط أن يجوزها سالك ، فأحرى أن يحوزها مالك ، ثم أخذ في إضعافهم ، والسعي في إتلافهم ، إلى أن كاد يفنيهم ، وفي وقتنا هذا متفرقون إلى جماعات كثيرة وأظهر فرقهم فرقة تعرف بالقياد وأمرهم راجع إلى رجل اسمه جابر بن مالك وهو قائد الرئاسة فيهم ، وتُناظر هذه الفرقة فرقة

أخرى تعرف ببني سلام وبني حسين تجمع الفرقتين ، ولا تزال الحرب قائمة بينهما ، وينضاف إليهما باقي الفرق كالخطابيين وبني مزيلة والإبراهيميين وبني رزق وبني مدنين وغيرهم في حال الحرب والسلم بالحلف والمعاقدة ، وجميعهم منقسمون بين المراغمة من الجواري على رتبهم لكل واحد منهم جماعة يحبيها ويحميها ، وربما تبايعوهم فيشترى أحدهم ونساؤه وولده للجباية
[٢١٨] بما يتراضى مع صاحبه عليه ويجعل أداء في كل عام / على حسب شجره وسعة أرضه ، وليس أهلها مُلاّكاً في الحقيقة لشيء منها وإنّما هم أُجراء للعرب ناصحون ، واسم الملكية لهم هو النصح في الخدمة .

وبظاهر زنزور كانت الوقيعة بين جعفر بن حبيب قائد باديس بن المنصور ويانس الصقلبي الواصل من مصر وكانت منزلة جعفر بن حبيب بغربيها ومنزلة يانس بشرقيها فالتقيا فكانت الهزيمة على يانس وقُتل هو وأكثر جنوده وحُملت رؤوسهم إلى جعفر وذلك في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وقد قدمنا الخبر عن هذه الوقيعة مستوفى قبل هذا .

ومن أهل زنزور صاحبنا الفقيه أبو يحيى ابن أبي بكر ابن برنيق الهواري المجريسي انتقل من زنزور إلى طرابلس فاستوطنها . وله مشاركة في علوم منها أصول الدين على طريقة القدماء قرأها على الفقيه أبي محمد ابن أبي الدنيا ، ومنها الفقه وغير ذلك ، لقيته بزنزور ثم لازمني بعدُ بطرابلس ؛ وهو شيخ كبير السن حفظة ممتع الحديث ذو دين متين ، ويُذكر أنّه كان في صغره آية في الجمال وحسن الصورة وافتضح في محبته بعض الكبراء من أهل طرابلس فأدركه خبل في عقله فكان مولعاً بتكرار اسمه لا يجيب من كلمه إلاّ بذلك ،
[٢١٩] وأخبرني بعض أهل طرابلس أن هذا المفتضح المخبل العقل كتب / يوماً في جدار من جدران طرابلس : أيلام من يحب أبا بكر ؟ فقرأه بعض الظرفاء

فكتب تحته : إن كان أبا بكر الصديق ، فأنت مؤمن على التحقيق ، وإن كان أبا بكر ابن برنيق ، فأنت فاسق زنديق .

وزرت بخارج الغابة من هذه القرية قبر الشيخ أبي محمد عبد الجليل الحكيمي وهو على ساحل البحر ببيت يجاور مسجده الذي كان انفرد فيه بنفسه ، وتخلى عن أبناء جنسه ، وهذا المسجد من المحارس القديمة البناء المفرطة الحصانة وإنّما أضيف إليه لسكناه به ، وبنائه إلى جانبه ، وأصله من العرب الحكيميين وأهل هذه الجهة يعظمونه كثيراً ، وأخبرني جماعة منهم أنّه مات وقد نيّف عمره على المائة والعشرين ، وكانت وفاته يوم الأحد الثالث لشهر ربيع الأول المبارك من عام خمسة وثمانين وستمائة ، رأيت هذا مكتوباً على قبره .

وعلى مسافة يسيرة من مسجده هذا من جهة غربيه على الساحل أيضاً مسجد يعرف بسيقاطة — بكسر السين المهملة وبالقاف — ابتناه الفقيه الصالح أبو الحسن السيقاطي ، رحمه الله ، وبه كان يتعبد . وهنالك قبره زرته ودعوت عنده ، وكانت وفاته قديماً سنة عشرين وأربعمائة ، وخرج جميع أهل طرابلس ومن حف بها من النواحي والبلاد فصلّوا عليه وكان له يوم مشهود . وتوفيت لمخدومنا في أثناء إقامتنا بزنزور ابنة صغيرة فدفنت بخارج مسجد سيقاطة هذا .

[٢٢٠] وعلى هذا الساحل بطوله مساجد كثيرة ، وهي مساكن للصالحين قديماً وحديثاً شهيرة ، والناس يزورونها ويتبركون بها وإنّها لمن أحسن المساكن لمن يريد الانفراد لعبادة ربّه . والساكن بها يجمع بين الاحتراس ، ومجانبة الناس ، وأكثرها من مباني ابن الأغلب مبتني المحارس من الإسكندرية إلى مجاز سبتة . وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك قبل هذا .

وفي أوائل شهر جمادى وصل إلى زنزور غلبون بن مرزوق السالمي وهو أمير آل سالم بن رافع بن دباب ، وهم أمم لا يحصون فيما بين طرابلس وبرقة ؛ فتحدث مخدومنا معه في السفر صحبته فلم يوافق عليه لخروج أكثر جماعته من يده وقوّة طمع آل سالم وخيانتهم ، ولم يجعل إلى التشريق في ذلك العام سبيلاً بل قال إنّه لا يتصور بحال ، وجعله من أعظم ممتنع وأكبر محال . وكانت أيضاً الإشاعات قبل هذا تنادي إلينا بوصول ركب الغرب صحبة الارسال المشارقة فلم نكن نتوقع إياساً من تهيؤ السفر في ذلك العام إلى هذا الحين ، فلمّا سد غلبون باب الطريق ، ومنع بالجملة من التشريق ، ولم نتحقّق للمغاربة قدوماً ، بل عاد موجود تلك الإشاعات كلّها معدوماً ، وإنّما تأخروا بسبب موت السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني الذي توجهوا
[٢٢١] بالهدية إليه ، / اقتضى النظر الدخول إلى طرابلس والتوطن على السكنى بها إلى أن يكون الحج في عام ثمانية وسبعمائة ، فكان دخولنا إليها يوم السبت التاسع عشر لجمادى الأخرى ، وكانت مدة الإقامة بزنزور شهرين اثنين وعشرين يوماً .

[٢٣٧] ولمّا توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء . وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء ، وتخلى والي البلد إذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها . ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة ، غير أن الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاة أكثرها فما حوها من الدور التي تكتنفها الآن إنّما استُخرجت منها ، ولها رحبتان متسعتان ، وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد وذلك قبل تملك الموحدين

لها ، فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم .

[٢٣٧] وكان فيما يقابل هذه القصبة موضع يعرف بالرياض مخصوص بوالي البلد ، وأصله من مباني بني مطروح رؤساء طرابلس في القديم ويذكر عن حسنه — كان — وثماره وضخامة مبانيه ، وهو الآن خرب غير أن به آثاراً دالّة على ما يذكر عنه ، وقد أقطع هذا الموضع في هذا الوقت لبعض العرب فغيّره عن حاله وابتنى في موضعه داراً .

[٢٣٨] ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة / إلاّ أنه قد بلغ من الحسن غايته . وتجاوز من الظرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها . وهو الآن محبس على بعض المساجد ، وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنّهما في الحسن دونه ، ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة . وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية فالماشي يمشي بها مشيَ الرخ خلالها ، ورأيت بسورها من الاعتناء ، واحتفال البناء ، ما لم أره لمدينة سواها ، وسبب ذلك أن لأهلها حظّاً من مجاباة ، يصرفونه في رم سورها ، وما تحتاج إليه من مهم أمورها ، فهم لا يزالون أبداً يجددون البناء فيه ، ويتداركون تلاشيه بتلافيه ، ورأيتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع يرومون أن يصلوه بالبحر من كلا جانبي البلد ، وابتداء حفره من الركن الذي بين القبلة والمشرق ، وعارضهم في حفره هنالك موضع يعرفونه بـ « الرملة » وهو حقف رمل متسع لاصق إلى جانب السور ولا يزالون أبداً يتكلفون نقله من ذلك الموضع ، فإذا جهدوا جهدهم في حمله ورميه في البحر أعادته الريح كما كان لا تقدمه عن موضعه ولا تؤخره . واختصاص ذلك الموضع لذلك الكثيب من الرمل من أعجب الأشياء ، وهو على الضدّ من موضع

رأيته بظاهر توزر خال من الرمل مع أن ما حوله من البقاع قد ارتفعت
[٢٤٠] كثائبها لما تسفي الرياح من الرمال عليها ، وأخبرني أبو العباس / أحمد بن
محمد بن يملول أن ذلك الموضع أيضاً من عجائب بلدهم وأنهم لا يزالون
يرصدونه فلم يروا قط رملاً عليه وأن الرياح ربما اشتد هبوبها فيرون الرمال
تتفرّق عنه يميناً وشمالاً .

وكان افتتاح طرابلس في القديم على يد عمرو بن العاص ، رحمه الله تعالى
ورضي عنه ، بعد افتتاحه لمصر والإسكندرية وذلك سنة اثنتين وعشرين ، سار
إليها في جيشه فنزل على شرفها من الجهة الشرقية وأقام عليها شهراً لا يقدر
منهم على شيء ، وقد كانوا استعانوا بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة دخلوا
معهم في دين النصرانية . فخرج ذات يوم من عسكر عمرو رجل من بني مدلج
يتصيد في نفر معه ، فأمعن عن العسكر إلى جهة غربي المدينة ومال إلى شاطىء
البحر ، والبحر لاصق بالمدينة وليس بالمدينة إذ ذاك من جهة البحر سور بل
كانت سفنهم شارعة إلى بيوتهم ، فنظر المدلجي وأصحابه إلى البحر قد حسر
من جهة المدينة عن مسلك يمكن النفوذ إليها منه ، فندبوا معهم جماعة واقتحموا
المدينة فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو أصحابه في جوف
المدينة فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم يفلت من الروم سوى من خف في
سفينة ، واحتوى عمرو على المدينة فهدم سورها ، وارتحل عنها ، ثم جدد
بناء سورها من جهة البر على يد عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية في
آخر دولة بني أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وتأخّر بناؤه من جهة البحر إلى
[٢٤١] ولاية هرثمة بن أعين على إفريقية من قبل الرشيد سنة ثمانين ومائة فهو الذي/ابتناه
على يد ثقته زكرياء بن قادم ، ثمّ زاد في إتقانه ورفع بنائه من جهة البر والبحر
معاً أبو الفتح زيان الصقلبي متولي طرابلس عام خمسة وأربعين وثلاثمائة .

ويحيط بهذا السور الآن فصيل آخر أقصر منه على العادة في ذلك يسمونه
الستارة ولم يكن في القديم وإنما أمر ببنيانه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي
حفص أيام وصوله إلى طرابلس في شهر شعبان من سنة أربع عشرة وستمائة ،
رأيت هذا مكتوباً على باب من أبواب الستارة يعرف بباب عبد الله ، ولم
يصلوا هذه الستارة حين بنوها بالبحر وإنما انتهوا بها إلى الباب الأخضر وبينه
وبين البحر فسحة فأتمت بالبناء أيام مقامنا بطرابلس .

وقد كان زيادة الله بن الأغلب لما تغلب الشيعي على أكثر بلاد إفريقية
هرب من رقادة فارّاً أمامه فتوجه إلى طرابلس فأقام بها أياماً ثم انفصل عنها
متوجهاً إلى المشرق ووصل بعد ذلك الشيعي إلى رقادة فولّى عليها أخاه أبا
العباس وتمام بن المبارك ثم انفصل إلى سجلماسة واستخرج عبيد الله المهدي
من سجنه ودعا له بالخلافة وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين . فلمّا استقامت
الأمور للمهدي وقتل أبا عبد الله الشيعي وأبا العباس أخاه جهز جيشاً إلى
طرابلس مع بعض قواده فحاصرها مدة ثم انصرف عنها خائباً ولم يفتتحها
فغاظ ذلك عبيد الله فوجّه ولده أبا القاسم الملقّب بعدُ بالقائم فكان خروجه
[٢٤١] لذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وثلاثمائة ، فحاصرها وضيّق / عليهم إلى
أن فني طعامهم وافتتحها ، وقد كانوا أسمعوه شرّاً ونالوا من عرضه كثيراً
فسالمهم في أنفسهم إلاّ قليلاً منهم وأغرمهم ما أنفق على الجيش وذلك
أربعمائة ألف دينار ، وكان المتولي لتغريمهم وتعذيبهم خليل بن إسحاق وهو
من أبناء جندها وممّن ولد بها وكانت له صولة وهيبة وحظ جليل من
العلم وباع متسع في الأدب وسيأتي خبر وفاته بعد هذا . واستخلف عليهم
أبو القاسم القائم والياً من قبله ثم انصرف عنهم .

ولمّا انفصل العبيديون إلى مصر وتركوا الصنهاجيين بإفريقية استولى بنو

خزرون الزناتيون على طرابلس ، وكانت بينهم وبين الصنهاجيين وقائع كثيرة أشار الرقيق في تاريخه إلى بعضها ، ولم تزل بأيدي الزناتيين إلى سنة أربعين وخمسمائة ، وكانت في تلك السنة شدة عظيمة ومجاعة هلكت فيها الناس وفروا عن أوطانهم ، فجهز إليها « بلجار » صاحب صقلية أسطولاً حاصرها به وذلك بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولاته فيهما ، ووقع بين أهل طرابلس خلاف أدى إلى تغلب الأسطول المذكور عليها فأحسن قائده جرجي بن ميخائيل إلى أهلها لما أضمره من تملك غيرها من البلاد الساحلية ، وأبقى فيها جنده من المسلمين والصقليين وغيرهم .

وولى على البلد شيخه أبا يحيى ابن مطروح التميمي ، وجعل قاضيهم رجلاً
[٢٤٢] منهم يعرف بأبي الحجاج يوسف بن زيري وهو صاحب / التأليف المعروف بـ « الكافي في الوثائق » فكانت أحكام المسلمين كلّها مصروفة إلى واليهم وقاضيهم ولم يكن النصراني يتعرض لشيء من أحكامهم .

وأقامت تحت تغلب النصارى اثني عشر عاماً أو نحوها إلى أن افتتح الموحدون أكثر بلاد إفريقية ، فخاف النصارى أن يكاتبهم أهل طرابلس فأجبوا أن ينشروا بينهم عداوة فأمروهم أن يصعدوا المنابر فيتكلموا في جهة الموحدين بسوء . فأعظم أهل طرابلس ذلك واجتمعوا إلى قاضيهم أبي الحجاج فسفر بينهم وبين النصارى وأعلم النصراني عنهم أنّه لا سبيل إلى نيل ذلك منهم ، وأن الأمر إنما كان العقد بينهم أن لا يكلفوا المسلمين بشيء ممّا يخالف دينهم وذكر أهل الدين بسوء ممّا يخالف الدين فإن رضوا منهم بهذا وإلاّ سلموا لهم البلد وخرجوا عنهم فأعفاهم النصراني من ذلك . وأحدث الله عند أهل طرابلس عزماً على القيام عليهم والتخلص من أيديهم فأسرّوا النجوى بذلك بينهم واتعدوا لليلة معينة ونصبوا تلك الليلة في الطرقات خشباً

وأناشيط تمنع الخيل من الجري فيها وثاروا عليهم ، فبادر النصارى إلى خيولهم وركضوها فلم تجد مجالاً فأخذوا قبضاً باليد وعاد البلد إلى تملك المسلمين . وكان هذا في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وحكم على البلد شيخه أبو يحيى ابن مطروح وكان رجلاً شهماً حازماً وصانع العرب المجاورين له فاستقام حاله .

[٢٤٣] ولمّا نزل الخليفة عبد المؤمن إلى إفريقية افتتح المهدية ووصلت / إليه وفود البلاد وذلك في سنة خمس وخمسين ، فكان من جملتهم وفد طرابلس وشيخه ابن مطروح فبايعوا عبد المؤمن ، وقدمه عبد المؤمن على أهل بلده فلم يزل محمود السيرة فيهم إلى أن عجز في أيام أبي يعقوب ابن عبد المؤمن وقيده الهرم ، فطلب التوجه إلى الحج فسرحه السيد أبو زيد ابن السيد أبي حفص وهو إذ ذاك صاحب تونس ، فتوجه بجميع أهله في البحر واستقر بالإسكندرية فمات بها وبقيت ذريته هنالك إلى الآن ومنهم رؤساء وأدباء .

وفي فصل من مياومة الفاضل البيساني قال : وفي شهر رجب — يعني من سنة ست وثمانين وخمسمائة — وصل إلى الإسكندرية في البحر شيخ طرابلس أبو يحيى ابن مطروح وهو شيخ كبير قد أضرّ وعجز عن الحركة . وذكر باقي خبره . وأهل طرابلس يتحدثون أن النصارى ملكوا بلدهم مرّة أخرى وذلك ليس بصحيح وإنما أخذها النصارى من حين الفتح الإسلامي هذه الأخذة فحسب .

وقد قدمنا فيما سلف من كتابنا هذا الخبر عن وصول قراقوش من المشرق في سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وأنّه حصر طرابلس بمن التف عليه من العربان حتى استولى عليها ، وكانت إذ ذاك خالية من الأقوات والأجناد لأنهم بعد بيعتهم لعبد المؤمن واستقرار بلدهم في ملك الموحدين لم يتوقعوا

ثائراً ولا مخالفاً ، فملكها قراقوش وبقيت تحت بيعته سنين يسيرة ثم انتقضت
[٢٤٤] عليه هي وغيرها من / البلاد فأظهر الهجرة إلى الموحدين مخادعاً وأقام لديهم مدّة ثم فرّ عنهم مبادراً إلى قابس ، فاستولى عليها ثم إلى طرابلس فملكها أيضاً وأقام بها حتى وصل إليها يحيى الميورقي من بلاد الجريد قاصداً حصاره ، فخرج إليه قراقوش من طرابلس وترك نائباً عنه بها ثقته ياقوتاً المعروف بالافتخار ، وكان اللقاء بينهما بالموضع المعروف بمحسن من جهات طرابلس وهو الذي يقول فيه عبد البر بن فرسان :

ألا لا يسقِ الرحمنُ محسنَ قطرة ولا زال مغبرّ الجوانب محسنُ
وخيّب قطيساً من الغيث كلّه ولا ابتلّ فيهِ للرّكائب فرسنُ

فانكسر قراقوش كسرة شنيعة وتوغل في جبال طرابلس ، وتبعه الميورقي أياماً ، ثم رجع إلى طرابلس فحصر بها ياقوتاً المذكور فلم يقصر في دفاعه وضبط البلد ضبطاً عظيماً ، فكتب الميورقي إلى أخيه عبد الله وهو إذ ذاك صاحب ميورقة يطلب منه الإعانة ببعض أسطوله فوجّه إليه قطعتين ضيق بهما على طرابلس تضييقاً شديداً إلى أن استولى عليها ، فامتن على أهلها بالعفو ، وحصل نائب قراقوش في يده فوجهه إلى ميورقة في القطع التي وصلت إليه منها ، ولمّا حصل بها قيده عبد الله بقيد ثقيل وتركه في سجنها فلم يخرج منه إلاّ
[٢٤٥] بعد استيلاء الموحدين على ميورقة وقتلهم لعبد الله المذكور وذلك / في سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فحينئذ خرج ياقوت وتوجه إلى مراكش فبقي بها إلى أن مات ، وترك يحيى بن إسحاق ابن عمّه تاشفين بن غازي نائباً عنه بطرابلس وخرج منها فأقام بها تاشفين المذكور مدة ثم ثار عليه أهلها وأخرجوه منها ودخلوا تحت طاعة الموحدين فتولت عليهم حفاظها إلى الآن .

ويقابل باب الستارة المتقدم الذكر المعروف بباب عبد الله من السور

القديم باب يعرف بباب هوارة نسبة إلى من نزل به في أول الزمان ، وبين يديه من داخل المدينة بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم . وهنالك مسجد ينسب بناؤه إلى عمرو بن العاص رحمه الله ، وفي هذا الموضع يقول أبو يحيى ابن مطروح الذي قدمنا الخبر عن توجّهه إلى الإسكندرية :

لوقفةٌ عندَ بابِ البحرِ ضاحيةً أو باب هوّارة أو موقف الغنمِ
أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج وشاطي بركة الخدمِ

وبين الباب المعروف بالباب الأخضر منها وباب البحر المسجد مصاقب لسور المدينة أشاد بذكره حلول الإمام المهدي ، رحمه الله تعالى ، به حين جوازه على طرابلس ، وإلى جانبه ميضأة جعلت هنالك للمتوضئين
[٢٤٦] والمغتسلين . والمواضع الخربة من المدينة والخالية / إنما هي بين يدي الباب الأخضر ، وبخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة ، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في أواريها .

ومصلى البلد بجانبه بين جنوب وشرق منه وهو محدث الوضع هنالك وإنما كان المصلى القديم في الجهة الغربية هنالك بناه عبد الله بن أبي مسلم وخليل بن إسحاق سنة ثلاثمائة فنقل كما تقدم ، وموضع المصلى القديم يعرف الآن بالعيون ، سمي بذلك لأن هنالك عيون ماء عذبة ، وهو بشاطىء البحر وماؤها ينصرف إليه ، وبمقربة من هذا المصلى الآن بئر قد نبتت بها شجرة واحدة من شجر الجميز المخصوص نباته بأرض المشرق ، وهو شجر عظام على شكل التين وورقه أصغر من ورق التين وحمله كحمل التين إلاّ أنّه ليس للواحدة منه علاقة وإنّما تنبت ملاصقة للعود وفي طعمه حلاوة شديدة تصحبه غثاثة ؛

وأهل طرابلس يقولون إن بلدهم في حكم بلاد المشرق لنبات هذه الشجرة الواحدة به ، وليس بخارج البلد في وقتنا هذا شجرة سواها ما عدا نخلات يسيرة في الجهة الغربية ، وأمّا داخل البلد فلا تكاد دار منه تخلو من نخلة أو كرمة على اصطلاحهم فإنّهم يسمون شجرة التين الكرمة ، والكرمة في اللغة إنّما هي شجرة العنب ، وقد جاء النهي عن تسميتها بذلك في الحديث الصحيح . وينبت / بخارج البلد صنف من أصناف النرجس دقيق الورق لم أرَ [٢٤٧] أقوى منه فوحاً ، ولا أعطر روحاً ، ويذكر في التاريخ أن غابة طرابلس كانت متصلة إلى الجبل بأنواع الفواكه على اختلافها ، وتعدد أصنافها ، فأفسدتها العرب وأجلت أهلها عنها .

وبخارج البلد محارس قديمة ومساجد كثيرة مشهورة بالفضل مزورة للبركة ، وأثنى البكري على المسجد المعروف منها بمسجد الشعاب وذكر أنه أعمرها وأشهرها ، يريد في ذلك الزمان ، وأمّا الآن فهو خال لا عمارة به ، وقد رأينا أن نذكر بناء هذا المسجد الذي أشار إليه البكري وبعض ما تأدى إلينا من خبره ومثل ذلك في غيره من المساجد التي بخارج البلد تتميماً لفوائد هذا التقييد بحول الله تعالى : فمنها مسجد الشعاب المذكور وهو منسوب لأبي محمد عبد الله الشعاب أحد الصلحاء الفضلاء من أهل طرابلس وكان نجاراً ونسب المسجد المذكور إليه لأنّه هو الذي أتم بناءه ولزم السكنى به ، وكان بعض الناس قبله قد ابتدأ بناءه ثم وقف عنه فحضرت الشعاب نية في إتمامه فرمى الآلة من يده وتوجّه إلى قاضي طرابلس فقال له : إنّي قد عزمت على بناء ذلك المسجد وأحب أن تستدعي فلاناً الذي ابتدأ بناءه فتستفهمه هل يتمادى على بنائه أو يرفع يده عنه فأتمه وأسكن به ، فاستحضره القاضي وسأله عن [٢٤٨] ذلك فأقر بعجزه ، فتولى الشعاب بناءه وسكن به . ويذكر أن الخضر

عليه السلام كان يزور الشعاب هذا ويحادثه وأنّهما رُئيا مجتمعين في المسجد المذكور ، وسمع الشعاب يوماً بكاء امرأة عند باب مسجده ، فسألها عن سبب بكائها فأخبرته أن لها ولداً أسره عدوّ الدين ، وسألته الدعاء بخلاصه فدعا له وأمّنت المرأة على دعائه ، ثم انصرفت المرأة إلى بيتها فأصبح ولدها في السكك يسأل عن دار أمه ، فسئل فأخبر بفراره في البحر وسلامته ووصوله عن عهد قريب ، فتوجهت المرأة إلى الشيخ تشكره وتعرفه بوصول ولدها وأن ذلك إنّما كان ببركة دعائه ، فهنأها بسلامته وقال لها : إنما نجاه الله بدعائك لمّا علم اضطرارك . وكانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

ومنها مسجد خطاب وهو بخارج المدينة من جهة شرقيها على البحر ، وينسب للشيخ خطاب البرقي الرجل الصالح ويكنى أبا نزار ، وكان ذا كرامات وخصوصاً في باب المرائي ، ظهرت له في ذلك عجائب ، وكان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل كونه . وحكى عنه أبو عبد الله الخياري قال : قال لي خرجت مرّة إلى الحج منفرداً فبينما أنا في البرية إذ مرّ بي رجل فتوسمت فيه الخير ووقع في قلبي أنه الخضر ، فبادرته بالسلام ، وأقسمت عليه بالله تعالى أأنت الخضر ، فقال : لقد بقيتْ فيكم من الخير بقية ، لم يزدني على هذا وغاب عني . وأخبرني الخياري عنه أيضاً قال : قال لي بينما أنا سائر في [٢٤٩] البرية إذا بسبع قد عارضني فقلت له : يا أبا الحارث إن كنت قد / أمرت فينا بشيء فدونك وإلا فالطريق ، قال : فقرب مني ووقف هنيهة ثم انصرف . وحكي أنه قال : بينما أنا في البرية إذ رأيت شخصاً فاستغربت وجوده هناك وقصدته فوجدته مفرج بن بياضة ، فقلت له : أبا عبد السلام ههنا ! فقال : نعم يا أبا نزار ، فاستغربت معرفته بي مع أنّه مكفوف البصر ، وكان مفرج

هذا رجلاً صالحاً من أهل جزيرة تونس المعروفة بجزيرة باشو ، وكان يخرج وحده من بلده إلى مكة فيحج ثم يعود ، قال : فبتنا جميعاً وتأنّست به وسألته كيف يتهيّأ له الحج مفرداً فقال : يا أبا نزار إنّي إذا خرجت من موضعي أسمع قائلاً يقول لي : يمينك شمالك أمامك خلفك حتى أصل إلى مكّة ، أو كما قال .

ومنها المسجد المعروف بالجلود ويعرف أيضاً بمسجد الجدة لأن إحدى جدات بني الأغلب ولاة إفريقية بنته وهكذا كان يعرف في القديم ، ثم يعرف بعد بمسجد البارزي لسكنى أبي الحسن البارزي به وهو بخارج طرابلس من جهة جوفيها مشرف على المقابر ، واشتهر هذا المسجد بسكنى أبي عثمان سعيد ابن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب وأصله من قرية حسان من قرى طرابلس ، كان زاهداً فاضلاً منقطعاً إلى الله سبحانه وظهرت بركته غاية فعرف بالمستجاب ، واتفقت له في المسجد المذكور قضية مشهورة : كان ذات يوم جالساً فيه على عادته فسمع تحته دويّاً عظيماً اهتز المسجد له فخرج بعض من
[٢٥٠] كان معه لاختبار ذلك فوجد شخصاً يقطع الحجارة من كهف تحت المسجد فنهاه عن ذلك فلم ينته فرجع إلى الشيخ فأخبره فنزل الشيخ إليه وقال له : اتق الله فإنّك تزلزل المسجد بهذا الذي تصنع ، فقال : ارجع أيها الشيخ إلى مسجدك فإن الوالي أمرني بهذا ، فقال له : لو أمرك الوالي بهدم المسجد كنت تهدمه ؟ قال : نعم والله لو أمرني بذلك لفعلت ، فرجع الشيخ إلى مسجده وهو يقول : اللهم احصد عمره ، فعند استقرار الشيخ في المسجد سقط جزء من ذلك الكهف على الرجل فقتله .

وقال الشيخ أبو عبد الله الحشاب القاضي رحمه الله تعالى : خرجت مع أبي الحسين ابن المنمر من طرابلس لزيارة الفقيه أبي محمد ابن أبي زيد رحمه الله

تعالى وسماع العلم عنه ، فبينما نحن عنده يوماً إذ تحدث أبو الحسن فقال : أراد الشيخ أبو عثمان الحساني مرّة الحج فاتفق مع جماعة من إخوانه أهل الدين والفضل وكنت معهم ، فخرجنا على الوحدة وقطعنا صدراً من الطريق وأقمنا ثلاثاً لم نطعم ، فأتى الشيخ أبو عثمان إلى ربوة فمسح وجهها بيده وجعل يأخذ من ترابها ويجعله في إناء كان معه ثم ثراه بشيء من ماء وقرأ عليه وسمى وقال لنا : سموا الله وكلوا ، قال : فجعلنا نأكل ونطعم طعم السويق ، قال : فأطرق الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا داخل
[٢٥١] في الإمكان لا سيما وقد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثة أيام لم / تطعموا ، وقرأ قوله سبحانه : ﴿ أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ﴾ .

ولمّا رجع المؤدب محرز بن خلف رحمه الله تعالى من الحج قيل له : من رأيت في طريقك من الصلحاء ؟ قال : رأيت بطرابلس رجلاً وامرأة ، أما الرجل فأبو عثمان الحساني وأما المرأة فسمدونة ، وكانت سمدونة هذه عجوزاً صالحة تسكن مسجد الشعاب المتقدم الذكر ، وكان أبو نزار خطاب الرجل الصالح المتقدم الذكر يزورها ويعتقد بركتها ، وهذا كما يحكى أن سحنون بن سعيد لمّا رجع من الحج قيل له : من رأيت من الصالحين ؟ فقال : لقد لقيت رجالاً ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم .

ومنها المسجد المعروف بمسجد المجاز وكان معروفاً بسكنى أبي الحسن علي بن أحمد بن الخصيب أقام ساكناً به فيما يقال أربعين سنة ، وكان فقيهاً صالحاً عالماً زاهداً وله في الفقه والفرائض والشروط تواليف مفيدة ، وأقام أربعين سنة لم يضحك ونحواً من خمسين سنة لم يحلف بالله يميناً ، وقال له ابن أخيه عندما أملى وصيته : أنسيت الكفّارة ؟ فقال : لولا أنّي في الموت ما أخبرتك ، ما حلفت بالله منذ كذا وكذا يميناً محقّاً ولا مبطلاً ، وما علمت

أن علي يميناً أكفّرها . وهذا آخر ما حضرنا ذكره من المساجد التي وقعت الإشارة إليها .

[٢٥٢] وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المنتصرية التي / كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات ابن أبي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين ، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً . ونقلت من خط أبي الحسن علي ابن موسى بن سعيد في بعض تقاييده قال : حللت في بعض سفراتي بطرابلس فبكرت يوماً إلى المدرسة التي أنشأتها بها الهمّة العلية الإمامية المنتصرية ، فدخلت إليها ، وقعدت مسرّحاً طرفي في روضة حبق حبست حاستَي البصر والشم عليها ، ثم قلت :

يا حبّذا نسمةٌ هبّت لناشقِها ... غبّ الكرى سَحَراً من روضة الحبقِ
حسبتُها عندما هبّت وقد نعشَتْ ... ببلّة من نداها روح منتشقِ
قرنفل الهند قد وافى التُّجارُ به ... محافظين على نشر له عبقِ
فعندما فضّه الداويّ ذكّرني ... بطيبه طيب عيش مرّ لي أنقِ
بتونس أنَس الرحمن ساحتها ... وسُقّيتَ أبداً بالعارض الغدقِ
ولا أموتُ إلى أن ألتقي قمراً ... للحُسنِ مطلعُه من ذلكَ الأفُقِ

وبين هذه المدرسة وباب البحر مبنى من المباني القديمة العجيبة وهو شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسب الأعالي والنحوت التي لا تستطيع المائة نقل [٢٥٣] القطعة الواحدة منها ، قامت مربعة فلمّا / وصلت إلى السقف ثمنت على إحكام بديع ، وإتقان عجيب صنيع ، وهي مصورة بأنواع التصاوير العجيبة نقشاً في الحجر ، وقد بني الآن عليها مسجد يصلى فيه ، وأُخبرت أن ذلك كان لأن بعض الكبراء حاول هدمها وأخذ رخامها ، وعلى بعض قطعها من الجهة

الشمالية أسطر مكتوبة بخط رومي ، أخبرني أبو البركات ابن الفقيه أبي محمد ابن أبي الدنيا عن والده الفقيه أبي محمد أنّه لم يزل معتنياً بالبحث عمن يحسن ترجمتها وأنه وجد نصرانياً يعرف ذلك الخط فذكر له أن نصّه : أمر ببناء هذه الكنيسة فلان بن فلان من حلال ماله الذي اكتسبه من غلة زيتونه وفي يوم إتمامه لبنائها أو يوم شروعه في بنائها وصل إليه الخبر من الشام أن نبياً من العرب ظهر بالحجاز اسمه محمد بن عبد الله .

وبين القصبة وهذه المدرسة المتقدمة جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بنو عبيد ، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة وسقفه حديث التجديد ، وبه منار متسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة مستديراً فلما تم نصفه كذلك سدس ، وكان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن إسحاق ، وقتل خليلَ بن إسحاق هذا أبو يزيد مخلد بن كيداد لما تملك القيروان سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وأصله من طرابلس كما تقدم وقد ذكرنا طرفاً من أخباره قبل هذا ، ولما قتله أمر بصلبه فبادر إليه بعض القرويين فجرد ثياب نفسه [٢٥٤] وشرع / في ذلك ، فنظر أصحاب أبي يزيد إلى آثار السياط قد عمّت ظهر القروي ، فسألوا عن ذلك فذكر لهم بعض من حضر أن كل عامل يتولى يفعل ذلك به لدناءته وشرّه ، فاعتوروه برماحهم وصلبوه إلى جانب خليل ابن إسحاق .

وأخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي قال : نقلت من خط القاضي أبي موسى ابن معمر أن شكراً المعروف بالصقلبي ابتنى الماجل الذي بجامع طرابلس من الجهة الجوفية والقبة التي عليه في سنة تسع وستين ومائتين ، وأن خليل بن إسحاق ابتنى المنار الذي به كما ذكرنا ، ومساجد البلد لا تحصى كثرة وهي تكاد تناهز الدور عدة .

والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عبد العزيز بن عبيد ، وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد ، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى ، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى ، حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة من
[٢٥٥] مسائله تشذ عنه ، حسن العبارة / مشاركاً في علوم جمة ، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام الإمام أبي المعالي ، وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي ، وهو سبإي النسبة من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وأخبرني أن مولده بطرابلس عام تسعة وثلاثين وستمائة ، وأكثر استفادته ، على ما أخبرني ، على الفقيه القاضي أبي موسى عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى ، وليس له رحلة عن بلده إلا إلى الحج ، حجّ في عام ثلاثة وسبعمائة .

ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هنالك ، وطلب مخدومنا أن يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا ، فعقدنا مجلساً لذلك بالقصبة وفي مجلس الأمير منها ، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم ، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنام ، الذي هو الأصل لجميع الأحكام ، فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرّة شهر شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه ، وتدقيق للبحث في ألفاظه الكريمة ومعانيه ، وقد كنت ابتدأت تقييد

[٢٥٦] ما أنتجته فيه بيننا المناظرة ، وأفادته المحاضرة ، مما جاء كالإكمال ، / لكتاب « الإكمال » ، ثمّ بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة أخرى من كتاب المسند الصحيح للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله ، وامتد في قراءتهما مدى ، قرىء فيه منهما ما هو نور وهدى ، إلى أن دعا بنا داعي البين ، فأعجلت النقلة عن تمام الكتابين .

وكتب لي شيخنا أبو فارس بخطه إجازة سمّى فيها من شيوخه الفقيه القاضي أبا موسى عمران بن موسى بن معمر المتقدم الذكر أنه ولي القضاء ببلدهم نيفاً وثلاثين سنة ، ووصله الأمر بالطلوع إلى تونس في عام ثمانية وخمسين فتوجه إليها وولي قضاءها ما ينيف على عشرين عاماً ، ثم توفّي بها رحمه الله سنة ستين ، قال : وكان رحمه الله ذا أخلاق جميلة ، وسيرة حميدة ومعارف جليلة ، وأخبر أنّه قرأ عليه كتاب « التفريع » لابن الجلاب ومن أول كتاب « التهذيب » إلى كتاب الخيار منه ، قال : وسافر إلى تونس فاستمرت قراءتي للكتاب المذكور مع سائر طلبة الفقيه أبي موسى على الفقيه أبي محمد عبد الوهاب بن محمد الهنزوتي ، وكان الهنزوتي حين كان القاضي أبو موسى حاضراً معيداً لدرسه بعد قيامه ، وقرأ على الهنزوتي أيضاً جملة من كتاب « المحصول » لابن العربي وجملة من كتاب « المستصفى » للغزالي ، وتوفّي الهنزوتي هذا عام ثلاثة وستين .

[٢٥٧] ومن شيوخه أيضاً الفقيه أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات ابن أبي الدنيا ، قال : قرأت عليه كتاب « الإرشاد » لأبي المعالي وبعض كتاب « البرهان » له وجملة من كتاب المستصفى . ومنهم الفقيه أبو الجيش محمد بن إبراهيم الأندلسي البسطي ، اجتاز على طرابلس قافلاً من الحج فقرأ عليه بعض تواليفه في العربية وسمع عليه شيئاً من نظمه وروى عنه « المذهبة »

لابن المناصف حدثه بها عن مؤلفها .

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري ، اجتاز على طرابلس من المغرب قاصداً إلى المشرق فطالت إقامته بطرابلس فقرأ عليه كتابه الذي ألفه في الفرائض وجل كتاب « الكافي » لابن المنمر في الفرائض أيضاً وجل كتاب « الخصار » في علم الحساب وكان ذلك في عام أربعة وخمسين .

ومنهم الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن عيسى الغماري ، وصل إلى طرابلس قاضياً بعد انفصال القاضي أبي موسى ابن معمر منها ، فقرأ عليه جملة من المعالم الفقهية لابن الخطيب ، وسمع ما كان يتناظر فيه بين يديه من التهذيب . ومنهم الفقيه أبو العباس الأعجمي ورد من المشرق على مدينة طرابلس في سنة اثنتين وستين قاصداً إلى المغرب ، فقرأ عليه بعض المعالم الدينية لابن الخطيب . ومنهم الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي مسلم القابسي وصل إلى طرابلس قاضياً وله رحلة إلى العراق ودخل فيها بغداد ، [٢٥٨] قرأ عليه بلفظه أكثر من / نصف البخاري ، وهنا انتهى من سمّى شيخنا أبو فارس من شيوخه ، وبالجملة فقد كان زهد الشيخ كبيراً ، وذكره في المغرب والمشرق شهيراً .

وجميع الخواص من هذه البلدة مقهورون تحت أحكام العوام منهم لبعد بلدهم عن الحضرة وانقطاعهم عن الأوامر إلاّ أن في خواصهم وعوامهم إكراماً لمن يحل ببلدهم من الغرباء ووفاء بحقوقهم ومراعاة شديدة لأمورهم .

وقد أنشدني صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام التاجوري ، قال أنشدني الشيخ الفقيه البليغ أبو الحسن علي بن إبراهيم التجاني ، أيام حلوله بطرابلس على غير اختياره فأقام بها مدة ثم توجه منها إلى الحج وذلك سنة

أربع وثمانين ، وأنشدت بعد ذلك بتونس الفقيه أبا الحسن البيتين فأنشدنيهما لنفسه :

لأهلِ طرابلس عـــادة من البرّ تُنسي الغريب الحميما
حللتُ بها مُكْرهاً ثمّ إذ أقمتُ بها أبدلوا الهاء ميما

واعتماد كل واحد منهم في طعامه ، وما يدخره من قوت عامه ، إنما هو على ما يجلب إليها في البحر ، ومن عادتهم أن لا يتركوا أحداً يخرج شيئاً ممّا حصل ببلدهم من الطعام إلى خارجه ويعاقبون على إخراجه ، وليس البلد [٢٥٩] بلد احتراث وهو بالجملة بحري لا بري إلا أن / أرضهم معدومة المثال في إصابة الزرع إذا أصابت وليس يدرى مثلها في ذلك ، وأشهرها بذلك الفحص الذي يسمونه سُوفجّين — وهو بالسين المهملة المضمومة والفاء والجيم المشدّدة — قال البكري : وربما أنبتت الحبة في هذا الموضع في بعض السنين مائة سنبلة ، قال : وهم يقولون فحص سوفجّين ، يصيب سنة بعد سنين ؛ وذكر البكري متصلاً بهذا أن بمدينة طرابلس بئراً تعرف ببئر الكنود من شرب منها فقد عقله وأنهم يعيرون الشارب منها ، ومن أتى منهم بما يلام عليه قيل له : لا عتب عليك فقد شربت من بئر أبي الكنود ؛ انتهى كلام البكري . وهذه البئر قد رأيتها بداخل المدينة وعليها يوردون بهائمهم ، وكثير من أهل البلد يشرب من مائها ولا يتحرج من ذلك مع علمه بما يسند عنها .

وزرت بخارج المدينة بين شرق وشمال قبر الشيخ الصالح أبي محمد عبد الوهاب القيسي رحمه الله ، وهذا الرجل يعظمه أهل طرابلس كثيراً . حكى لي جماعة منهم : أنّه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلّم في منامه نحواً من أربعمائة ، وأنّه كان يشاور النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر أموره فلا يفعل ما يفعل إلا بإشارته ، قالوا : ولم يسمع منه هذا في حياته ولكنّه وجد بعد موته مكتوباً

عنده بتواريخه يذكر كل ليلة وما رأى منها ، ثم أوقفني بعد ذلك بعض
[٢٦٠] أهل البلد على جزء فيه هذه المنامات وذكر أنّه نقلها من خطّه ، فرأيت فيها غرائب من سؤاله للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، عمّا يفعله في جميع ما يعرض له من أموره وإشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك بما يراه ودوام ذلك واستمراره في كل جزئية من جزئيات حاله . قال : وقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلّم : إنّي آخيت بينك وبين أخيك أبي يعقوب ، يعني الخشاب ، وأبي علي ، يعني يونس بن السماط ، قال : فرأيته ليلة فقلت له : يا رسول الله ما رأيت فيما خطر لي ولأخي أبي يعقوب ، قال : وما ذاك ؟ قلت : نكتب ببعض ما يجري بيني وبينك ، يعني في النوم ، لأخينا أبي علي يونس ، قال : فقال لي : نعم أبو علي رجل صالح وذلك زيادة في حقّه فإنه يزداد معرفة فاكتب له ، ثم قال لي : ولكن لا تمازح غير أخيك أبي يعقوب . هكذا رأيت هذه اللفظة في النسخة التي نقلت منها ولا أدري هل هي بالخاء أو بالجيم ، قال : فرأيته بعد ذلك ليلة أخرى فقلت له : يا رسول الله قلت لي : لا تمازح أحداً غير أخيك أبي يعقوب ، ولم أفهم مقصودك بذلك ، فقال لي صلى الله عليه وسلم : ألم آذن لك أن تحدث بهذه المرائي أبا علي كما تقدم فكيف أقول لك أطلعه عليها ثم أقول لا تمازحه ، إنما مقصودي أنك لا تطلع على هذا المعنى — قال الشيخ : أي المرائي — غير أخيك أبي يعقوب وأبي علي خاصّة ، قال فقلت له : إن الأخ أبا يعقوب يخطر له السفر فما ترى في ذلك ؟ فقال لي النبيّ صلى الله
[٢٦١] عليه وسلم : ألم أقل لك — يعني في منام قبل / هذا — إن الإقامة أرفق بحاله؟ قال فقلت له : يا رسول الله وهو مخير في الذي عنده من السبب كما تعلم ، هل يخرج عنه أو يبقيه ؟ فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلّم : بل يبقيه على الأمانة فيعطي منه كل ذي حقّ حقه ، إلى أمثال هذا من المنامات وهي نحو

من أربعمائة منامة ، كلّها على هذا النحو وفيها تبسمه له مهما رآه بأنواع الدعاء وقوله له : مرحباً بالحبيب ومرحباً بالرجل المفلح واعلم يا بني أنّي أحبك وأحب أخاك أبا يعقوب وأنّي لأفرح بك ، وأمثال هذا . قال : وشكوت إليه ليلةً حالي ومخالفة فعلي لقولي فقال لي صلى الله عليه وسلّم : يا موفق من خُلق سعيداً أو سبقت له السعادة أتراه يشقى ؟ كرّر ذلك مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال لي : وإنّي لأرجو أنك وأخاك أبا يعقوب ممّن سبقت لهم السعادة .

وأبو يعقوب الخشاب هذا ممن استوطن في آخر عمره طرابلس ، وأصله من الأندلس . وقد كان في أول أمره ، على ما بلغني ، ثار في جبل الفتح وادّعى المملكة هناك ، ثمّ نقلته تصاريف الأيام إلى طرابلس فأقام بها متعبداً متزهداً ، وأتاه استدعاء من حضرة تونس فتوجّه إليها في البحر فاجتاز على جزيرة جربة فتوفّي بها رحمه الله تعالى ، وأمر بتعمية قبره فلا يوقف له بها الآن على قبر ، ويظهر لي أن ذلك والله أعلم لأنه اطلع على أن النصارى ستملك تلك الجزيرة بعد ، فكره إشهار قبره بين قوم كفار ، أو لأنّه مال على أحد القولين عندنا في تكفير أهلها بما شرحناه من مذهبهم الفاسد .

[٢٦٢] ولأبي محمد عبد الوهاب ، رحمه الله تعالى ، الآن ولد يدعى أبا الحسن ، وهو رجل فاضل زاهد حضرت درسه في الوعظ وقد قال والده إن النبي صلى الله عليه وسلّم قال له في بعض مناماته : إن الله جاعلك وجاعل أولادك من خواص أوليائه ، وفي منامة أخرى أنه رأى كأنه أُوتي السعادة ، قال : فجعلت أديرها على ولدي أبي الحسن ومحمد ، فأبو الحسن هذا ، وأما محمد فتوفّي ، رحمه الله ، بمكّة عند تمام حجّة حجها ؛ طاف فيها طواف الإفاضة فسقط في بعض أشواطه ميتاً ، أخبرني بهذا شيخنا أبو فارس ابن عبيد ، وكان حجهما في عام واحد .

وزرت هنالك أيضاً قبر الفقيه الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ابن أحمد بن عبد الله الأجدابي اللواتي الطرابلسي ، وهو قبر معظم يكثر الناس زيارته والدعاء عنده ، وكان الفقيه أبو إسحاق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم كلاماً وفقهاً ونحواً ولغة وعروضاً ونظماً ونثراً وله تآليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره ، ومن جملة تآليفه كتابه المتداول المسمى بـ « كفاية المتحفظ » وكتابه في العروض ناهيك به حسناً وترتيباً وتهذيباً وهو نسختان كبرى وصغرى وكتابه في الرد على أبي حفص ابن مكي في تثقيف اللسان ، وكتابه في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها من تصغير وتكسير وغير ذلك ، ولما استوفى فيه ذلك استيفاء جميلاً / تعرض لشرح المقاطع الواقعة في سورة مريم لاشتمالها [٢٦٣] على كثير من تلك الأحكام ، فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة والتحقيق ، وكتابه المختصر في علم الأنساب ، وله تأليف مختصر في الأنواء على مذهب العرب .

ورسالته المعروفة برسالة الحول تعرب عن أدب كثير وحفظ غزير ، وكان الفقيه أبو إسحاق أحول ، وسبب تأليفه لها أنه حضر يوماً بطرابلس عند القاضي بها أبي محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن هانش الطرابلسي ، فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه فرد عليه الفقيه أبو إسحاق فقال له : اسكت يا أحول فما استدعيت ولا استفتيت ! فألف تلك الرسالة . وكانت ولاية ابن هانش طرابلس سنة أربع وأربعين وأربعمائة بعد أن فر عنها قاضيها محمد بن فاضل البكري الإفريقي هارباً خوفاً من أهلها ، وعُزل عنها سنة سبع وسبعين فكانت ولايته اثنتين وثلاثين سنة .

وأكثر هذه التآليف ملكتها بخطه ، وكان رحمه الله من أحسن الناس

خطاً ، وأخبرت أن الأمير أبا زكرياء رحمه الله كان شديد البحث على خطه وأنه سمع أن كتاب الفصيح بيع بخطه بطرابلس فبرد بريداً إليها في البحث عنه فبحث عنه ووجه به إليه ، وكذلك أخبرت أيضاً أنه سمع أن بطرابلس كتاب أمثلة الغريب لأبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الهنائي المعروف [٢٦٤] بكراع بخط / الفقيه أبي إسحاق في ملك بعض بني النقاد وهم من أعيان طرابلس ، فوجه إليه فيها ، فوجه النقاد بها إليه ، وقد وقفت على كتب النقاد بوصول الكتاب المذكور والشكر له على بعثه . وملكت بخطه أيضاً تأليفه الذي اختصر فيه كتاب « أنساب قريش » تأليف أبي عبد الله الزبير بن أبي بكر ابن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام رحمه الله ، وحسبك بهذا التأليف الجليل علماً وفائدة وهو كما كان الشيخ أبو الحسن علي بن مغيث رحمه الله يقول : هو كتاب عجب لا كتاب نسب ، ورأيت الفقيه أبا إسحاق قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبه عليها ، وكفى بهذا الرجل المعظم القدر فخراً لهذا القطر ، ولم تكن له رحلة عن بلد طرابلس إلى غيرها ، وقد سئل : أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل ؟ فقال : اكتسبته من بابَي هوارة وزناتة ، وهما بابان من أبواب البلد ، نسبا إلى من نزل بهما في أول الزمان ، يشير أنه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين ، وكان له اعتناء بلقاء الوفود والقيام بضيافتهم .

وأخبرني بعض الطلبة أن خط الفقيه أبي إسحاق باق إلى الآن في بعض جدر داره من طرابلس وهي في وسط البلد بمقربة من الجامع الأعظم ، وعلى [٢٦٥] مسافة يسيرة منها من جهة غربيها دار الشيخ الفقيه / أبي الحسن علي بن محمد ابن المنمر الطرابلسي الفرضي المشتهر فضله وعلمه ورئاسته ، وهي مزاحمة

لمسجد يعرفونه بمسجد ابن فرج أضيف إلى الفقيه أبي مسلم مؤمن بن فرج الهواري الطرابلسي لإقرائه به ، وتوفّي أبو مسلم هذا سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، وكان مولد الفقيه أبي الحسن بطرابلس قديماً سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وله تآليف في الحساب والأزمنة وغير ذلك سوى كتابه المشهور المسمى بالكافي في الفرائض ، وقد لقي الشيخ أبا محمد ابن أبي زيد وقرأ عليه وارتحل إلى مكة سنة تسع وثمانين فلقي بها أحمد بن زريق البغدادي ، وروى عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الجوهري ، ثم عاد إلى طرابلس فلم يزل بها إلى سنة ثلاثين وأربعمائة ، فخرج منها لمحنة جرت عليه فتوجه إلى موضع يعرف بغانيمة بالغين المعجمة والنون : قرية من قرى مسلاتة ، فسكن بها إلى أن توفّي هناك سنة اثنتين وثلاثين ، وقبره الآن على الطريق بها ، وقد اجتزت على غانيمة ورأيت قبره بها ، وسيأتي ذكر ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى . وهو أول من أظهر السنّة بطرابلس لما كانت في إفريقية الوقعة المعروفة بوقعة المشارقة سنة سبع وأربعمائة قتل فيها الشيعة وأتباعهم ، وعلى
[٢٦٦] يد الفقيه أبي الحسن كان قتل من قتل بطرابلس منهم ، وأوّل / من قطع من الأذان « حيَّ على خير العمل » وأذّن في ذلك اليوم أذان أهل السنّة بنفسه ، وقد قتل بنو عبيد بشراً كثيراً أسقطوا هذه اللفظة من أذانهم تعمّداً أو نسياناً ، وأول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام ، وقد كان رسم هذه الصلاة امّحى من إفريقية فقال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله تعالى : لمّا دخل بنو عبيد القيروان أرادوا أن يمنعوا الناس من هذه الصلاة ، قال : وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة ، فقيل لهم : إنّكم توغرون بهذا الفعل قلوب العامة فإنّهم يقولون منعونا من الصلاة ، فأمروا الأئمة أن يختموا كل ليلة ختمة كاملة وأن لا ينقصوا شيئاً منها ، فصلى الناس أول ليلة بوفرهم ،

فلما كانت الليلة الثانية نقصوا ولم يزالوا ينقصون لثقل ما كلفوا به حتى خلت المساجد منهم كما أرادوا ، وأسقط الناس القيام بهذه الصلاة فكان الشيخ أبو الحسن ابن المنمر أول من أحيا بطرابلس رسمها وقدم أبا مسلم مؤمن بن فرج فصلاّها بالجامع الأعظم ولم تكن قبل ذلك صُليت به لأنه من بناء بني عبيد كما تقدم ، وأول من أطلق للناس صلاة الضحى جهاراً ولم يكن أحد في مدة بني عبيد يصليها إلا مستخفياً بها فإن ظهروا عليه قتلوه ، ومرّ بعض عمالهم برجل على شاطىء البحر يصلّي وقت الضُّحى فسأله عن صلاته فذكر أنه كان جُنُباً فلما مر بالبحر نزل واغتسل وقضى صلاة الصبح فلم يقبل ذلك منه وأمر به فأُلقي في البحر إلى أن مات .

[٢٦٧] وكان سبب محنة الفقيه أبي الحسن أن سعيد بن خزرون لمّا قتلته زغبة سنة تسع وعشرين وأربعمائة فتح أبو الحسن ابن المنمر مدينة طرابلس لخزرون ابن خليفة فدخلها وأقام بها أشهراً ، ثم لما كان شهر ربيع الأول من سنة ثلاثين وصل المنتصر بن خزرون وكانت معه عساكر زناتة ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مختفياً وترك له البلد ، فدخله المنتصر وأوقع بأبي الحسن مكروهاً عظيماً ونفاه من البلد واستباح جميع أملاكه وعذب كثيراً من أقاربه بسببه .

ورأيت مقابر طرابلس كلّها فوجدتها قد امتلأت من بني آدم وغلبت عظامهم على تراب الأرض ، فلا ترى منها ملء كف من تراب إلاّ وعليها جمجمة أو عظم ولا سيما الجهة الشمالية منها ، وكثيراً ما يدفنون هناك الغرباء الذين ليسوا من أهل البلد ، وهناك مدفن جثّة أبي عبد الرحمان يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن محمد الهرغي الثائر بطرابلس ، وكان هذا الرجل قد ظهر في أول دولة الأمير أبي زكرياء يحيى ظهوراً عظيماً واشتهر بالإقدام والاقتحام في الأمور العظام ، وكانت بينه وبين الجوهري صداقة متكاذبة ،

فلمّا قُتل الجوهري بتونس سنة تسع وثلاثين استوحش ابن أبي يعقوب ، وعلم الأمير أبو زكرياء باستيحاشه فوجه إليه أخاه أبا عبد الله ابن أبي يعقوب يوسف ليؤنسه ويصل به ، فلما وصل إليه لم يزده وصوله إلا فراراً ، وكان قد اقتنى لنفسه أموالاً عظيمة ، فحدثته نفسه بالإمارة هناك والاستبداد بالملك
[٢٦٨] فأجمع على ذلك واستعد لإظهاره فتفاوض عقلاء طرابلس فيما بينهم في ذلك وتذاكروا ما يتخوفون من عاقبته ورأوا أن يبادروا بالقبض عليه فأحاطوا به في الليلة التي عزم على إظهار ذلك في صبيحتها ، فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى جماعة ممّن تبعهما فاحتبسوهم إلى أن طالعوا بأمرهم فورد عليهم الأمر بقتلهم ، فقُتلوا وصُلبتْ جثثهم بباب هوارة من أبواب طرابلس ، وحملت رؤوسهم إلى تونس فنصبت على سور القصبة منها ، وذلك في شهر شوال من السنة المذكورة وهي سنة تسع وثلاثين ثم نزلت جثة أبي عبد الرحمان بعد فدفنت حيث ذكرنا .

وكان ممن قُتل مع يعقوب في هذه الكائنة ونصب رأسه مع رأسه . أبو عبد الله محمد ابن القاضي أبي عمران ابن عيسى بن عمران ، وأبوه هو قاضي القضاة بمراكش الذي يقول فيه الشاعر :

بخط في الرقّ خطّاً كأنّه خـط شيطـان
بفسك عنّـه المعمّى موسى بن عيسى بن عمران

وكان ابنه هذا قد وصل إلى حضرة تونس فضاقت حاله بها مع ضيق كان في خلقه فتوجه إلى طرابلس فاتصل بابن أبي يعقوب ، وشاع عنه أنّه أنشأ خطبة أعدها لتقرأ يوم بيعته ، كان منها في وصفه : القائم بالمدينة البيضاء ذات الرمال ، الفاصل بهدايته بين الحرام والحلال ؛ فتعرفا معاً شؤم هذه الخطبة ،
[٢٦٩] واستمرا بعد الممات على ما / كانا عليه في الحياة من الملازمة والصحبة .

وأخبرني الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى العدل بحضرة تونس رحمه الله ، قال : كان ممّن حُبس بطرابلس معهم أبي ، فدخلت عليه في السجن وكنت إذ ذاك صغيراً فقال لي يعقوب : ما سورتك يا بني ؟ فقلت له : الحديد ، فجعل يكرر هذه اللفظة تطيراً منها ، فكان من صدق هذه الطيرة من قتله ما تقدم ، قال : ولم يسلم من أصحاب أبي عبد الرحمان الذين ثقفوا معه غير أبي لتشفّع أهل طرابلس فيه عند الأمير أبي زكرياء ، وأنشد أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن إبراهيم الأصولي في بعض تآليفه لنفسه من قصيدة يمدح بها الأمير أبا زكرياء ويصف هذه الكائنة ويذكر تسمية يعقوب نفسه بالإمام الفاطمي ، ويعقوب هذا ينتسب لهذا النسب العلي :

لقد عجّلتْ للفاطميّ فطامه وما سوّغته درّها البيضُ والسُّمرُ
رجا رفعة فاعتاض منها بمنصب نماه به للجذع منصبك الحُرُّ
يرى شرفات السور قد قُمّنَ حوله يصحْن لأمر منه أكذبه الأمرُ
ضحى فلحرّ الشمس لعْجُ إهابه وللريح لا للرُّوح في جسمه كرُّ
وكَمْ رامَ تشييد القُصُور فحلّها وأعظم ما يرْجُوه لو أُسْعِف القبرُ
[٢٧٠] أتى رهبةً لمّا دعوت إجابة فجرّده من ثوب نعمتك الكفرُ
وجاءكَ مِنْهُ بعضُه متنصّلاً وخُلّف بعضٌ حيثُ لا جادَه قطرُ
يُناجي أخاهُ لا بقولٍ يبثّهُ وهيهات عزّ السرّ فَحواه والجهرُ
تبرّأ منـهُ وانتحاك لسانـه فلو رام نطقاً لم يرِمْه لك الشكرُ
فدونكَ يا يعقوبُ عُقبى منافقٍ إلى النار عقباها إذا ضمّك الحَشْرُ

وأنشدني بطرابلس صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري في قضية أبي عبد الرحمان لما نصب رأسه ورؤوس من قتل معه بسور القصبة من تونس ، للفقيه المحدث الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن

أبي بكر ابن الأبار ، ثمّ أنشدني بعد ذلك هذه الأبيات بتونس الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن إبراهيم التجاني قال أنشدنيها قائلها :

وعصابةٍ قطفت رؤوسَهم الظُّبى ... قطْفَ البنان أزاهرَ البستانِ
غَدَرُوا وما شعروا بأن وراءهم ... للحقّ أنصاراً على البُهتانِ
فانْظُرْ إلى هاماتِهِمْ مُسْوَدّة ... كاللّيلِ غيرَ بَوارق الأسْنانِ
تبدو من السور المُنيف بصفحة ... بيضاء كالشّامات والخيلانِ

[٢٧١] والأشهر في هذه المدينة طرابلس بفتح الطاء وضم الباء واللام ، / قال البكري في المسالك : وترجمة هذه اللفظة باللغة الإغريقية ثلاث مدن ؛ تم كلامه . وبعض الناس يكتبها حيثما وقعت في خطه بالألف وعلى هذا قول أحمد بن يحيى من قديم شعرائها في قصيدة له :

لقد طال شوقي إلى فتية ... حسان الوجوه بـأطرابلسْ
وقد عيلَ صَبري فما مُسعدي ... على الشوق إلاّ دموع بجسْ

وأحمد بن يحيى هذا من ولد أخي علي بن زياد الفقيه التونسي رحمه الله . وأصل علي بن زياد من طرابلس أيضاً ، مات سنة ثلاث وثمانين ومائة . وذكر لي بعض النبهاء من طلبتها أنه وقف لبعضهم على أن المختار في طرابلس الشام أن تُكتب دون ألف تفرقة بينهما ، وأما الكاتب المتأخر أبو الحسن علي ابن أبي بكر ابن بلال فإنّه سكّن لام طرابلس استناداً إلى ما تقرر في اللغة العربية من جواز تغيير الأسماء الأعجمية للضرورة فقال في بعض وتريّاته يخبر عن نفسه :

سرى فرسا في سيره ولو أنّه ... خليٌّ من الأوزار سار ولم يرْسُ
سعى سعي طمّاح لأبعد غاية ... فكانت له دارَ المقام طرابلْسُ

سينضي ركاب العزم عنها مجرّداً ... لأفضل من دانتْ له الجنُّ والإنسُ

[٢٧٢] وكان رحمه الله أخذ في التوجه إلى المشرق ليحج ووصل إلى طرابلس ، فصرفه الدهر في بعض خدمها ، فنظم مدة إقامته بها هذه الوتريات يصف اشتياقه ، ويطلب التخلص مما عاقه ، إلى أن تهيّأ له السفر فانفصل وحج وذلك سنة إحدى وثمانين ، ثم رجع فمات بطريقه وهو قافل رحمة الله تعالى عليه .

وبطرابلس كانت وفاة أبي حفص عبد الله بن محمد بن عامر بن أبي عامر وهو والد الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر صاحب الفتوحات المأمونة والاستيلاء المشهور ، وكان أبو حفص هذا فقيهاً صالحاً معلوماً بالخير والزهد والقعود عن السلطان . سمع الحديث وكتبه عن محمد ابن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ثم عاد قافلاً فأدركته منيته بطرابلس فدفن بها ؛ انتهى من كلام أبي حيان ، وفيه عن ابن عفيف ، وذكر ابن الأبار في «التكملة» ما تقدم ؛ وأخبر أن وفاته كانت آخر خلافة الناصر وكان انقراض خلافة الناصر في شهر رجب من سنة [٣٥٠ هـ] .

ومن فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة في الأدب المتقدمين عن عصرنا هذا قليلاً : أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات ابن عمران [٢٧٣] ابن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي ، / مولده بطرابلس في منتصف شعبان من سنة ست وستمائة ، وارتحل إلى المشرق فقضى فريضة الحج وأدرك الريغي والصفراوي فقرأ عليهما . ووصل إلى تونس في مدة الأمير أبي زكرياء ، فأقام بها زماناً ثم عاد إلى بلده ، واستدعي بعد ذلك إلى تونس فولي بها الخطط الرفيعة من قضاء الجماعة وقضاء الأنكحة والخطابة بالجامع الأعظم وغير

ذلك من الخطط ، وله تصانيف منها : العقيدة الدينية وشرحها ، وجلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس ، وكتاب مذكر الفؤاد في الحض على الجهاد ، وله شعر قليل منه قوله :

طُرُقُ السّلامة والفلاح قَناعةٌ ... ولزوم بيت بالتوحّش مؤنسِ
يكفيه أُنْساً أن يكون أنيسَه ... آيُ القران ونورَه في الحِنْدسِ
وإذا رأت عيناه إنساناً أتى ... فليَنفرنّ نفور ظبي المكنسِ
ولقلّما يَنْفكّ صاحب مقوَل ... من زلّة أو عَثْرة في المجلسِ
نحصّى وتُكتب والجهول مُغَفّل ... حتّى يَراها في مقام المفلسِ

وأظهر له الخليفة المستنصر رحمه الله في بعض الأوقات تغيراً فكتب إليه يستعطفه :

أمولايَ ما زلتم تُنيلُون عبدكُم ... ضروباً من النعماء جلّت عن المثلِ
ولم يبقَ إلاّ العفو وهو أجلّ ما ... يُنال فأكْمِل لي به منحة الفضْلِ
[٢٧٤] فما العيشُ في الدنيا بغير رضاكُمُ ... بصافٍ ولا طَعمُ الحياة بمُحْلَوْلي
وقد كدّر الإعراضُ صفوَ معيشتي ... فأنكرتُ أحوالي وأنكرني أهلي
ولي أمَلٌ يَقضي بغفران زلّتي ... وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن فعْلي
بقيتَ تزيد المُلك عزّاً وبهجة ... وتحيي رسوم الفضل والدين والعدْلِ
ولا يُخْطِئَنّي منك عفوٌ ورحمة ... فإنّهما ما أخْطئا أحداً قَبْلي
وصلّى إلهُ العرش بدْءاً وعودة ... على المصطفى من خلقه خاتم الرسلِ

وله القصيدة الطويلة التي أولها :

بحمدِ الله نبتدىء الأمورا ... ونختم آخراً فيه الحبورا

وكانت وفاته بتونس يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول عام أربعة وثمانين وستمائة .

ومنهم الفقيه أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي أحد أرباب الرتب ، الجامعين بين رئاسة الفقه ورئاسة الأدب ، ولد بطرابلس سنة تسع وستمائة وقرأ بها يسيراً ، ثم توجه مع أخيه الفقيه القاضي أبي موسى إلى المهدية للقراءة بها على الفقيه أبي زكرياء البرقي فلزماه مدة ، ثم عاد أبو موسى إلى طرابلس وأقام أبو علي ولزم البرقي وتفقّه عليه واختص به اختصاصاً
[٢٧٥] كثيراً ، فلمّا / وقعت فتنة أبي حمراء بالمهدية ووصل كتاب الشيخ أبي علي ابن أبي موسى ابن أبي حفص إلى المهدية إذ ذاك بالتحذير من أبي زكرياء البرقي ومن أبي حمراء ، وتوجه الأمر له بقتل أبي حمراء وإزعاج البرقي إلى الخضرة ، كان ذلك فقتل أبو حمراء وحمل البرقي على حمار ومعه خواص أصحابه ، فيذكر من رآه على تلك الحالة وهو يتمثل عند إشرافه على الخضرة :

هكذا في البر يفعـل بي ... كيف لو زلّت بيَ القـدم

فكان ابن معمر أحد من وصل صحبته ، وأدركت الأمير أبا زكرياء شفقة على البرقي فأعاده إلى وطنه وأقام ابن معمر بالخضرة . وكان فقيهاً مفوهاً خطيباً لسناً غير أنّه كان في لسانه فضول ، كثر امتحانه به والتعرض له بسببه .

وترقى في دولة الخليفة المستنصر رحمه الله فولي خطة القضاء في كثير من بلاد إفريقية منها باجة وبجاية وغيرهما ، وولي خطة العلامة الكبرى وخطة الارفاع والنظر في خزانة الكتب ، وتغير الخليفة عليه فنفاه إلى المهدية ، فكان خروجه من الخضرة يوم السبت الثامن عشر لذي القعدة الحرام سنة سبع وستين ، ثم وقع الرضى عنه بعد عام كامل وتوجه الأمر بتسريحه في ذي

الحجة من سنة ثمان وستين ، فوصل إلى تونس في شهر ربيع الأول من سنة تسع وستين . ولمّا مات الخليفة وولي ولده الواثق استدعي في يوم السبت التاسع
[٢٧٦] عشر / لذي الحجة من سنة خمس وسبعين ، فأمره بالنظر في خزانة الكتب وسئل عنها حين كانت لنظره أولاً فذكر أنّها كانت ثلاثين ألف سفر وأنّه أخر عنها ثم أعيد إليها فوجدها عشرين ألف سفر وأنه الآن اختبرها فوجدها تقصر عن ستة آلاف سفر ، فسئل عن موجب ذلك ، فقال : المطر وأيدي البشر ، واستمر على النظر فيها إلى أن تغير عليه رئيس الدولة أبو الحسن ابن أبي مروان في بعض القضايا فأمر بتثقيفه فثقف بدار الأشراف مدة ثم أخرج . وكانت وفاته بتونس في اليوم الثاني لجمادى الأولى من سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وله شعر كثير ؛ أخبرني ابن أخيه الفقيه أبو يعقوب يوسف ابن القاضي أبي موسى عمران ، قال : كنّا جلوساً عنده فأنشد بعض من حضر ببيتين لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي :

مضى زمن المكارم والكرامِ ... سقاه الله من صوب الغمامِ
وكان البرّ فعلاً دون قولٍ ... فصار البرُّ نطقاً بالكلامِ

قال فأنشدنا لنفسه متمماً عليهما :

وزال النطق حتّى ليس تلقى ... فتى يسخو بمرجوع السلامِ
وزاد الأمر حتّى ليس إلاّ ... سخيّ بالأذى أو باللمامِ

وكان أبو عبد الله محمد بن يحيى الفضيلي ممن ثقف بدار الأشراف
[٢٧٧] معه حين ثقفه ابن أبي مروان على ما تقدم ، فحصل بينهما / اتصال وود ، واتفق أن سرح ابن معمر قبل سراح الفضيلي فهنأه الفضيلي بذلك فأنشد مرتجلاً :

لئن سرّني فكُّ الإسار من الحَبْسِ ... لقد ساءني فقدي لما فيه من أُنسي

ولَوْ أنّني خُيِّرتُ فيما أُريدُه ... لآثرت تقديمي سراحك عن نفسي

وفي مدة لزومه داره للجفوة التي كانت عرضت له قبل نفيه إلى المهدية ، قدم من السفر صديق له ممّن تلزمه زيارته فلم يمكنه ذلك ، فكتب إليه :

كتبت ولولا الحكم كنت إليكمُ ... من الشوق في متْن الرياح أطيرُ
وإنّ يسيراً أن أسيرَ مسلّماً ... عليكُم على وجهي وذاك يسيرُ
وما في صميم القلب من خالص الوفا ... فسيّان فيهِ غيبة وحضورُ

وأنشدني له بعض الطلبة من أهل بلد طرابلس قصيدة وقعت هنا مرتبة على حسب ما اخترناه منها :

لولا احورار جُفون أودعَتْ سَقَما ... ما أمطرت سحْبُ أجفاني الدموع دما
ولا وقفتُ أُصَيْلاناً بربعكمُ ... ولا سقيتُ رُباه مِنْ دمي دِيَما
ولا نَثَرْتُ عَقيق الدمعِ في طللٍ ... منهُ أُذيعَ الّذي قد كان مكتتَما
[٢٧٨] شَمْلُ السلوّ شَتيتٌ بعد بُعدكمُ ... وطالما كان قبل اليوم ملتئما
البينُ يقطعُ منهُ كلّ متّصل ... والشّوقُ يَنثرُ منهُ كلّ ما انتظما
والوجْدُ شادَ بجسمي ما يهدّمه ... آه على ما بنى فيه وما هَدَما
يا مَنْ يلُوم على ما جلّ من أسَفي ... هذا اليسيرُ من الأمر الّذي كتُما
ما خطّط النومُ في جفنيّ رسم كَرى ... إلاّ محا السهْدُ ما قد خُطّ أو رُسِما
أُنبيكُمُ أنّني من يوم بينكُمُ ... ما زلتُ للسّهد والتذكار ملتَزِما
أرتاحُ إن هبّ ريحٌ من جنابكمُ ... أو لاحَ برق بذاكَ الأفْقِ وابتَسما
أما ومَنْ قدّر الأشياء مقتدراً ... وحُبّكم وكفى بالحُبّ لي قَسَما
ما رام قلبي اصطباراً بعد بُعدكمُ ... ولا تأخّر بي من وجده قَدَما

وأنشدني أيضاً وقد أبلّ الخليفة من مرضه :

اللهُ أنعمَ بعد اليأسِ بالفرجِ يا أزمة الدهر عند الشدّة انفرجي
شُكر الخلائق لا يكفي لأيسر ما كفى وسكّن من هَرْج ومن رَهَجِ
أبقى الأنام بإبقاء الإمامِ فكَمْ بِصَوْنه صانَ من مال ومن مُهَجِ
إذا رعى الله للإسلام راعيَهم لم نأسَ من فَقْد ذي قدر ولا هَمَجِ

وذكر ابن الأبار في بعض تواليفه قال : أنشدني القاضي أبو علي ابن معمر له ولأحد أصحابه في أبي المجد الصوفي المهدوي يداعبانه لولوعه بتزوج العجائز :

[٢٧٩] أبا المجد كم تَغْرَى بحبّ العجائزِ وذلك في شرع النُّهَى غير جائزِ
كَلِفت بأطلال محا الدهر رسمها فأصبحت تبغي الفوز بين المفاوزِ

وأنشدني شيخنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيّان الأوسي ، قال أنشدني أبو علي ابن معمر لنفسه :

آهاً نُردّدُ لو تشفي لنا كَرَبا وبالتعلاّت نحيا لو قضت أرَبا
وبالأماني يَنالُ القلبُ بُغيته وقد تحقّق من معتادها كَذِبا
يرتاحُ إن لاحَ برق من جهامتها وما تَرَاءى له إلاّ وقد ذَهَبا
يُسَرّ إن مُدّ يَوْماً حبل مُنْيَته وما تطاول إلاّ جُذّ وانقضبا
إنْ عزّ ما يبتغيه فهْو في هَرَج ويختشي الفَقْدَ إن ما يبتغي قَرُبا
وارحمتاه لقلبي كَمْ أُجَشّمه أمراً يذيب من الأصلاد ما صَلُبا
وكم يعاني ملمّات بأيْسرها يهوّن الأمر من دنياه ما صعُبا
وكم يُلَجْلِج في أفكاره لججاً سوداً تُؤجّج في أحشائه لهبا
وكم تهبّ سمومٌ من تنفسه لو استمرّت لما هبّت نسيمُ صَبا
أستغفر الله لا أشكو الزمان ولا أبدي إذا طرقت أحْداثُه رهبَا

ولا أثنّ لِحَظّ منهُ أعْوَزَني ولا أُسَرُّ إذا ماءُ المُنى انسكبَا
[٢٨٠] أنّى يُسَرُّ لَبِيبٌ إن رأى حُلُماً وكيفَ يَطْرَب مَن خمرَ الفنا شربا

وأخوه الفقيه القاضي أبو موسى ؛ كان عالماً صالحاً فاضلاً ، وقد قدمنا من أخباره ما ذكره شيخنا أبو فارس عبد العزيز بن عبيد عند تسمية شيوخه .

فأقمنا بطرابلس ساكنين في قصبتها كما تقدم عاماً كاملاً ونصف عام وأياماً إلى أن تهيأت لمخدومنا أعزه الله وجهته ، وكملت على أتم المراد بغيته ؛ حسبما نبينه بعد هذا إن شاء الله تعالى . فحينئذ وقع الرحيل عنها .

[٣٠٧] وأصبحنا من الغد مرتحلين فنزلنا يومنا ذلك بتاجورة ، وهي قرية كبيرة عامرة وبها قصر متسع يشتمل على دور كثيرة ، وفي وسط هذا القصر حصن أقدم بناء منه يقال إن حميد بن جارية أبا الجواري ابتناه وشارك فيه في العمل بنفسه ليحض أهل الموضع على إتمامه ، وهو الذي عمر هذه القرية ونقل أهلها إليها من أرض هنالك تعرف بأرض عبد رب ؛ وكان ابتداء عمارتها في عام خمسين وخمسمائة ، وهم يدّعون أنهم من العرب وينتسبون إلى تميم

[٣٠٨] ويذكرون أنهم سكنوا الأرض المعروفة بأرض عبد رب من حين / الفتح الإسلامي ثم نقلهم منها حميد بن جارية إلى هذه القرية .

وبتاجورة السفرجل الذي لا يوجد في بقاع الأرض مثله وليس يقرب منه إلا السفرجل الموجود بنفزاوة ، وقد تقدم التعريف بذلك .

وإلى تاجورة هذه ينسب صاحبنا الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري ؛ لزم سكنى طرابلس ، وهو أحد العدول المصدرين بها ، عارف بالتوثيق وعقد الشروط حافظ للآداب والتواريخ حسن الخط جداً ، ورد على تونس قبل هذا واجتمعت به فيها ثم اتصلت ملازمتي له بطرابلس مدة إقامتي بها ، مولده في العشر الأواخر من رجب سنة خمس

وثلاثين ، وتوفّي رحمه الله بطرابلس في هذا العهد الأقرب وذلك في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شوال من عام ثمانية وسبعمائة .

وينسب أيضاً إلى تاجورة هذه الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحسيني التاجوري ، وله بطرابلس وجهاتها شهرة عظيمة ؛ وكنت أسمع أخباره من صاحبنا الفقيه أبي العباس وأتوهم أنّه من أهل تاجورة ؛ ثم وقفت بعد ذلك على ذكره في كتاب « كنوز المطالب » لأبي الحسن علي بن موسى ابن سعيد فنقلت هذا الفصل من كلامه فيه ؛ قال : « اجتمعت به في حصن الخليل عليه السلام ، وكان قد أطال السكنى به حتى عرف في المشرق بالخليلي ، وإنّما يعرف في المغرب بالتاجوري » ، قال : وتاجورة بليدة في شرقي طرابلس

[٣٠٩] كان قد / أطال المكث بها ، وهنالك جبال كان أهلها يتشيعون فيه بزكواتهم وهداياهم إليه يفعل فيها ما شاء ، فسعي به ، وخاف ففرّ إلى المشرق . قال : وأنا رأيته بحصن الخليل وفي مصر وفي دمشق يقلب الطرف بين الخيل والخول ، وماثدته منصوبة للصادر والوارد ، وكان الناس يتعجبون من حديثه في ذلك فبعضهم يقول إنه يصنع الكيمياء وبعضهم يقول إنه يصله من جبال تاجورة ما جرت به عادتهم وإنّهم ينتظرون أن يقيم بها دعوته ، قال : وأخبرني أن أباه خرج به من الكوفة وهو ابن سبع فدخل به إلى المغرب وربي في مراكش ثم انتقل إلى تاجورة فسكنها ثم إلى المشرق ، وكانت وفاته بدمشق في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وأنشد مما أنشده لنفسه قوله :

جربت في الأرض كلّ حيّ فلم أجد في الورى كريما
أظنّ ما في الطروس زوراً عساه أن يسخي اللئيما

وقوله أيضاً :

ألسْنا بني بنت النبيّ وعمّه وفي الذروة العلياء من آل غالبِ

ليوث ولكن لا تصاد بحيلة سيوف ولكن لا تدين لضاربِ

[٣١٠] وانتقلنا عن تاجورة يوم الأحد فنزلنا بموضع يعرف بغافق ، وهو / قصر خرب خال لا عمارة به ، ومنه يوم الاثنين إلى وادي الرمل ، وهو واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه في شتاء ولا في صيف ، ومبدؤه من الجبل قاطعاً إلى البحر ؛ لا بد لكل مشرق يجعل الجبل يمينه أو مغرب يجعله يسرته من قطعه ؛ وأصل مائه من عيون تنبع في أثنائه تبتدىء من مسافة قريبة من الجبل فتجري قليلاً ثم تنقطع ثم تبتدىء بعدها عيون أخرى فينتهي ماؤها إلى البحر ولا يعم الماء جميع الوادي إلاّ في وقت الأمطار عند نزول السيول من الجبل .

وفي عاليه عند سفح الجبل قصر يعرف بصيبار — بكسر الصاد المهملة تليها ياء معتلة ثم باء مفردة — وهو معمور . وكان نزولنا من هذا الوادي في أسفله بمقربة من البحر ؛ وعلى مسافة يسيرة من هذا المنزل الذي نزلنا به ؛ بينه وبين البئر المعروفة ببئر طُشّانة — بضم الطاء المهملة وتشديد الشين المعجمة — قبر يعرف هذا الموضع به ، فصار القبر اسماً علماً له ، وهو لرجل من العرب ثم من دباب ثم من بني عيسى منهم ، واسمه شهوان بن عيسى بن عامر بن جابر ابن فائد بن رافع بن دباب ، وكان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد واشتهر بالكرم فلم يُذكر معه في وقته غيره ، وفيه يقول شاعر العرب :

حمى الأرض شهوان بن عيسى بن عامر وعِرْض الفتى إن ضيّع المجد تالفُ

[٣١١] والأعراب الآن إذا نزلوا هناك ولم يكن لهم زاد قاموا على قبره فنادوا : يا شهوان اقرِ أضيافك ، فيذكرون أنّهم لم يبيتوا قط دون عشاء إما بصيد يتاح لهم أو بضالة يلقونها أو بغير ذلك . وهذا أمر حدثني به جماعة منهم ، وهو مشابه لما يذكره المؤرخون عن حاتم الطائي أنّهم كانوا ينزلون بقبره

فيقريهم ، وفي ذلك يقول الشاعر يمدح عدي بن حاتم :

أبوك أبو سَفّانةَ الخيرُ لم يزل ... لدُن شبَّ حتى شاب في الخير راغبا
قرى قبرُه الأضيافَ إذ نزلوا به ... ولم يقرِ قبرٌ قبلَه الدهرَ راكبا

وحكى أبو عبيدة قال : نزل أبو الخيبري في نفر من قومه بقبر حاتم فجعل يناديه : يا أبا عدي اقرِ أضيافك ، فقال له قومه : فكيف تنادي رمة بالية ؟ فقال : إن طيئاً تزعم أنّه لا ينزل به أحد قط إلا قراه ، فناموا فانتبه أبو الخيبري مذعوراً ينادي : واراحلتاه ! فاستفهمه أصحابه عن أمره فقال : خرج حاتم بالسيف وأنا أنظر حتى نحر راحلتي ، فنظروا إلى راحلته فإذا هي تتشحط في دمها ، فقالوا له : قد والله قراك ، وأخذوا يأكلون من لحمها ما شاؤوا ، ثم ارتحلوا صباحاً فنظروا إلى راكب يقود بعيراً وهو يسأل عن أبي الخيبري فتعرض له أبو الخيبري فقال له : « أنا عدي بن حاتم وإن حاتماً
[٣١٢] أتاني الليلة فذكر أنّك استقريته وهو / ينشدك :

أبا الخَيْبَريّ وأنت امرؤٌ ... لَؤومُ العشيرة ظلاّمُها
أتيتَ بصَحْبِكَ تَبْغي القِرى ... لدى حفرة صَدَحَتْ هامُها
أتبغي لِيَ الذَّمَّ عند المَبِيتِ ... وحَولِيَ طَيٌّ وأنْعامُها
وإنّا لَنُشْبِعُ أضيافَنا ... ونَأتي المطيَّ ونَعْتامُها

وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه » .

وانتقلنا من وادي الرمل يوم الثلاثاء فنزلنا بالعين المعروفة بعين تامدنت — بالتاء الصحيحة المثناة وبكسر الميم وكسر الدال المهملة وسكون النون — وهي عين متسعة عذبة الماء يتضمنها واد متسع يشتمل على غابات مشتبكة من الأبا والقصب وإلى جانبها أحساء ماء تشابهها في العذوبة ، فأقمنا عليها يومنا

ذلك ومن الغد ، واستهل علينا شهر المحرم مفتتح عام تسعة وسبعمائة ونحن مقيمون بها .

ثم ارتحلنا عنها صباح يوم الخميس الثاني لشهر المحرم فسلكنا بين غيطان وأودية قد عم قاعتها الشجر المعروف بالعشر ، وهو شجر ناعم النبات شديد الخضرة يضرب إلى سواد ما ، وهو ينبت صعداً وله أوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر كنوار الدفلى ، وثمره أخضر كالأترج تملأ الواحدة يد
[٣١٣] حاملها وهي مملوءة بشيء يشبه القطن / تسميه العرب الخُرْفُع — بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء — ربما حشيت منه المرافق والوسائد ، وأخبرني من أثق به أنّه رأى ثياباً صُنعت منه .

[٣١٥] ونزلنا يومنا ذلك بالعين المعروفة بعين فارة ، وهذه العين أعذب من الأولى وهي بواد حسن المنظر شارح للنفس ، وقبلها عين أخرى جارية إلاّ أنّها أضعف جرياً منها يجري ماؤها فينتهي إلى هذه العين ، وتجتمع منه بركة ماء متسعة قد ظللتها غابة مشتبكة من شجر العرعر والضرو والخروع وغير ذلك ؛
[٣١٦] ثم يجري الماء من تلك البركة / جرياً قوياً ينتهي إلى البحر ؛ ولا يجري الماء في أعلى هذا الوادي إلاّ في وقت الأمطار ، وهنالك القصر المعروف بقصر فارة ، سمي باسم قوم من البربر سكنوه يعرفون ببني فارة وبهم سميت العين ، وهو الآن خال لا عمارة به ، ويقابله من أعلى الوادي القصور المعروفة بقصور الورانيز — بالراء والنون والزاي — وهم قوم من هراغة نزلوا بتلك القصور قديماً فأجلتهم العرب وأخلتها منهم ، فانتقلوا منها إلى أرضهم المعروفة بهم التي بين تاجورة وطرابلس والقصر المعروف ببني خيار ، وهو أيضاً خال خرب أجلت العرب أهله فانتقلوا إلى المحرس بين قابس وصفاقس ؛ وقد تقدم ذكر ذلك عند ذكرنا للمحرس .

وعرض لي في هذه الأيام عارض مرض رجوت أن يهون أمره فاشتد ، ورمت أن يقصر أمده فامتد ، وبلغ مني في هذه المنزلة أشد مبلغ ، فأقام مخدومنا والمشارقة وجميع الركب بسببي هنالك خمسة أيّام رجاء أن أجد إبلالاً ، أو أطيق معهم ارتحالاً ، فلم تسعف الأقدار بذلك ، فعزم عليّ مخدومنا في الرجوع من هنالك ، فلم أطب بذلك نفساً وأظهرت تجلداً وقوة تكلفت بها الارتحال معهم ، فنزلنا بالعين المعروفة بعين وِدْرِس — بكسر الواو وسكون الدال المهملة وكسر الراء — وهكذا تنطق العرب بها والبربر يلحقون هذه اللفظة تاء ساكنة على ما هو المعروف من كلامهم ، وأمام هذه [٣١٧] العين على أميال يسيرة منها القرية المعروفة بغانيمة — بالغين المعجمة والنون — وهي الآن خالية لا عمارة بها وبها قبر الشيخ الفقيه أبي الحسن علي بن محمد ابن المنمر ، وقد تقدم ذكره وسبب سكناه في آخر عمره بهذه القرية إلى أن مات بها . والناس إلى الآن يزورون قبره ويتوسلون إلى الله سبحانه عنده ، ويذكر أهل تلك الجهات أن كل رفقة استصحبت شيئاً من تراب ذلك القبر فإنّها لا يُتعدى عليها ، فهم لا يزالون ينقلون ترابه فيجدده من يقصد الأجر من أهل تلك الجهات أو من المجتازين عليه .

فأقمنا بهذه العين يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء بعده ، والعلة التي عرضت لي كما تقدم في ابتداء حدّتها ومنتهى شدّتها ، وعجزت بالجملة عن الركوب فلم يكن بد من الرجوع . واعتذر لي مخدومنا بأن الموضع لو احتمل الإقامة أكثر ممّا أقام به لأقام إلى أن أجد الراحة ، فودعته في هذا اليوم وهو يوم عاشوراء وانقلبت راجعاً ، وكانت الحصة الواصلة من الحضرة صحبة المشارقة بانية على الوصول إلى مسراتة فرجعت من هذا الموضع بسببي ، ونزلنا في هذا اليوم بالبئر المعروفة ببئر يُنوت — بضم الياء المعتلة وبالنون والتاء الصحيحة المثناة —

وهي بئر معينة عذبة بسفح جبل عال ومنها يبتدىء المشرّق في قطع الشعراء المعروفة بشعراء قماطة ، وكانت طريقنا في هذه المرحلة متعالية عن طريقنا الأولى إلى جهة الجنوب .

[٣١٨] وانتقلنا من البئر المذكورة يوم السبت إلى الحصن المعروف بحصن سلمة وهو من أرض مسلاتة فرأيت ملجأ ، يذكر سلمى وأجأ ، وهو على أعلى جبل وقد دارت به دور كثيرة ، وتحف بهذا الجبل مغارس زيتون وكرم ومزارع ، وهي كلّها في ثنايا وأودية بين جبال وعرة ، وتحت هذه القرية في قاعة مستوية قرية صغيرة تعرف بتاغرمت — بكسر الغين المعجمة وكسر الراء — وبها مبانٍ ضخمة بالنسبة إلى تلك القرى ، وشرب جميعهم من أجباب مملوكة ثم تملأها السيول المنحدرة من تلك الجبال في أوقات الأمطار ، وما وراء هذه الجبال من قبليها يسمى بالظاهر ، وما بين يديها من جهة البحر يسمى بالباطن .

فأقمنا بظاهر هذا الحصن ستة أيام آخرها يوم الخميس السادس عشر إلى أن وجدت خفة من المرض ، وارتحلنا غدوة يوم الجمعة السابع عشر مغربين آخذين ذات اليمين ممّا يلي باطن الجبل ، فقطعنا هنالك في أول المرحلة القاعة المعروفة بقاعة شِنِكْس — بكسر الشين المعجمة وكسر النون وسكون الكاف وبالسين المهملة آخراً — وبها أشجار زيتون متفرقة من بقايا الغرس القديم الذي كان هنالك قبل الإسلام وهي مثمرة إلى الآن ، وامتد السير بنا إلى وادي الرمل فكانت هذه المرحلة مشتملة على أربع مراحل ممّا تقدم لنا في المسير .

[٣١٩] ومنه يوم السبت الثامن عشر إلى طرابلس ، واشتملت هذه المرحلة / أيضاً على ثلاث مراحل ممّا تقدم ، فأقمت بطرابلس خمسة أيام ، آخرها يوم

الأربعاء الثاني والعشرين منه ، ثم خرجنا عنها فنزلنا يوم الخميس بزنزور فأقمنا بها يومنا ذلك ويوم الجمعة بعده ، ومنها يوم السبت إلى صرمان ، وقد ذكرت قبل هذا ، وعلى هذه القرية غابة زيتون ممتدة وبها قصر كبير يأوي إليه أهلها ، وقد حف به حفير متسع وابتنيت في أسفل الحفير دور كثيرة لا تُسكن إلاّ في وقت الأمن فإذا خافوا دخلوا إلى الحصن .

ومنها يوم الأحد إلى حصن تليل وقد تقدمت الإشارة إليه ، ومنه يوم الاثنين إلى قرية ولول وقد ذكرت ، ومنها يوم الثلاثاء إلى وطن ، وقد وصفناها قبل ، فأقمنا بها ثم ارتحلنا مقربين لمرحلة الغد بعد أن احتملنا ما يكفينا من الماء ، فبتنا بالمرسى المعروفـــة برأس المخبز ، وقد وصفناه قبل هذا .

وارتحلنا منه يوم الأربعاء فانتهينا إلى البئر المعروفة ببئر الزكرة فبتنا عليها ، ثم ارتحلنا عنها يوم الخميس غرّة صفر فنزلنا على المورد المعروف بخنافس ، وارتحلنا منه فانتهينا إلى المورد الآخر المسمى بنبش الذئب . فلم نجد فيه ماء ولم نحتج إليه لأنّنا كنا احتملنا معنا من الماء ما كفانا عنه ، ووجدنا على هذا المورد ركباً صغيراً قد وصل إليه قبل وصولنا بأيام يسيرة فلم يجدوا به ماء فهلكوا هنالك جميعاً ، فبتنا حيث ذكر ثمّ ارتحلنا من الغد فوصلنا إلى
[٣٢٠] أجاس ، وقد تقدم / ذكر هذه القرية . ومنها يوم السبت إلى واد يعرف بوادي الزَّرْكين — بفتح الزاي وسكون الراء وكسر الكاف — وهنالك سوانٍ لبعض المرابطين تسقى من آبار هنالك عذبة ، ومنه يوم الأحـــد إلى قابس فنزلنا برياضها المنسوب إلى عروسيها ، وأقمت بها يوم الأربعاء السابع لصفر .

وفي يوم الخميس الثامن منه كان ارتحالي عنها ، وتأخرت الحصّة عني

من هذه المنزلة منفصلة إلى البلاد الجريدية ، وكان النزول في هذا اليوم بالمباركة ، وقد ذكرت قبل هذا ، ومنها يوم الجمعة إلى المحرس وقد ذكر أيضاً ، ومنه يوم السبت إلى صفاقس ، وقد استوفينا الكلام عليها ، ومنها يوم الأحد إلى قرية تعرف بحجاي وهي قرية صغيرة على نحو هذه القرى الساحلية .

رحلة ابن بطوطة

[١٩] خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس ، وصحبنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس ، أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم ، وعصمنا الله منهم . وأظلنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل ، وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس ، فأقمنا بها مدة ، وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابلس ، ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عـــام ستة وعشرين وسبعمائة ومعي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة ، وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم . وأقام الركب في طرابلس خوفاً من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة [٢٠] ومسراتة وقصور سرت ، وهناك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا .

[٦٦٣] قال ابن جزي : حسب المتشوف إلى علم ما عند مولانا ، أيده الله ، من سداد القطر للمسلمين ، ودفاع القوم الكافرين ، ما فعله في فداء مدينة طرابلس إفريقية ، فإنّها لما استولى العدو عليها ، ومدّ يد العدوان إليها ، ورأى ، أيده الله ، أن بعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعد الأقطار ، كتب إلى خدامه ببلاد إفريقية أن يفدوها بالمال . ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين ، فلمّا بلغه خبر ذلك قال : الحمد لله الذي استرجعها من أيدي [٦٦٤] الكفار بهذا النزر / اليسير . وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقية ، وعادت المدينة إلى الإسلام على يديه ، ولم يخطر في الأوهام أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزراً يسيراً ، حتى جاء بها مولانا ، أيده الله ، مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة ، قلّ في الملوك أمثالها وعز عليهم منالها .

رحلة العياشي

[٥٩] وبعدما ارتحلنا من هذه الدار ووصلنا أوائل بلاد زواغة لقينا ركب الحجاج المغاربة الهابطين من أهل مراكش ومن انضاف إليهم ، وشيخهم أقدم أهل تلك الخطة في ولايتها ، وأولاهم بالتقديم لحفظ حدودها ورعايتها ، الشيخ إبراهيم الفران ، ومعه الحاج منصور الغسال ، وركبهم ليس بالقوي ، وتلقفنا منهم خبر ما استقبلناه من البلد ، ولقينا معهم بعض أهل بلدنا ، وبعثنا معه كتباً إلى من خلّفناه في بلدنا من الأهل والعشيرة والأصحاب ، وسيأتي ذكرها عند تعرضنا لذلك . وكان لقاؤنا للركب المذكور في أشد ما يكون من القلق ، ولم يستوعبوا لنا الأخبار التي تتشوف النفوس إليها ، بل وقفوا هنيّة ريثما دفع لهم من تيسر له كتاباً إلى أهله ، فتفرق الفريقان .

وسرنا ذلك اليوم وبتنا بزاوية حرمان ، ثم في الغد مررنا صباحاً بالزاوية الغربية ، وزرنا سيدي يحيى الكمودي ودعا لنا بخير وودعناه .

وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ ابن الولي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي خرج معهم يشيعهم إلى جربة ومعه صهره من أولاد سيدي حامد القاطنين بجربة ، وكان تزوج منهم امرأة وله دار هناك عندهم بجربة يأتيها الفينة بعد الفينة ، وهو ممن نفع الله به العباد في تلك النواحي وجمع الله القلوب على محبته وهابه الأمراء ، وانثال عليه للتبرك الأغنياء والفقراء . ولما التقينا به جلس معنا ساعة ، وزرناه ، ودعا لنا بخير .

وأمير ذلك الركب سيدي محمد ابن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد مدوكال [١] وله رباع ببسكرة وربما استوطنها . وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح وممّن كان يتردد بالركب إلى الحج الشريف . وتأكدت بينه وبين سيدي محمد بن الصيد الصحبة ، فلذلك نشأ الولدان على طريق والديهما — فجزى الله خيراً ولداً أنهج له والده سبيل الخير فاقتفاه ، وقام [٦٠] بالعهد في اتباع سلفه الصالح / ووقاه — .

وممّن لقيناه في ذلك الركب الحاج الأبرّ الشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي أخو الأمير العادل الشيخ أحمد والد أمير بلاد ريغ في هذا العهد ، وكان مجاوراً بالحرمين عدة من السنين وبيننا وبينه معرفة من قبل هذا ، وهو الذي شفانا من الأخبار . وأخبرنا بموت شيخنا القشاشي رضي الله عنه بالمدينة المنورة وبموت الغوث الأعظم بمكّة السيد محمد باعلوي وبموت الشيخ أبي الحسن الطبري بمكّة أيضاً وغير ذلك من الأخبار . ثم ودعنا وسرنا يومنا وبتنا قرب زنزور ثم ارتحلنا منه قاصدين إلى مدينة طرابلس أمّنها الله وبينها وبين هذه البلدة نحو من اثني عشر ميلاً .

ذكر دخولنا لمدينة طرابلس حماها الله من الأغيار

كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهي مدينة مساحتها صغيرة . وخيراتها كثيرة ، ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة . ومعايبها قليلة ، أنيقة البناء ، فسيحة الفِناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، واسعة طرقها ، سهل طروقها ، إلى ما جمع

١ في نسخة : هروكال .

لأهلها من زكاء الأوصاف ، وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغواً إلا سلاماً ، ولو لمن استحق ملاماً ، سيّما مع الحجاج الواردين ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون في إكرامهم ، ولا يألون جهداً في إفضالهم عليهم وإنعامهم . ولهذه المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها . والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر ، بينه وبين البحر .

ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو دمرهم الله ، وله مراكب قلّ نظيرها معدة للجهاد في البحر قلّما تسافر وترجع بغير غنيمة ، وقلّما أُسرت فهم سفينة إلاّ أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيراً وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين .

وكانت عادة الركب إذا دخل هذه المدينة سيّما في الذهاب ، أن يقيموا بها نحواً من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التي قلّ نظيرها ، وهي مفازة برقة . ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الإبل والقرب ويتخذون زادَ نحوٍ من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاء ، وإن كان صيفاً فنحو من شهرين . وإبلُ عمالة طرابلس غاية في الجودة قلّ أن يوجد لها نظير ، [٦١] شبيهة بإبل بلدنا بل تزيد هي عليها بكثرة الخدمة ، / فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراس ويسنون [١] عليها ويديرون الرحى فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هواء البلدة ونقاء مرعاها فيقل فيها الغش وتندر أمراضها ، ولذا قيل في أمثال الحجاج : جمل طرابلسي وقربة مصراتية [٢] لأن قِرب هذه البلد [ة] ردية الدباغ ، وماؤها خبيث المساغ ، ومع ذلك لا

١ أي يستعملونها في السواني ، وهي كالنواعير في المشرق .
٢ في المطبوعة : مصرية .

تُمْسك من الشراب إلا كما يُمْسك الماءَ الغرابيلُ[١] ؛ من اتكل عليها أوسعت عليه الريّ أوّلَ المسافة ، وأوردته آخرها موارد التلف والمخافة .

وهذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين في أمر معاشهم ، فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآتين خمسة أو ستة ، ويصادف ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد ، ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم بل ربما نقص في البلد ، مع أن البلد في كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله ؛ إلاّ أن أهلها مستكفون بها غاية وراضون بها إلى النهاية وهي جديرة بذلك .

وإذا اجتمع الأركاب فيها كثر الزحام على الأراحي غاية ، فيلاقي الحجاج من ذلك مشقّة ، ولولا ما جُبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين سيّما مَنْ لم تطلْ إقامته كركبنا في هذه السنة ، فإنّا لم نقم بها إلا نحو العشرة أيام ، وذلك شأن ركب الإبل الواردين على الصحراء في كل سنة فإنهم يتأخرون ويستصحبون معهم جل ما يحتاجون من إبل وقِرب فلا يزيدون منها إلاّ قليلاً وإنّما يحتاجون فيها إلى اتخاذ الزاد فقط . وأمّا ركب الجريد ، أهل البغال والحمير ، فتطول إقامتهم بها في الغالب وربما أقاموا الشهرين أو أزيد لبيع الدواب وشراء ما تقدم ذكره ، فكأنهم يستأنفون منها سفراً من غير السفر الذي كانوا فيه قبل ذلك ، لأنّه مخالف له في كثير من أحواله حتى كأنّه لا يشاركه إلا في مطلق السفر ، ولذلك تجد ممّن لم يتقدم له حج يشق عليه الخروج من طرابلس أكثر من الخروج من بلده ، وكذلك الخروج من مصر بالنسبة إلى ما قبله .

١ في نسخة : الغربال .

نسأل الله العون والتوفيق على سلوك أحسن طريق .

وكان نزولنا يوم دخولنا طرابلس في المحل الذي كنا نزل فيه قبل ذلك في مصرية[١] على باب المسجد المسمى بجامع الحاج إبراهيم بأقصى المدينة قرب ضريح وليّ الله تعالى سيدي سالم المشاط . وكان إمام هذا المسجد صاحبنا الفقيه النبيه الورع النزيه سيدي أحمد بن عيسى اليربوعي وكان من أماثل هذا
[٦٢] البلد علماً وورعاً وزكاء أخلاق وطيب / أعراق . وكان أبوه سيدي عيسى هو قاضي المدينة منذ أزمان كثيرة ، فلمّا توفّي أبوه تولى هو القضاء وحُمدت سيرته فيه وتحلى بحلية العدل ثم استعفى منه فأُعفي ، ثم أعيد ثانية وبعُد[٢] صيته وانتشر الثناء عليه وكثر حامدوه إلى أن توفّي قبل وصولنا بأشهر قليلة ، وكثر تفجع الناس عليه وأعقب الذكر الجميل فيهم . فلمّا سمعنا خبر موته تفجعنا لفقده ، وكان لنا في تلك المدينة أحسن رفيق ، وأعظم معين في النوائب شفيق ، رحمة الله عليه تترى ، ورضوانه دنيا وأخرى . وبعد وفاته لم يجد أهلُ حومته أفضلَ من ولده سيدي محمد بن أحمد لتولية المسجد المذكور والصلاة فيه ، فقام بذلك وهو سائر إن شاء الله على سير أبيه ، والله يعينه على ما تولاّه ، ويرزقه القيام بشكر ما أولاه . وقد تلقانا يوم قدومنا أحسن الملاقاة ، وقام ببعض الواجب ممّا كان يقوم به والده رحمه الله ، وهيأ لنا المنزل وأعان في المحتاج من اتخاذ الزاد من طحن وتوابعه .

ولما اطمأن بنا المنزل ذهبنا لزيارة شيخنا مفتي البلد سيدي محمد بن أحمد ابن مساهل رضي الله عنه ، فلقينا أحسن الملاقاة وفرح بقدومنا ، فجزاه الله خيراً . ووجدناه — رضي الله عنه — قد استعفى من الفتوى فأُعفي وبقي ملازماً

١ المصرية : غرفة علوية .
٢ في نسخة : وعظم .

لداره ومسجده للتدريس فيه مستريحاً من التكاليف ، مشتغلاً بمطالعة التآليف ، ولا يقطع القراءة في الغالب صباحاً ومساء ، شتاءً وصيفاً ، يقرأ ما تيسّر من فقه ونحو وما يشاكل ذلك ، ويختم بشيء من كتب الوعظ والتذكير .

وهذا الشيخ رضي الله عنه من أحسن ما رأينا سمتاً وعقلاً ، وأصدقهم قولاً وفعلاً ، له مشاركة في العلوم وحسن اطلاع على فروع المذهب ، طالت ولايته للفتوى نحو الأربعين سنة وحُمدت سيرته فيها ، وله مع ذلك ميل قوي إلى طريق القوم . وقد أخذ الطريق عن ولي الله بلا نزاع ، بين تلك البقاع ، سيدي محمد الصيد رضي الله عنه ، والصيد في لغة أهل هذا القطر هو الأسد ، وسمي بذلك لكثرة ردعه للظلّام وقهره للجبابرة حتى كان لا يجترىء أحد على معارضته فيما أمر به ولا يتعرض لمن انتسب إليه . وظهرت له كرامات . وقد أخذ الطريق عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة ، وهو أخذ عن الولي الكبير ، والعلَم الشهير ، سيدي أبي عَمّر القسطلي المراكشي[1] . ولأجل هذه النسبة لم يزل ولد الشيخ المذكور سيدي عبد الحفيظ يبالغ في تعظيم أولاد سيدي أبي عَمّر ، بل في تعظيم كل من يمت إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك ، وإن اتفق / قدوم أحد منهم عليه فلا يبقي ولا يذر في إكرامه والمثول بين يديه كأصغر الخدام وأحقرهم . [٦٣]

ولقد حج معنا سنة ستين سيدي محمد بن أبي القاسم من أولاد سيدي أبي

١ إضافة من نسخة ط : الحمد لله ، من خط بعض العلماء الشرفاء الفضلاء ما نصه : من أصحاب الشيخ أبي محمد عبد الكريم الفلاح الشيخ أبو عمر – قال في الدوحة : بفتح العين المهملة والميم وسكون الراء – ابن أحمد بن أبي القاسم الأندلسي القسطلي نسبة إلى قسطلة بفتح القاف وسكون السين بعدها طاء مفتوحة ثم لام مشددة ، بلدة بالأندلس ، المراكشي . ذكر الشيخ أبو العباس ابن أبي محل أنه من ذرية ابن الدراج القسطلي الأندلسي المشهور في ذخيرة ابن بسام وغيرها . وترجمه في الدوحة والمرآة والمنتع وغيرها .

عَمّر وتلقاه بالبر والتعظيم وأنزله عنده وبالغ في إكرامه وشيّعه في الذهاب والإياب نحواً من سبع مراحل .

ولقد أخبرني من حضره ذات يوم وقد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم يده صباحاً ورأسه من حنّاء كان بها في إناء ، فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء وشربه ؛ نفعه الله بحسن اعتقاده .

ولهذا السيد اعتقاد حسن في كل من ينتسب إلى الصلاح وقد نفعه الله بذلك ، فطار صيته وانتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه وهابه الولاة فمن دونهم . وله كما قيل دنيا عريضة من كل المال قد آتاه الله : نعماً وحرثاً وغيرهما يطعم منها الواردين ويواسي المحتاجين . أعانه الله على ما به تولاه ، ورزقه الشكر على ما أولاه .

وتوفّي الولي أبوه سيدي محمد الصيد سنة خمسين وألف .

وقد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل أنّه منذ عرفه لم يترك صلاة الجمعة عنده إلا لعذر ظاهر . ولم يزل على ذلك إلى الآن منذ أزيد من أربعين سنة ، يذهب كل يوم جمعة ضحى إلى محل الشيخ المذكور بالقرية المسماة باهنشير[1] وبينها وبين المدينة ستة أميال فيصلي هناك الجمعة ويدرس هناك في مسجد الشيخ إلى أن يصلي العصر ويرجع إلى المدينة لا يترك ذلك دائماً .

لطيفة : أخبرني شيخنا هذا أن الشيخ المذكور قال له : إن لأهل الله مراغةً كمراغة الإبل لا يمر بها أحد منهم إلا تمرغ بها ، وإنّي لأرجو أن يجعلك الله مراغة لأوليائه ؛ ولأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب إلى هذه الطريق المباركة إلا كان إيواؤه إلى هذا الشيخ إما بنزول عنده أو بالتردد إليه . وكان رضي الله عنه يقوم بحوائجهم قدر الإمكان

١ في نسخة : بالنهشير .

ويواسيهم ، نفعه الله بقصده الجميل . ولقد وجدناه في هذه السنة منقبضاً منزوياً عن أكثر الناس لأجل ما حصل له من التوجع على صهره زوج ابنته . وكان من شأنه أنّه كان هو وأخوه من طلبته ، وكان من أنجب طلبة الحنفية ، وزوّجهما الشيخ ابنتيه ، فلم يزل حاظما في الرضى إلى أن تولى أكبرهما فتوى الحنفية ، وكانت له المنزلة الرفيعة في البلد وعند العسكر . وكان الشريف المتولي لطرابلس قبل محمد باشا المقتول سنة أربعين وألف قد خلّف ولداً صغيراً وبقي في كفالة خديمه محمد باشا الذي ولي الإمارة بعده . فلمّا مات وأفضت الإمارة إلى عثمان باشا مملوك الشريف المذكور / رفع بضبعَي ولد [٦٤] سيده ورقاه مراقي الرئاسة . فلمّا تمكنت قهرية الرئاسة الممزوجة بحداثة السن من رأسه ، منّته نفسه الثورة على مملوك أبيه عثمان باشا وظن أن المراتب الدنيوية بالاستحقاق ، وأن نسبه الرفيع يحصل له به في سوق الولاية نَفاق ، ولم يعلم أن :

الناسُ أعوان من واتتهُ دولته وهم عليه إذا خانته أعوانُ

وصادف ذلك ملال من الرعية لولاية هذا الأمير لكثرة ظلم أعوانه في الجباية ، فمالت أنفس كثير منهم إلى مقالة الشريف ، ورشح ذلك عندهم تأزره واعتضاده بولد نوير رئيس عرب الناحية الغربية من طرابلس وكان ذا شهامة وبأس شديد وقد أظلم الجو بينه وبين أمير البلد فاتفقت كلمته وكلمة الشريف ومن دان بدينهم من الرعية كأهل تاجورا ، وساعدهم على ذلك مفتي الحنفية المذكور وطائفة قليلة من العسكر . فلما كاد أمرهم أن يتم وتَمُتّ على سريرتهم أسارير أوجههم وإشارات أقوالهم ، وشى بذلك إلى الأمير بعض بطانتهم ممّن أراد بذلك اتخاذ يد عنده . فأوجس الأمير في نفسه خيفة منهم وكان ممن لا يقعقَع له بالشنان فاحتال بالقبض عليهم

خفية ، وأظهر التجاهل والغفلة عن أمرهم ، وبادر بالخروج إلى ناحية تاجورا حيث محل ربطهم وحلهم ، وأوعز إلى بطانته بعد تحصين البلد بالقبض على الشريف والمفتي ومن ساعدهم إثر خروجه ، وأظهر للرعية عدم المبالاة بذلك وقال : قد علمت أنّكم برءاء ممّا نسب إليكم ، يخدعهم بذلك لئلاّ يثوروا ثورة واحدة . واستعان على تسكين روعتهم بالشيخ سيدي عبد الحفيظ وخضع له وتذلل . فلمّا رأت الرعية استكانته بجانب الشيخ اطمأنوا ، ولم يزل كذلك إلى أن فرغ من أمر الشريف وأتباعه فكرّ على الرعية بقتل ذي الرأي وإغرام أتباعهم بما جعلهم عبرة لغيرهم . فلمّا خلا له الجو من هذه الطائفة ، أخذ يتجسس عن كل من مالأهم بكلمة أو إشارة . فربما أشير إليه بأن شيخنا سيدي محمد بن مساهل ممن له في ذلك إشارة مرشحاً ذلك بأن صهره مفتي الحنفية لا يقطع أمراً دونه . فتنكر له الأمير في باطنه ولم يُبْدِه للناس لوجاهة الشيخ في البلد بعلمه وورعه . فلمّا علم الشيخ بذلك استعفى من الفتوى فأُعفي ، وبقي ملازماً لداره ومسجده للتدريس فيه مستراحاً من التكاليف ، مشتغلاً بمطالعة التآليف ، رضي الله عنه وأرضاه .

لطيفة : أخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشايخه أنّه قال : إذا [٦٥] أذّنَ خلْفَ مسافر فذلك أمان له حتى يرجع[1] / وروى ذلك حديثاً وقد فعل لنا ذلك رضي الله عنه حين ودعنا خارج داره فرأينا بركته ولله الحمد .

غريبة : أخبرني أيضاً أن سيدي علي الخضيري[2] ذكر في شرحه على المختصر أن الزّباد المسمى في عُرفِ غربنا بالغالية نجس وإن كان عرق حي لمروره بمحل البول . قال : وكان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك وأظنه

---

١ في نسخة : الأذان خلف المسافر أمان حتى يرجع .
٢ في نسخة : الخضري .

شيخنا اللقاني . قال شيخنا : وكنت أتوهم ذلك إلى أن بعثت بحضرة الشيخ سيدي عبد الحفيظ إلى قط من القطوط التي يستخرج منها الزباد ، وكان عند بعض الأتراك ؛ فلمّا أحضر ، أمرنا متولي استخراج الزباد منه بإخراجه بحضرتنا ففعل فساعدنا محل اجتماع ذلك منه خارجاً عن محل البول لا يمر به أصلاً وإنّما هو جلدة رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيها ذلك العرق وتشتد عليه وتنطوي حتى يؤخذ منها . فقال : فحينئذ اطمأنّتْ نفوسنا وأيقنّا بطهارته .

غريبة : أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه أنّهم سمعوا في سنة اثنتين وستين وألف صوتاً هائلاً في ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل . قال : وظنناه سفناً للمسلمين تلاقت مع بعض سفن النصارى . وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مسراتة وسمعه حتى أهل فزارة والإسكندرية وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس وكلٌّ يظن أنّه قريب منه . وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من برّ الترك وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل ، وذلك أن جزيرة من جزر برّ الترك خرجت في بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر ، حتى إذا ارتفعت على الماء ، وعلت في الهواء ، تصدعت فيخرج منها نار ، ويُسمع لها ذلك الصوت ، فإذا خرجت النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الجفافة ، ودام ذلك إلى الليل وارتفع من ذلك في الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت .

وأعجب من هذا أنّهم قالوا إنّه أصبح في ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاساً في تلك الليلة ، والله أعلم بغيبه .

وهذه المدينة معروفة بأهل الصدق في الأحوال من المجاذيب ، وقد

أدركنا بها رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عنهم كرامات وحكايات غريبة تدل على صدقهم في مواجدهم . وكانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر الصالحين ، ولا يُعرف منهم الآن إلاّ قليل كسيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة ، وقبره يزار .

[٦٦] وسبب خفاء كثير من قبور الصالحين / المدفونين فيها أن البلد قد تداولته أيدي المسلمين والنصارى مراراً عديدة . فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان وافتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب العين ، فَعُدَّ ذلك من مآثره ، وقد استولى عليها النصارى أيضاً في القرن العاشر .

لطيفة : ممّن لقيته بطرابلس من أفاضل أهلها سيدي شعبان بن مساهل ابن عم شيخنا المذكور وكانت له معرفة بنوادر من التاريخ وجزئيات من علم النجوم . وممّا أفادنيه من التواريخ أن الترك دخلوا تونس وأخذوا حلق الوادي من أيدي النصارى عام اثنين وثمانين وتسعمائة .

قلت : وسمعت من غير واحد أن مولاي عبد المالك صاحب الغزوة الكبرى كان حاضراً مع الترك في دخول تونس لما جاءهم مستصرخاً على ابن أخيه محمد الشيخ وأبلى فيها بلاء حسناً وبعد ذلك أمدّوه بالعساكر لما ظهر لهم من شهامته . إلى أن كان من أمره مع ولد أخيه ما كان . فرضي الله عنه من ملك كان بدء أمره الجهاد وختامه الجهاد . والبدايات كما قيل مَجْلاة النهايات ، فمن طابت بدايته زكت نهايته .

وممّا أفادنيه من تاريخ هذا البلد أن العدو دمره الله استولى على هذه المدينة الاستيلاء الأخير سنة ست عشرة وتسعمائة يوم ستة عشر من المحرم ، وافتكت منه عام ثمانية وخمسين وتسعمائة وتاريخه : « نقطة قولك جاء

الترك بهن » وافتكها منهم درغوت باشا ، وكان بجربة ، ومراد باشا وكان بمسلاتة . وبقي فيها درغوت إلى أن توفّي بها وقبره الآن يزار وعليه بناء عظيم .

وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من اصطنبول مدداً للعمارة الحاصرة بحلق الوادي بتونس . فمرت سواحلَ طرابلس فكلمهم أهل السواحل في إعانتهم على النصارى ، فقالوا : إنّا لم نؤمر بذلك من السلطان . فقال لهم الباشا مراد : أعينوني في هذا الأمر ، فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم ، فحاصروها برّاً وبحراً إلى أن أخذوها ، فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان وقال له : إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء ، فرضي عنه وعنهم وأكرمهم .

وأمّا أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قصة غريبة وهي أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس بهم غَنَاء ولا لهم بالحرب خبرة . فبينما هم كذلك ، قدمت سفن للنصارى تجاراً بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى ، فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها . ثم استضافهم رجل آخر ، فصنع لهم طعاماً فاخراً ، فلمّا أخرج لهم الطعام أخذ / ياقوتة فدقها دقّاً ناعماً وذرّها على طعامهم ، [٦٧] فبهتوا من ذلك ، فلمّا فرغوا قدم لهم دلاّعاً فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين . فلمّا رجعوا إلى بلدهم ، سألهم ملكهم عن حال البلدة التي قدموا منها فقالوا : ما رأينا بلدة أكثر منها مالاً ، وأقل سلاحاً ، وأعجز أهلاً عن مدافعة عدو . فحكوا له الحكايتين ، فتأهّب ملكهم لدخولها في مراكب البحر ، فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة واستولى عليها ولم ينجُ من أهلها إلا من تسوّر ليلاً .

وانحاز المسلمون إلى تاجورا وجبال غريان ومسلاتة وصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور .

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه « نزهة الناظرين »[١] عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان ما نصّه : وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلاد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص ، فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها ، وصاروا تحت حكم الافرنج ، وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد ؛ فلمّا بلغ السلطان سليم ذلك ، أرسل مائتي غراب مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة ذلك سنان باشا وقلج علي باشا ، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف . فنصر الله المسلمين بعد أن قتل منهم نحو العشرة آلاف مع الحصار العديد والقتال الشديد .

ومن العجائب أن الافرنج كانوا أنشأوا هناك حصناً حصيناً وقلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثاً وأربعين سنة ، فافتتحها المسلمون صحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوماً من أيام محاصرتها وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة . ثم خرب الوزير القلاع والحصون ولم يبقِ لها رسماً .

ووصلت البشائر للسلطان سليم وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني

١ هو نزهة الناظرين في تاريخ من تولى مصر بعد فتح الصحابة من الأمراء والسلاطين ، مختصر لمرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي الأزهري المتوفى في سنة ١٠٣٣ ألفه لعزمي زاده قاضي مصر (كشف الظنون : ١٩٤٨) .

سنة فلم يمهله الأجل ، رحمه الله .

ويوم دخولنا هذه المدينة لقينا أصحابنا الفاسيون القافلون من الحج وفيهم مُحبّنا سيدي طاهر بن رضوان الخزرجي وأخبرني بأعظم الرزية وأجمع البلية موت أخينا في الله المواتي ، المساعد فيما يذر وما يأتي ، الحبيب الشقيق ، خير خل وأزكى رفيق ، العلامة اللوذعي ، الرحالة الألمعي ، سيدي محمد
[٦٨] المنقوشي / سقى الله قبره شآبيب الرحمة والرضوان ، وجعله ممن يستبشر بقدومه رضوان ، وذلك في شهر الله محرم الحرام فاتح سنة اثنتين وسبعين وألف بمدينة القسطنطينة العظمى ، مات شهيداً بالوباء بعد دخولها بثلاثة أيام ؛ وكان رحمه الله قبل ذلك كثيراً ما يلهج بها ويؤمل المشي إليها ويشتاقها اشتياق المرء بلده ، فصارت بعد ذلك ملحده .

وقد ذكر لي أنّه لمعت بارقة من نور على قبره ، ولا يُستبعَد ذلك من أمره ، شهيد الوباء والغربة وقاصد الحج وطالب علم إلى غير ذلك من سيرته الحسنة . وقد بنى أخوه على قبره فصار مزاراً ، حطّ الله عنه بذلك آثاماً وأوزاراً .

ومن هناك كتبنا لأصحابنا الفاسيين ومشايخنا المهديين ، ومن جملة ما كتبت قصيدة تائية ليست عن صوب الصواب نائية ، خاطبت بها أصحابنا واستطردت بعدهم السلام على مشايخنا كلاًّ باسمه ، محلّى ببعض رسمه . وبعد إتمامها أتاني النبأ الفظيع ، والخبر الوجيع ، بموت أخينا المتقدم ، فزدت فيها نحواً من أربعين بيتاً في رثائه وستأتي بجملتها عند ذكر الكتب التي بعثت بها من طرابلس [١] .

١ قد حذفنا هذا القسم لعدم تعلقه بما نحن بصدده .

وممّن لقيته بطرابلس فقيهها الشاب الزكي ، الفقيه اللوذعي ، خير خلف ، عن خير سلف ، سيدي محمد المكّي وبيته بيت علم من لدن أسلافه الكرام ، وأبوه سيدي محمد المكّي كان من أعلم أهل ذلك الساحل . تولى الفتوى ببلده مراراً واشتغل بالتدريس وله مشاركة حسنة في فنون كثيرة . توفّي قريباً من سنة ست وخمسين وألف ولم يخلّف إلا ولده هذا . واشتغل بالقراءة على شيخنا سيدي محمد بن مساهل وعلى غيره ، وكان له ذكاء عقل ، وزيادة نبل ، فمهر في فنون عديدة وفاق أقرانه . فلما عزل شيخنا ابن مساهل عن الفتوى حسبما تقدم ، وليها هو ، فحُمدت سيرته فيها وظهرت نجابته ، وسدّد في فتواه . وولي أيضاً تدريس الجامع الكبير والخطابة والإمامة به . لقيته بداره ولم تطل مجالستي له واستعرت منه « المطوّل » لسعد الدين فأعاره . وكانت له خزانة كتب ليس مثلها لأحد من أهل بلده ، ثم استعرت منه بعد ذلك العضد على مختصر ابن الحاجب ، وكان ذلك قرب رحيلنا ، فأعاره . وكتبت له مع الرسول بيتين وهما :

فمنّوا بهِ قبلَ الرحيلِ لنا كما ... تطوّلتمُ من قبله بالمطوّلِ
فإنّكمُ أهلٌ لكلّ فضيلةٍ ... كما أنكم أهلٌ لكلّ تفضّلِ

[٨٨] ذكر رحيلنا من مدينة طرابلس حماها الله بمنه وكرمه

وكان رحيلنا منها يوم السبت السادس والعشرين من رجب وصادف
[٨٩] ذلك / خروج سفن الأمير بقصدِ جهاد أعداء الدين ، وهي ست سفن فيها نحو من ألفي مقاتل خرجت مجتمعة ، وذلك شأنهم إذا خرجوا للجهاد إرهاباً للعدو ، وكان يوم خروجها وخروج الحجاج يوماً مشهوداً ، وتفاءل الناس

بذلك لحصول الغنيمة ، وكان الأمر كذلك ، والحمد لله حق حمده .

وفي الليلة التي خرجنا صبيحتها تمكن الحجاج الذين يبيتون في الركب ويحرسون الإبل والأمتعة من سارقٍ دخل عليهم ليلاً في خباء ، وأوثقوه إلى الصباح ، فجاء أصحاب الأمير فعرفوه وأخذوه ، وكان مشهوراً بالتلصص عندهم معروفاً بالسرقة ، طالما راموا القبض عليه فلم يتمكنوا منه إلى أن أخذه الله على أيدي الحجاج ، فأمر الأمير بخنقه ، فخنق على باب المدينة وترك هناك معلقاً فكان نكالاً لغيره .

وخارج مدينة طرابلس وسائر عمالتها أكثر البلاد سرقة ، وأعرابها أعلمُ الناس باستعمال الحيل في ذلك ، مع إقدام وهجوم بالليل إن تمكنوا من ذلك ؛ يبيت الحجاج فيها طول ليلهم في ضجيج وعجيج وصياح ونباح وإيقاد نار خارج المنازل وضرب بالمكاحل ، ومع ذلك قلّما سلمت لهم ليلة من سرقة شيء ، والله من ورائهم محيط ، والملتجيء بجنابه محفوظ .

ولما خرجنا على باب المدينة منعنا البوابون من الخروج طلباً للمكس زعماً منهم أن معنا بعض أحمال ليست للحجاج ، وقد صدقوا في زعمهم ، إلا أنّا أنكرنا ذلك صوناً لمن التجأ إلينا من بعضِ من تعلّقَ بنا من أهل البلد . ثم دخلت أنا وأمير الركب إلى باشة البلد فكلمناه في ذلك ، وأحسنَ وأفضلَ في المقال ، وصدق ذلك حسن الفعال ؛ فبعث بعض خدامه إلى البواب ألاّ يتعرض للحجاج فيما أرادوا إخراجه ، وذلك دأبه مع الحجّاج جازاه الله خيراً : ألا يهتك لهم حرمة ولا يضيم لهم جانباً ؛ وكانت العادة أن من اشتد عليه المغرم من الرعية وأراد الخروج من البلد والفرار لا يتركونه إلاّ إن كان مع الركب فلا يتعرض له فيذهب مع الركب منهم ما يكون في بعض الأحيان أضعافه . فلمّا دخلنا على الباشة تلطف في المقال وقال لأمير الركب : إن هذا

بلدكم وأنتم لا تحبون خلاءه ، فنطلب منكم ألا تتركوا أحداً من هؤلاء الفارين يذهب معكم ، فإن ذلك يشق علينا ولا نريد التعرض لهم معكم ؛ فقال له أمير الركب : نحن لا نمنع أحداً التجأ إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن منعتموه قبل أن يصل إلينا فذاك ، وإلاّ فلا يمكننا ذلك . وخرج معنا بقصد الوداع أخونا سيدي محمد ابن محبنا سيدي أحمد بن عيسى وبات معنا ليلة .

وكانت عادة الأركاب المبيت بتاجورا ويضيفونهم ضيافةً حسنة . ولما [٩٠] تأخر خروج الركب هذه السنة عن عادته استعجلوا السير ولم يبيتوا بتاجورا ، وجاوزوها بأميال إلى موضع يقال له سِدْرات العشار على ساحل البحر . ثم ارتحلنا منه ومررنا بموضع يقال له وادي الرمل ، وهو وادٍ مخصب من أعلاه ، فيه مزارع ، تخرج إليه ماشية أهل طرابلس وسواحلها أيام الربيع وربما أخرج الحجاج إليه إبلهم مع رعاتها إن طالت إقامتهم بطرابلس . ثم مررنا في يومنا أيضاً بوادي المسيل وهو مثل الذي قبله أو أخصب منه ، وماؤه غزير لا ينقطع صيفاً ولا شتاء ويكثر في أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها . ولم نبت حتى تجاوزنا هذا الوادي بأميال كثيرة ووجدت تلك البلاد مخصبة غاية .

وفي تلك المرحلة تعرفنا برجل قدم معنا في الركب زعم أنه شريف وأنه من أهل المدينة المشرّفة ، وأحد بوّابي باب الرحمة من[1] أبواب الحرم الشريف ، وزعم أن الشريف زيد أمير الحرمين بعثه بكتاب إلى تونس لجمع أوقاف الحرمين التي بها ، وعامله أمير تونس محمودا بإحسان غزير ، وقدم مع ركب أهل تونس ، فلمّا وصل طرابلس غضب عليهم زعماً منه أنهم لم

١ في نسخة : أحد .

يقوموا بحقّه ، فجاء لركبنا فعظمناه غاية التعظيم لنسبه ووطنه الذي انتسب إليه ، وكانت فيه دعابة فحمله الناس على ما هو عليه . ولما وصلنا إلى مصر تبين كذبه فيما زعم من أنّه من أهل المدينة .

ثم ارتحلنا من هناك ومررنا تحت وادي ينوت وهو واد ينزل من جبال مسلاتة وعليه مزارع إلاّ أن ماءه قليل يستقي منه الركب إن اضطرهم العطش إليه أيامَ الحر ، وهو على يمين الذاهب داخلاً في أصل الجبل قليلاً .

غريبة : أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة القدس محمد النفاتي التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف أنّه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي ، وكان أميرَ الركب ، فمروا بهذا المكان في زمان القيظ فألجأهم العطش إلى بئر في وادي ينوت فنزلوا عليها قائلة ، ووافتهم هناك قفول قدمت من فزّان حاجتُهُمْ مثل حاجتهم ، فذهب الناس إلى البئر فنزحوا ما فيها من الماء فلم يشفِ بعض أوامهم ورجع الناس مغمومين فمن قائل : نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك ، ومن قائل : نؤخر إلى آخر النهار . قال لي الشيخ : فدخلت على أخي فأخبرته بذلك وقلت له : إن الناس قد أشرفوا على الهلاك واضطرب أمرهم في الرحيل فمرهم بالرحيل لئلاّ يهلكوا . قال : فاغتمّ لذلك واستند في خبائه كالنائم ، فلمّا أفاق قال لي : نادِ في الناس بالإقامة وقل لهم يذهبون لسقي الماء . فقلت له : أبكَ جنون ؟ أنا أُخبرك أنّه
[٩١] لا قطرة / في البئر ، والناس قد أشرفوا على الهلاك . فقال لي : افعل ما أمرتك . فقلت له : لست بأحمق أُنادي في الناس بالإقامة على غير ماء ، فلمّا أبيت نادى خديمه الغلام وقال له : نادِ في الناس بالإقامة والذهاب لسقي الماء . فلمّا سمعت ذلك استحييت وتغيبت . فأقام الناس وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جوانبها فاستقى الحجاج وجميع

القوافل حاجتهم والماء كما هو . قال لي الشيخ : فلمّا رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر ، فقال لي : إنّي لما أغفيت عندما أخبرتني بخبر الناس رأيت النبي صلى الله عليه وسلّم في النوم فقال لي : مُرِ الناس بالإقامة ، فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرجاً . قلت : ولا يستبعد ذلك في حق وفد الله وزوار نبيه صلى الله عليه وسلّم ، فإن لله بهم عناية ، ولهم منه أعظم وقاية .

وقد أخبرني عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا في سفرته تلك ، وفيها توفّي بقرية الينبع التي ينزلها الحاج ، وقبره إلى الآن ظاهر وعليه بناء ضعيف على تل مشرف بحريّ منزل الركب المغربي بالينبع . وكنا نزور قبل هذا ذلك المحل ولا نعلم من دفن فيه حتى أعلمني به القاضي المذكور ، والله يتغمدنا وإياه برحمته ويغمرنا في الدنيا والآخرة بجزيل نعمته ، آمين آمين آمين .

ولم نزل نسير يومنا ذلك في أرض مخصبة ذات غياض وشعوب متوعرة إلى أن بتنا تحت جبل النكازة أسفل العقبة ووجدنا هنالك ماء طيباً غادرته السيول في سد مبنيّ أعظم بناء . وبتنا في أنعم حال بين ماء وكلإ وحطب لولا ما شانه من سهر الناس خوف السرقة لكون المحل كثير الأحجار والأشجار بسفح جبل ، وهناك تسوقنا أهل جبال مسلاتة بزيت كثير طيب رخيص اشترى الناس منه حاجتهم . وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقاً ، سيّما ضرب منه يسمونه ضرب الماء يعصرونه بالماء ولا أدري كيف يصنعون بذلك لا تكاد تميز بينه وبين السمن .

ثم ارتحلنا من هناك وقطعنا الجبل ، وهو منتهى الجبال في تلك البلاد ، وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولاً وعرضاً وخصباً وماء وقرى متصلة وعمران متراكب وقبائل وافرة غالبها بربر . وأوله من البحر المحيط

أطراف السوس الأقصى ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبلي مراكش وهو المسمى بجبل دَرَن . ثم يمر كذلك إلى بلادنا ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان ثم لم يزل يساير البحر وإن كان يبعد عنه في بعض المواضع ويسمى في كل موضع باسم ، وربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم ، إلى أن انتهى هنا بأطراف برقة . وقال صاحب « تقويم البلدان » إنّه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل .

[٩٢] قلت : وكأنّه جعل بلاد برقة كلّها والجبل الأخضر منه ، لأن أرض برقة مرتفعة على ما يجاورها من بلاد فزان ونواحيها والبحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل . والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي اقتصر عليه غيره ؛ فغرب هذا الجبل في كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار وعيون وأشجار ، وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال من البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة .

وفي هذا المحل الذي قطعناه منّه آثار أبنية كثيرة ، وفي سفحه الذي يلي ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت في العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها ، قد أكل البحر كثيراً منها وفيها مبان عظيمة ، وهياكل جسيمة ، وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان ، قد هرم الدهر وما هرمت ، وتعاقبت عليها الأزمنة وما ثلمت ، فترى الأبنية ماثلة متقابلة على رؤوس الجبال مدّ البصر بحيث يقضي الحدس أن كل ما كان داخلها كأنّه مدينة واحدة إلى البحر ، وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يُرتاب أن البحر قد أكل كثيراً منها . ومن هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرها من البلدان . ويقال إن بانيها الملك دقيوس ، وبعد وفاته

تملكتها امرأة اسمها رومية . وبعضهم ذكر أن النمرود لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين وبعث ولده وأمره أن يبني مدينة بالمغرب ، فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر فيه ، وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم متصل من حرف الوادي إلى أطراف المدينة ، إلاّ أن ماء هذا الوادي الآن قليل آجن . ويزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادي كان حلواً غزيراً أيام عمارة المدينة . وكان ممّا يتواتر[1] عند أهلها أنّه إذا بدت فيه الملوحة فذلك علامة خرابها ؛ فلمّا بدت فيه الملوحة أخذ أهلها في الانتقال منها ، والله أعلم أي ذلك كان . وقد ذكر العبدري هذه المدينة في رحلته وذكر أنّه وجدها خالية . والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام ، إذ لم يذكرها أحد ممّن ذكر فتوح إفريقية ، والله أعلم بغيبه .

غريبة : أخبرني بعض أهل تلك البلاد أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا ولم يدرِ ما سببه ، فأمر بشقّ بطن واحد منهم ، فشق عن قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم ، فأمر بصبّ جميع الأدوية عليها واحداً فواحداً فلم تمت حتى أخرج زيتاً كان عنده

[٩٣] في قارورة جاء به من أرض الشام / فصبّ عليها قطرة من زيت فماتت ، فعلم أن دواء ذلك المرض أكل الزيت ، فبعث إلى الشام وجاءه غرسُ الزيتون ، فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلّها من مسلاتة إلى سوسة وتونس وأعمالها . ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد ، والله أعلم .

وبعد إنزالنا بالجبل دخلنا بلدة ساحل حامد وبتنا بها ، وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وسواقٍ وزيتون إلاّ أن نخل هذا الساحل كلّه رديء تمرُهُ لا يدخر ولا ييبس إلاّ بعد إزالة النوى منه فيبقى كقطع الجلد

---

١ في نسخة : يؤثر .

لا قوّة فيه ولا حلاوة ولا طعم لا تكاد تفرق بينه وبين لحاء الشجر .

وفي هذه البلدة استهلّ علينا شهر شعبان ليلة الأربعاء ؛ وزرت بهذه البلدة قبر الولي الصالح ذي الكرامات الكثيرة ، والمآثر الشهيرة ، سيدي مفتاح وهو على تل مرتفع بساحل البحر بينه وبين البلد في مكان يعلوه البهاء ، ويتفجر منه السناء ، تسكن النفوس إذا حلّتْ به ، وتطمئن القلوب إذا نزلت بقربه . وختمت عند قبره سلكة كنت ابتدأتها قبل ذلك . وزرته بنيّة صالحة وإخلاص قوي ، وطلبت من الله عند قبره مسائل رأيت أمرَ الإجابة في بعضها بالقرب ، وإنّي لأرجو الله فيما بقي منها . وهذا السيد ممّا تؤثر عنه كرامات كثيرة ، وجربت إجابة الدعاء عند قبره ، فلا ينبغي لمن مرَّ بذلك البلد أن يهمل زيارته . والذي نبهنا لزيارته وأعلمنا بمكانته شيخنا سيدي محمد بن مساهل في سنة أربع وستين وحضّنا على زيارته ، فزرناه إذ ذاك ، ولم ندع بعد ذلك زيارته إذا مررنا ببلده . وقد قيل إن قبره كان مختفياً وأظهره سيدي عبد السلام الأسمر ، وكان قد أظهر قبوراً كثيرة للأولياء بذلك الساحل وأظهرت فرسه أيضاً آخرين ، وذلك أنّه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض ، فيقول لهم الشيخ : احفروا فإن هنا قبر ولي ، فيجدونه . فظهرت بذلك مزارات كثيرة ، وفقراء ذلك الساحل إلى الآن يعرفونها ويقولون : هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ ، ولا بدع في ذلك فإن الكرامة في ذلك لراكب الفرس لا للفرس ، فقد بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلّم في مكان مسجده ، وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية. وإذا كانت بركة النسبة للأنبياء عليهم السلام وللأولياء رضوان الله عليهم يظهر أثرها في العجماوات فما بالك في الآدمي الذي هو أشرف المخلوقات . فلا تقصروا إخواني في خدمة الصالحين وزياراتهم وملاقاتهم ، فإن لذلك

أثراً عجيباً في تليين القلوب وتسخير النفوس ، والله تعالى يجعلنا من المحبين [٩٤] لأهل / ولايته ويحشرنا مع حزبهم وفريقهم دنيا وآخرة .

ثم ارتحلنا من ساحل حامد ومررنا بقربه بوادي تارغلات وفيه آثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين يقال لها عين كعان . وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول ، منها أحجار أربعة أذرع فأكثر منقورة في وسطها نقراً متقناً ، والحجر في غاية الصلابة قريب من حجر الصوان . والحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار وعلم أن دهراً أفنى أولئك الأفواج جدير بأن يستأصل شأفة الأنام .

ثم نزلنا في ذلك اليوم بلدة زلتين وهي مثل التي قبلها في النخيل والسواني إلا أنّها أصغر منها فيما يظهر .

وكان نزولنا خارج زاوية الولي الصالح الشهير التصريف ، الغني بشهرته عن التعريف ، سيدي عبد السلام الأسمر ، وهو رجل من أهل المائة العاشرة كثير الكرامات ، عالي المقامات ، من أجلّ تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس ، والغالب عليه الجذب في أول أمره وآخره ، وله تصرفٌ قوي ، ويؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها ، وأخباره في قهر الجبابرة وفك الأسرى من أيدي الافرنج في حياته وبعد مماته شهيرة . وهو من بلدة يقال لها الفواتر ، وأمّه مغربية دراوية . ولم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين ووكر العابدين من قديم الزمان ، تواتر عند أهل البلدة أنّها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين . قالوا : وهم ظاهرون بها حتى الآن وليس عليهم سمتُ متفقرة الوقت ، بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم ، إلاّ أنّهم قائمون على منهج الشريعة وكل من

رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله ولا يدخلها أحد فتجبر وتكبّر إلا أذله الله . ويذكر عن أهلها كرامات كثيرة . وقد ذكر لي بعض الإخوان أن سيدي عبد الحفيظ قدم لزيارة أهل هذا البلد ومعه بشر كثير كما هو شأنه إذا خرج ، فلمّا قرب من البلد نزل عن فرسه ومشى راجلاً متواضعاً إلى أن زار وخرج . فقيل له في ذلك فقال : لو دخلتها على الحالة التي كنت عليها خارجاً من الركوب كهيئة المتبوع لخشيت على نفسي ، أو كلاماً هذا معناه . وبلدة الفواتر هذه بإزاء زاوية سيدي عبد السلام قريب منها بنحو من فرسخ وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات .

لطيفة : وممّن لقيته من سكان هذه الزاوية سيدي أحمد بن محمد بو مجيب وهو مجذوب سالك ، والغالب عليه الجذب ، وفيه خير كثير ، قارب في [٩٥] عمره المائة ، ومع ذلك فهو / صحيح الذهن والبصر والبدن خرج إلينا إلى منزل الركب . وسبب معرفتي به سيدي محمد الحفيان ، وكان أخبرني قبل الوصول إلى بلده بكرامة وقعت له معه في بعض حجاته ، وقد حج هذا السيد مراراً عديدة مع سيدي محمد الحاج صاحب بسكرة ، وكان يثني عليه كثيراً ، وقال لي : لو عاش ما تخلفت عن الحج ، فقلت له : ألا تحج معنا ؟ فقال لي : إنّه لا مالَ لي ، وأنتم لا تشاركونني في دنياكم وهو كان يشاركني في دنياه . وقد حكيتْ لي عن هذا السيد كرامات ، وشيخه سيدي أحمد الشريف البقال بفاس من تلاميذ سيدي مسعود الدراوي لقيه لما جاء للحج ومرّ بهذه البلدة وقال له في رجوعه من الحج : يا بو مجيب أعلمنا بك الحبيب عليه السلام .

لطيفة : أخبرني الشيخ بو مجيب أنّه لمّا حج بقي أمام النبي صلى الله عليه وسلّم وقال في نفسه : إنّي لا أذهب لزيارة حمزة ولا غيره ؛ هذا يكفيني . قال : فأخذتني سِنة فرأيته عليه السلام فقال لي : يا أحمد يا حبيبي

عم الرجل عوض أبيه . قال : فقمت في الحين وذهبت إلى زيارة سيدنا حمزة وحدي . وكان وقتَ خوف ولقيت هناك ثلاث[1] رجال أحدهم الخضر عليه السلام .

لطيفة : أخبرني أيضاً ، وهو عندي صدوق ، قال : أخبرني الشيخ اللقاني أن الوزغ يتغذى بعينيه ، وأنّه ، أي اللقاني ، كان ذات يوم يأكل ووزغ ينظر إليه من السقف ، فأمر من قتله ، قال : وشقوا بطنه فوجدوا فيه من الخضرة التي كان الشيخ يأكل منها . أخبرني بهذا كلّه وهو عندي ثقة وقد عقدت معه أخوّةً في الله ، وكتب لي خطّه بذلك ، نفعني الله وإياه بها آمين .

وممّن آخيته في الله أيضاً بهذه البلدة الشاب الزكي النقي سيدي محمد بن أبي القاسم ابن سيدي علي الصوفي من بلاد غريان . قدم لهذه الزاوية مهاجراً في طلب العلم وجدّه سيدي علي تلميذ سيدي عيسى بو معزة وهذا السيد[2] ممّن رزق السعادة في محبّة القوم[3] واتباع طريقهم . وقد أخبرني بغرائب كثيرة ممّن لقي منهم ، ودلني على بعضهم ممّن في سواحل تلك البلاد ، نسأل الله أن ينفعنا وإياه بهم . وقد شيعني يوم سفري من هناك على رجله حافياً قريباً من ثلاثة فراسخ شكر الله له سعيه ، آمين .

ثم ارتحلنا من هناك وارتحل معنا سيدي عبد الله بن عبد السلام متولي الزاوية من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام قاصداً للحجّ مع ثلاثة من أولاده وأتباعه . وكان من عادتهم السماع بالطار المزنّج ، فلما يتركون ذلك في كل

---

١ كذا ، والصواب : ثلاثة .
٢ في نسخة : الشاب .
٣ في نسخة : أهل الله .

ليلة ، لا يكادون يتركوننا ننام من صوت الدفوف نحو الأربعة مقتفين في
[٩٦] ذلك آثار جدهم فإنّه كان يسمع بالدف إلاّ أنّه كان رضي الله عنه / ذا حال صادقة لا يُقتدى به في ذلك ؛ فحقهم اتباع السنّة واجتناب مواقع الظنة وليست الأحوال ممّا يورث ولا ممّا يصح فيها التقليد لأنّها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالاً جبرياً فليس لغيره اتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقة المشروع .

وممّا يحكى من ذلك عن الشيخ سيدي عبد السلام أنّه سمع ذات يوم بالدفّ فلما نقره سمعه كل من حضر يقول : الله الله ، بحيث لا يمتارون في ذلك . قلت : هذا شاهد صدق في صحة سماعه وصدق حاله مع الله ومثل هذا له أن يسمع بأي شيء أراد من دف ومزمار لانقلاب سمية الملاهي في حقّه درياقاً ، فعادت المخالفة للمشروع بانعكاس الثمرة وفاقاً . فسبحان من أخرج[1] من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ومن بين الزفر والزمر أحوالاً سنية للمقربين .

وقد أخبرني بعض الإخوان من أهل مسلاتة[2] أن شيخنا سيدي محمد بن ناصر لما حج سنة سبعين حج معه بعض أهل هذه الزاوية وكان يسمع بالدف على عادتهم ، فبعث إليه الشيخ فقال له : إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع وإلاّ فاعتزلنا . فاعتلّ بأن ذلك من عادة أسلافهم فلم يقبل منه الشيخ ذلك ولم يزل به حتى ترك السماع .

ولم نبت يوم رحيلنا من زلتين إلى أول بلد مسراتة ، ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله ، الدال على الله ، صاحب

١ في نسخة : يخرج .
٢ في نسخة : مسراتة .

العلمين ، ومحقق النظرين ، ومحصل المذهبين ، ومرتضى الفريقين ، مقتدى أهل العلم الباطن ، ومتبوع أهل الظاهر ، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر ، قطب مغربنا ، وإمام أئمتنا ، سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي حقق الله إليه نسبتنا ، وخلص في محبته سريرتنا ، آمين . وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار ، وذل وانكسار . وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع وهو الذي كان الشيخ يصلي فيه . وخطب إمام المسجد من ورقة ، وليته أحسنّ القراءة منها ، فإنّه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم . وأسفت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يسند الأمر فيه إلى غير أهله ، ويوضع في غير محله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . وبعد الفراغ من الصلاة زرنا خلوة الشيخ وهي أمامَ المسجد قريباً منه وبها توفّي رضي الله عنه . ولم نزل نتردد إلى قبر الشيخ رضي الله عنه ذلك اليوم والذي بعده نفعنا الله بذلك وأنار لنا به في دجى الخطوب المسالك .

[٩٧] وممّن لقيته / من أهل هذا البلد صاحبنا ومحبنا في الله خديم ضريح الشيخ ومتولي زاويته سيدي أبو العباس ابن أحمد بن عبد الرحيم بن أحمد وجده هذا أحمد هو خديم الشيخ ، وهو الذي بنى المسجد الذي هو اليوم مصلّى ضريح الشيخ ، وتولى عمارته والقيام به ، ثم أولاده وأحفاده بعده ، إلى هلمّ جرّاً . والمتولي الآن هو سيدي أبو العباس هذا وابن عمّه سيدي عبد الواحد ، وهو أسنّ منه ، وكلاهما لا يخلو من بركة ، وهما ملازمان للصلاة بجوار الشيخ وقراءة وظيفته مع الفقراء النازلين بجواره ، والكل محترمون بحرمته ليس عليهم مثل ما على غيرهم من الوظائف الجَوْرِيّة لأرباب الدولة .

لطيفة : وقد قرأت معهما وظيفة الشيخ غير ما قَرَأْتُه وأخبراني بها عن

سيدي محمد بن غلبون وكان قد أسنّ وقارب المائة أو تجاوزها ، ومسكنه بقصر أحمد على نحو من فرسخين ، ومع ذلك لا يترك صلاة الجمعة بمسجد الشيخ ويحضر الوظيفة إلى أن مات وهو قد أدرك وأخذ عن خديم الشيخ وأخصّ أصحابه وتلاميذه[1] سيدي أبو زعامة وفيه يقول الشيخ رضي الله عنه مداعباً وممازحاً ومزاح الأولياء حق :

يا بو زَعامَهْ يا عُنقَ الحمامَهْ
ابشر بالسلامهْ في يوم القيامَهْ

فهنيئاً له أعظم البشارات ، على لسان أصدق أهل الإشارات . وقد أخبرني بهذه الحكاية السيدان المتقدمان كلاهما وأذنا لي في قراءة الوظيفة مدرجاً فيها قوله :

يا مولانا يا مجيب من يرجوك ما يخيب
اقضِ حاجتنا قريب يا حاضر لا يغيب

آمين ، بعد قوله : يا عالم السر منا ؛ زيادة الخروبي في الوظيفة . وأخبراني أنّه لم يكن من كلام الشيخ وإنّما زاده تلميذه الإمام الخروبي لما مرّ بزاوية الشيخ قاصداً للحج ، واشتكوا عليه من ظلم الأعراب ، فأمرهم بزيادته وإدراجه في الوظيفة ، واستمرّ الحال عليه إلى الآن . وكثير من الناس يظن أنّه من كلام الشيخ رضي الله عنه والصحيح إن شاء الله ما ذكراه إذ لم نجد هذه الزيادة في النسخ الصحيحة المتصلة السند والرواية بالشيخ ؛ ولم يذكره الخروبي في كتابه « كفاية المريد » . وأصحّ الطرق التي روينا فيها هذه الزيادة طريق

---

١ في نسخة : وتلامذته .

شيخ والدنا سيدي أحمد آدفال إذ انّه قال : إنّما أخذها عن شيخه بركات الخطاب بالإجازة واجتهد في تصحيحها من النسخ بعد ذلك حسبما رأيته بخطه آخر نسخة من الوظيفة رضي الله عنه آمين .

لطيفة : وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور أن جده الأعلى سيدي أحمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته : ألا نبني هنا زاوية ونتخذ
[٩٨] لها أوقافاً ؟ فقال له : يا أحمد نحن لا تفوح رائحة مِسْكِنا إلا بعدما / نتسوّس تحت التراب . ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها بنى تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة . وقد وجدنا عند هؤلاء الإخوان جزءاً من شرح الرسالة للشيخ بخط يده رضي الله عنه .

وممن لقيته هناك أيضاً الأخ في الله صاحبنا الفقيه سيدي علي بن عزازة وجدّه أيضاً كان من أصحاب الشيخ وليس في هذا البلد أمثل من هذا الرجل في بعض فروع الفقه . وكان قبل هذا متولياً للقضاء بهذا البلد ثم عزل . وقد آخيته في الله تعالى وأعطاني ورقة بخط الشيخ رضي الله عنه من شرح الرسالة واشترط علي أن أُثيبه عليها بدعوة على عرفات فوفيت له والحمد لله .

لطيفة : وقد وجدت عند صاحبنا هذا ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدة أولاده ونسائه ومن خلفه من بعده وعدد متخلفه من كتبه وأمتعته وَلْنَنْقُلْها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد منها : استفادة عدد أولاد الشيخ وأين استوطنوا بعده فإنّي لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه ؛ ومنها التأسي به في قلّة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلدة يشقّ فيها العيش ولا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ومع ذلك لم يخلف منها إلا ما سترَاه ونصّه : بعد الافتتاح بعد أن توفّي إلى عفو الله

وهو ثمانية دنانير ذهباً مشحرة من الشيخ منصور المذكور قبضاً تامّاً وأبرأه بتاريخ أوائل ذي الحجة الحرام فمّ عام ثلاثة عشر وتسعمائة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله . نقلت الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة ولا نقصان مع وجود بعض التصحيف به ولم أغيّر شيئاً منه بل تركته كما وجدته ولم أكتب من الرسم الأصلي بل من رسم نقل منه والله أعلم .

وممن لقيته هناك من أهل الخير والصلاح سيدي فتح الله بخير من أحفاد سيدي عبد السلام وهو ممن ترجى بركته ووسمه وسم خير قد نزل وحده بداره منقطعاً عن الناس في نخيل على طرف البلد من ناحية البر .

ولقيت هناك أيضاً المجذوب الصادق سيدي أبو تركية رجل متقشف لا يؤبه به ، أرى أنّه ممّن لو أقسم على الله لأبرّه ، وهو نازل وحده بساحل البحر بأهله ، يرد عليه أهل الخير السائحون في الأرض ، يدخلون البادية من هناك على قدم التوكل قاصدين الحجاز الشريف ، فمنهم من يرجع بعد أعوام ، ومنهم من يبقى هناك ، ومنهم من لا يوقف له على خبر . وقد حكى من ذلك ومن أخباره معهم شيئاً كثيراً .

ثم ارتحلنا من زاوية سيدي أحمد زروق بعدما تنعمنا بزيارته وقراءة ما تيسر من القرآن عند قبره والمبالغة في الدعاء وأودعنا الله عند قبره أنفسنا وأموالنا وأديانا فرأينا بركة ذلك . وقد شاع عند الحجاج أن من مرّ بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع . ويفعلون ذلك إذا مروا به أو حاذوه في البحر فيجدون بركته ، ولا بدع في ذلك ولا غرابة ، فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه ، والأولياء أبواب الله ، فمن أودع الله شيئاً عند باب من أبوابه فكيف لا يحفظه فيه ، والله خيرٌ حافظاً ، وهو أرحم الراحمين .

وكان رحيلنا من هناك يوم الأحد الخامس من شعبان ومررنا بقصر أحمد ضحى وهو آخر العمران هناك ، ولا عمارة وراءه على طريق الحاج إلى الإسكندرية ، وزرنا خارجه على تل مرتفع بساحل البحر قبر سيدي أبي شعيفة ووجدت عند قبره سيدي أبو[1] تركية بل وجدني ، واغتنمت دعاءه في ذلك المكان ، وذهب بي إلى مزارة هناك في مغارة بساحل البحر يتعبد فيها الصالحون لا يكاد يطّلع عليها أحد إلاّ من عرفها لأنّها صغيرة مستقبلة البحر يغلب على الجالسين بها الحضور إذ لا يرى إلاّ البحر ولا يسمع إلاّ تسبيحه وتمجيده لربّه ﴿وإنْ مِنْ شيء إلاّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ ، ولكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسبيحَهُمْ﴾ لغفلتكم عنه ، ومن امتزج تعظيم الحق وتسبيحه بلحمه / ودمه [١٠١] وأنس بذلك سمع تسبيح كل شيء إما بحاله أو مقاله . وقد أخبرني صاحبنا هذا أن مفتتح هذه المغارة رجل من العبّاد اسمه سيدي فرج وهو الآن بالجزائر وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها . وأخبرني عن أناس آخرين مرّوا به هناك من الأخيار وهم الآن بالحجاز أحدهم سيدي أبو القاسم السوسي بالمدينة ، وسيدي علي التونسي . ثم ودعته هناك وكتبت له ورقة بخطي تذكرة له وللإخوان في صالح الدعاء ، وكنت أرى اجتماعي معه في ذلك المكان إحدى كراماته ، لأنّي فارقته بالأمس عند قبر الشيخ ولم أقضِ الوطر من لقائه ، ومنزله بعيد لا يمكنني الذهاب إليه فأتى به الحق إلى ذلك المكان من غير رأي ولا عادة ، والله يعين العبد على قدر نيته ؛ وفي ذلك فارقنا آخر العمران .

ودخلنا برقة ومررنا ذلك اليوم بماء يقال له العريعر وهو حلو طيب بين السبخة والبحر ، ونزلنا آخر اليوم على ماء آخر يقال له أبو كدية مقابل

---

١ في الهامش : هكذا على حكاية الرفع في جميع الأحوال على حد قراءة « تبت يدا أبو لهب » ، انظر تفسير الفخر الرازي ه مصححه .

بلدة تاورغا بينها وبين البحر ، وهذه البلدة منقطعة أول برقة وفيها نخل كثير وتمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل وأجود منه وإن كان على وصفه من عدم ادخاره إلاّ بإزالة النوى وطيبه والله أعلم ، لبعده شيئاً ما عن البحر ورطوبته ودخوله قليلاً إلى الصحراء حيث تكاد اليبوسة تستولي على أبدان الحيوانات فضلاً عن النبات .

ثم في الغد نزلنا قرب الهايشة ، وفي الذي يليه مررنا بالهايشة ، وهي سبخة مستطيلة وعلى جوانبها بناء قصور خالية وفيها نخيل متفرق كأنّه رؤوس الشياطين لا ترى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه سيّما المعاود ، لما يستشعر بعده من المفاوز والمهامه والمعاطش التي يحار فيها الدليل ، كما لا آنس منه ولا أبهى منه في منظر الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة ، ونخيله آخر نخل يراه الذاهب وأول نخل يراه الآيب . وماء الهايشة ملح أجاج لا يكاد يساغ حتى يُضرب به المثل في القبح وليس في مياه برقة أقبح منه إلاّ مواضع قليلة لا يعتمرها الحاج مع أن هذا أيضاً لا يستقي منه إلاّ من اضطره العطش أو كانت أيام الحر ، وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب ، وبعضه أشد قبحاً من بعض . وبآخر الهايشة واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحاً ولا الملح يذوب ماء ، وأظن ذلك لقوّة ملوحة الماء ونداوة المحل ، ولم نقطع ذلك المكان إلا بعد لأي ولأي .

ثم نزلنا دور حسان ومررنا الغد بحسان وهو ماجل منقورٌ في حجر يجتمع فيه المطر ، فإذا أفرغ المجتمع بقي محله يرشح بماء قليل / يجثم في قعره بيل [١٠٢] به الظمآن فمه ، وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبقَ إلا رسومها تسمى فيما مضى قصور حسان إضافة إلى بانيها وكان عاملاً لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان ، بنى هناك قصوراً وأقام فيها نحواً

من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد ذلك ، حسبما ذكر من أرّخ فتوح إفريقية وسُمّي المكان باسمه إلى الآن .

ثم بتنا آخر ذلك اليوم بقرب ساقية هناك هي أول عمالة سرت ثم منه إلى الزعفران وهي أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب وعليه كثبان من رمل أحمر تظهر من بعيد ، ومن وراء الكثبان من ناحية البرّ قصور سرت ، وهي ثلاثة قصور تخزن فيها العرب ميرتها ، وكانت فيما قبل هذه السنة خالية ، ووجدناها في هذه السنة فيها بعض العمارة ممّن تركته العرب على خزائنها حافظاً لها ، وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة بالبعل ، وعربُها أهل رفاهية إلاّ أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتّت شملهم ، إلاّ أن أمرهم كاد ينتظم في هذه الأواخر على يد أميرهم سيد روحه .

ثم في الغد بتنا بموضع يقال له أمكيريته وبإزائه بئر طويلة ، وفي الغد مررنا بمعطن يقال له المُدَيْنَة تصغير مَدِينة على ساحل البحر ، ثم بآخر يقال له أم السلطان ، ثم بتنا مقابل آخر يقال له النعيم ، ووجدنا هناك حلل أعراب سرت وأميرهم عبد القادر بن عبد الله الملقب سيد روحه لقب أبيه عبد الله . قالوا : سبب تلقيبه بذلك أن أباه كان من أهل الخير ومن أهل النسبة ونزل بأولاده ساحل حامد ، وكان له عدة أولاد ، فلمّا نشأ ولده هذا واشتغل بما لا يعنيه وظلم الناس فمن اشتكى إلى أبيه قال في شكواه : إن سيدي عبد الله فعل فيّ كذا وكذا . فيقول أبوه توبيخاً لولده : ليس بسيدكم وإنما هو سيد روحه . فاستمر ذلك لقباً له ثم لإخوانه وأولاده من بعده ، وأخوه عبد الرحمن هو رئيسهم الآن ، وكلمته نافذة وأمره مسموع في عرب سرت وسائر عرب تلك النواحي إلى الجبل الأخضر ، وهم مستندون إلى الأمير عثمان في الظاهر مستبدون برأيهم في الباطن ، ولهم جدار وعقار كثير بساحل

حامد ، وكبيرهم عبد الرحمن نازل فيه ؛ وأبناء أخيه عبد الله متفرقون في حلل الأعراب ، فأمّا عبد القادر فهو مع عرب سرت ، وأمّا أبو بكر أخوه فهو بحلله على الجابية ونواحيها مع عرب تلك الناحية .

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الأحمد ضحى وتسوقنا أولئك الأعراب بإبل في غاية السمن وغنم ، أخذَ الناسُ منها حاجتهم ، وقليل سمن .

ثم ارتحلنا منه وحمل الناس ماء خمسة أيام إلى المنعم وتسمى هذه المسافة كلها عند الحجاج مقطع الكبريت تغليباً وإلاّ فالمسمى بذلك حقيقة موضع [١٠٣] واحد . وفي هذه المسافة مياه كثيرة إلا أنّها تقل في بعض الأحيان وبعضها أجاج يحتاطُ الناس بأخذ الماء الطيب . ثم مررنا ذلك اليوم بماء يقال له العويجة وبتنا بإزاء ماء آخر يقال له الشقة وماؤها قبيح آجن ذو حمأة . ومن أمثال الحجاج « ماتة دكية ولا شربة من الشكية » .

ثم ارتحلنا منه ومررنا بمزارع لأولاد سيدي ناصر ووجدنا غدراناً في الطريق . وأولاد سيدي ناصر فقراء مرابطون من أهل سرت يطعمون مَنْ وردَ عليهم ، ومعهم طرق من الديانة إلاّ أنهم أضرّ بهم جورُ الأعراب لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة ، فقلّما يسلم لهم وقت من غارة إمّا من هؤلاء أو من هؤلاء ، غير أنّهم الآن مستظلون بظلال أسمال من العافية لما ولي عبد الرحمن الجبالي الملقب سيد روحه على البلاد وقهر الأعراب وقويت شكيمته على أهل البادية ، فأمنت السبل بعضَ الأمان ، فرجع فقراء الأعراب إلى بلادهم ، وعمرت البلاد بعضَ العمران ، وتلك سنّة الله في البلاد والعباد ، أنّ الولاة وإن جاروا خير من مرج الرعية يعدو بعضهم على بعض ، فيعمّ الخراب الحواضر والبوادي ، وبهذا السبب خلت أرض برقة كلّها وهي مسافة شهرين وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية لا تكاد تسير

فيها بريداً ليس فيه أثر بناء ورسوم عمارة داثرة . وقد جاء الإسلام وغالبها عامر ثم لم تزل عمارتها تضعف إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة وأوائل الخامسة فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ .

ثم مررنا في يومنا بسانية مقابل اليهودية عمرت في هذا الوقت ، وبتنا في سانية أخرى وغدير ماء . واليهودية قرى كثيرة متقاربة فيها أثر[1] بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة كبيرة . واشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا وكذا من الخيل . قلت : وفي الرسالة القشيرية عن بعض الفقهاء أنّه قال : دخلتُ مدينة اليهودية بأرض المغرب ، وساق تلك الحكاية ، ومنه : وهل تلك المدينة هي هذه إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية غيرها ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

ثم ارتحلنا غداً ومررنا بقصر العطيش وبماء يقال له الكحيلة وبتنا وراءه ، ثم ارتحلنا من هناك ومررنا آخر النهار بماء يقال له أم الغرانق إلاّ أنّه لا يكاد يساغ فلا فرق بينه وبين ماء البحر إلاّ اللون والرائحة ، وبتنا أمامه في سبخة مقطع الكبريت ، وسمي هذا المكان مقطع الكبريت لأن في أعلى السبخ معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين ومن هناك يحمل إلى طرابلس [١٠٤] وكذلك إلى مصر / والإسكندرية ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة لأن العرب الذين يحملون الكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج ، فإذا رجعوا حملوا على ما فضل من إبلهم عن الكراء كبريتاً ويتقدمون أمام الركب بيوم إذا شارفوا هذا المحل ثم يلحقون الركب في

---

١ في نسخة : آثار .

المنعم . وقد أصابتنا يوم نزولنا بهذه السبخة ريح عاصفة حمراء قوية جداً أسقطت كثيراً من الأخبية دامت إلى الصباح ، ولم نوقد نحن ولا كثير من أهل الركب في تلك الليلة ناراً ولا طبخنا عشاء من قوّة الريح وعصمنا الأخبية بالحبال فما أغنى ذلك .

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بالمنعم وهي أحساء بساحل البحر ماؤها طيب عليها كثبان رمل ينزل الناسُ وراءها فيمرون إلى الماء من بينها ، وقلّما يخلو من عمارة الأعراب ، وقد وجدنا على هذا الماء عرباً من أهل سرت ، وأميرهم بُومُغَاث ، وهم يزعمون أن لهم عادة على الحجاج يعطونهم إذا مروا بهم فرساً لشيخهم وأن ذلك عادتهم من جدهم سحيم ، ولكن الله أضعفهم ودمرهم فلا يستطيعون التعرض للركب ، وقد سرقوا جملاً من الركب فأخذ الحجاج جملاً لهم حتى أتوا به . وقد أخبرنا شيخهم بومُغاث أن سبب هذه العادة التي يزعمون على الحجاج أن ركباً لأهل تونس مرّ بهم وضاع لهم حمل فيه قيمة ألف ريال . قال : فوجده الشيخ سحيم بعدهم وأدخله في بيت من قصور سرت ، ولم يحمله حتى رجع الركب ، فأخرجه لهم فوجدوه لم يضع منه شيء ، ومن هناك التزموا له أن كلما قدم ركب من تونس جاؤوه بفرس . فقلنا له : لسنا نحن من أهل تونس فلا عادة لكم علينا ، وكفانا الله شرهم بضعفهم وقهر الجبّار لهم فلا يرفعون يدا ولا يجيئون ندى .

ثم ارتحلنا من هناك وتيامنّا عن البحر قليلاً وبتنا ليلتين في الطريق ، وفي الثالثة جئنا إلى الجابية ، وفارقنا البحر من المنعم فلا تجتمع طريقنا معه إلى التميمي ، وفي هذه الجابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر وبنيان هائل بالحجر المنحوت وهناك رسم مسجد قديم تهدم ، ووجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوشاً سنة ثلاثمائة .

لطيفة : قد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن بعض المشايخ أن الإمام سحنوناً كان مدرساً بهذا المسجد ثلاث سنين ، وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه ، وقيل إنّها مدينة بالجبل الأخضر بالجانب البحري . وقد أخبرني صاحبنا سيدي عبد الله بن غليون أنّه رآها وأن رسومها تدل على عمارة قوية وبها آثار سور وأبراج ورخام كثير . وقال لي : إن بها قبراً مشهوراً يزار ويزعم أعراب البلد أنّه قبر نبي ، فقلت له : الغالب
[١٠٥] أنّه قبر صحابي فقد نصّ المؤرخون على أن رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري النجاري من الصحابة قد دُفن ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة ابن مخلد . وقُتل ببرقة أيضاً من الصحابة زهير بن قيس البلوي ندبه عبد العزيز ابن مروان إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قُتل ، وما ذاك إلاّ قبر أحدهما ، فإن كثيراً من العوام يطلقون اسم النبي على الصحابي ، وقد شاهدنا كثيراً منهم يعتقد في أبي بكر وعمر وعلي أنّهم أنبياء ، ويظن أن اسم النبي والصحابي مترادفان ؛ فلمّا أخبرته بذلك فرح وقال لي : ليس إلاّ كما ذكرت . ولمّا رجعنا من الحجاز سنة أربع وسبعين لقيته ببلده مسراتة وقال لي : إنّي قد ذهبت بعدك إلى المكان المذكور وتأملت القبر وعليه كتابة وأمارات ربما تدل على صحة ما ذكرت . قال لي : وذكرت كلامك لبعض الأمراء في درنة ففرح بذلك وأمر بالبناء على القبر والتنويه به ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ونية المؤمن أبلغ من عمله ، فإن صح أن هذا القبر قبر الصحابي المذكور فتلك المدينة هي مدينة برقة المشهورة لا الجابية ، والأمر في ذلك قريب ، فإن بين المدينتين نحواً من خمسة أيام فكلاهما يصحُّ أن يقال : بينها وبين كل من مصر وإفريقية شهر ، إذ بذلك يعرفها الفقهاء ، إلاّ أن التي في الجبل أقرب من مسمّى المدينة لما بإزائها من المياه والأماكن المخصبة

والمزارع الكثيرة والغياض الملتفة من أنواع الأشجار بخلاف الجابية فإنّها في صحراء من الأرض مغبرة ، والله أعلم .

ومسمى برقة على التعيين عند العرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك وفيها رسوم أبنية كثيرة وإطلاق « برقة » على ما سواها مجاز علاقته المجاورة وهذا ممّا يقوي أن مدينة برقة هي الجابية ، وبإزاء المسجد الذي بها قبر محوّط عليه بالحجارة يزار ، يقال لصاحبه سيدي يونس ؛ وهو من عرب الفراصد[1] وقد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوقدوا عليه شمعاً كثيراً وبقيت منه بقية فأردنا أخذها للحاجة إليها ثم توقفنا في ذلك ، وبعد ذلك ظهر لي جواز أخذه فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه .

ثم ارتحلنا من الجابية وفي آخر ذلك اليوم تعاهد بعضَ الإبل داؤها القديم من النفور والخفال عند قرب المنزل ، ولطف الله بالعباد .

ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بماجل كبير فيه بقية من ماء المطر ، وبتنا على قرارة فيها ماء كثير غادرته الأمطار .

ثم ارتحلنا منها ونزلنا على سلوك ضحى وهو آبار متعددة كآبار الجابية في صفتها ومائها ، وبإزائها أيضاً رسوم بناء إلاّ أنّها قليلة بالنسبة إلى الجابية ، [١٠٦] وماؤها يقل / في أيام الحر ، وقد مررنا عليها سنة تسع وخمسين في حماوة القيظ فلم نكد نروى منها إلا بعد عناء شديد وإقامة يوم وليلة أو ليلتين ؛ وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر وتسمى برقة الحمراء وهي بمرأى من الجبل الأخضر ووجدنا عليه سواداً من العرب ينتظرون السوق مع الركب ، وبتنا به ليلة ، ومن هناك فارقنا من فارقنا من الأعراب القاصدين لمرسى ابن غازي وهي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك مسافة يوم ، وفيها

---

١ في نسخة : الفواخر ؛ وفي نسخة أخرى : الفراخد .

عامل وعسكر لصاحب طرابلس ، وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب منه ولا أكثر إداماً فيما رأينا من البلاد ، وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائهما من البلدان ، ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم ، وقد دخلنا طرفاً من هذا الجبل سنة تسع وخمسين من شدة الحر وتسوّقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن والغنم والإبل ، ولم نعهد مثل ذلك في بلد من البلاد ، ولا رأينا أرخص منه سعراً أو لا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله ، يؤخذ منهم زهاء القناطير من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض أو غير ذلك من الحوائج ، ولا يعرفون للدرهم قدراً ، وكانوا إذ ذاك كنعمهم غُفلاً لم يدخل التجار بلادهم ولا صادرتهم العمال عن أموالهم إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها في بعض الأحيان لصاحب أوجلة ؛ وأمّا صاحب طرابلس فلم يكن له عليهم إذ ذاك حكم ، وأمّا الآن فهم تحت إيالته وفي أسر طاعته يؤدون الخراج ؛ ويدخل التجار من أهل طرابلس ومسراتة بلدهم لشراء الإبل والبقر والغنم والصوف والإدام فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء ومقاديرها وعرفوا الدرهم والدينار ، وأمّا قبل ذلك فكانوا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً .

غريبة : عرب هذا الجبل من أشد العرب كفراً ونفاقاً لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ليس عندهم من الدين إلا اسمه ، لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلاّ النهب والغارة ، قلّما مرّ بهم ركب سلم من إنشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم . وقد وقع لنا ذلك معهم مراراً ، وأغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة فيحترس الناس منهم نهاراً خشية النهب والغارة وبالليل يبيت الناس رقوداً مطمئنين ولا تسرق

لهم حاجة وما ذاك والله أعلم إلا لانقطاعهم عن العمران وتوحشهم ؛ والسرقة
[١٠٧] في الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران ويجتمع أجناس من الناس / وتعمر أسواق ويوجد بيع وشراء ، وأمّا هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدرون منهم إلاّ على الغارة المرة بعد المرة وفيما بينهم يأمن بعضهم بعضاً فألفوا ذلك. ونوادر هذا الجبل في رخاء الإدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه وبيعهم لبناتهم وأخواتهم أشهر من أن يُذكر . وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحريّة وسبعة أيام من الناحية الأخرى ، وأكثر شجر الناحية التي مررنا بها العرعر حتى إنّه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعاب مسلوكة ومن خالفها توعّر وانتشب في الغياض بحيث لا يخلص إلا بمشقة سيّما إن كان ذا دابة . ومع كثرة غاب هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد ، والحجاج يزعمون أن سيدي أبا محمد صالح دعا عليه فأجلاه الله من هذا البلد لئلا يؤذي صعاليك الحجاج وذلك إن صح غيض من فيض فيما لأولياء الله من كرامات .

غريبة : وممّا شاهدناه في عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر وحمل الهوادج عليها في الإناخة لاعتياد الكل لذلك ولله في أرضه عجائب ، وفي طباع الحيوانات غرائب . وكذلك الغنم لا يسوقونها إنما يسير صاحبها أمامها قَلَتْ أو كثرت وهي تتبعه ؛ فإذا أمهل في السير أمهلت ، وإذا أسرع أسرعت ، وإذا جرى جرت . ويأتي أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه مثل الكلب المعلّم .

ثم ارتحلنا من سلوك وتنكبنا طريق الجبل الوعرة وسوء خلق أهلها وتلصصهم على الحجاج وسلكنا طريق السروال عن يمين الجبل وهي مسافة سبعة أيام لا ماء فيها إلاّ ما تحادرته الأمطار في قيعان الأرض ، ولكن بفضل

الله ما مرت علينا مسافة يوم إلا وجدنا من الماء فوق الكفاية . ثم طلعنا إلى سفح الجبل وبتنا هناك .

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا ضحى لغرض عنّ لبعض أمراء الركب فيه بعض الغرض ، وفي قلب أكثر الناس من الإقامة مرض . ثم ارتحلنا والجبل عن يسارنا ومررنا ضحى بماء يقال له الخطاطيف غدير كبير واستقينا منه ، وبتنا بموضع يقال له الخروبة وفيه ماء ، ثم ارتحلنا وجئنا إلى وادي سمالوس قبل العصر ووجدنا فيه غديراً كبيراً وبات الناس مبسوطين ناشطين ونحن في كل ذلك لم نخلُ ليلةً من سوق مع أعراب الجبل يقدمون منه متعرضين للركب . ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحًى بمياه كثيرة وربيع أنق في أودية منحدرة من
[١٠٨] الجبل / نالت منه الإبل فوق الحاجة وسرنا يومنا إلى الليل ، وعند نزولنا جاءت قافلة من الأعراب تحمل تمراً كثيراً قدموا به من سوى يريدون بيعه وصادفوا حاجة الناس إليه وأخذ الحجاج منه كفايتهم لصوم رمضان بأرخص سعر وذلك فضل من الله ونعمة ، والله ذو فضل عظيم . وتمر سوى من أحسن التمار لم نرَ من يوم خروجنا من تافلالت تمراً يشابه تمرها إلاّ هذا لوناً وطعماً وهذا أنظف منه وأنقى لأن عادتهم أنهم لا يحملونه إلاّ في قفاف من العزف تسع كل واحدة قريباً من نصف قنطار ويجعلون لها معاليق تعلق بها على أقتاب الإبل فيحمل الجمل منها اثنتي عشرة أو أكثر أو أقل على حسب صغرها وكبرها وقوّة الإبل وضعفها ، وتلك صنعة عجيبة يبقى التمر على حاله نظيفاً ولا يحتاج مشتريه إلى غرائر للحملان ، وليت أهل مغربنا يفعلون مثل ذلك .

ثم ارتحلنا من هناك وجئنا ظهر القصر المخيلف[1] ووجدنا فيه مياهاً كثيرة

---

١ في نسخة : المخيف .

في مآجل ووجدنا به جابيتين متلاصقتين ، مبنيتين بالحجارة المرصوصة بناء متقناً ، وكل واحدة طولها نحو المائة ذراع في مثلها ، وقد تعرضتا لأفواه الشعاب وجمعتا من الماء ما تبحّر وكاد أن يتفجر ، وأخذ الناس منه حاجتهم وتوضأوا ؛ وهذا القصر من أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد ، وفيه أثر مسجد ومأذنته باقية إلى الآن ، وليس فيه ماء حتى ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر فيه لكان فيه أعظم الأجر ، لأنه في محلّ بعيد من الماء من كل الجهات ، وقلما يسلم الحجاج في أيام الحر من شدة تقع لهم بسبب العطش في ذلك المحل أو قريباً منه .

ثم تجاوزنا ذلك المحل ولم نبت إلى المغرب واستهل لنا في تلك الليلة وهي ليلة الخميس شهر رمضان المبارك وصامه من أراد صيامه ، وأفطر من خاف أوامه ، وليس على كلا الفريقين ملامه .

ثم ارتحلنا غداً ونزلنا أمام القرية[1] وهي قرية خالية مشرفة على واد كبير وفيها مآجل كبيرة . ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا قرب التميمي ضحى ولم نصل إلى مورد التميمي لأن الله أغنى عن مائه الأجاج ببحار من الغدير في أعلى الوادي متصلة في صخور منقورة وبرك من صنعة الجبار بالماء الحلو معمورة وبات الناس بها وجاءهم المتسوقون من درقة بالطعام الكثير واللحم السمين .

ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربيه ، وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها الأندلش قرب الأربعين والألف ، ولم يزالوا بها إلى أن بطروا فأنشبوا الحرب بينهم وبين [١٠٩] أمير طرابلس ، فأخرجهم / منها صاغرين بعد وقعة قُتل فيها مئون من أشرافهم ؛ وهي الآن في طاعته وفيها عامله المستولي عليها وعلى عرب الجبل

١ في نسخة : الطويات .

الحاج محمود ، ومرسى هذه المدينة عجيبة تنزل بها السفن الجائية من الإسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم سيّما جزيرة كندية فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر فإنّها في مقابلتها ، والمعاش في هذه المدينة متيسر كثير لجمعها بين البادية والحاضرة ، وهناك بلغنا خبر الوباء بأرض مصر والإسكندرية نسأل الله أن يكفينا شرّه وأن يدفع عن العباد ضرّه . ثم أقمنا بعد ذلك يوماً هناك أزال الناس من أدرانهم واستراحوا في أبدانهم والله يبلغ على خير . وكنت أفطرت يوم إقامتنا ولامني بعض الإخوان على ذلك وقال : ما حملك عليه إلا الشهوة . فقلت له ما قال بعض المشايخ : إذا وافق الحق الشهوة فذلك الزبد بالشهد . وقال : إنّك ممّن يُقْتَدَى به فإذا رآك الناس أفطروا وأدّى ذلك إلى هتك حرمة الشهر . فقلت : إن الله تعالى هو المحرم ولم يجعل لهذا الشهر حرمة في السفر ، وحرمة السفر والحمد لله معلومة بين المسلمين لا يزيلها إفطار مفطر ولا يزيدها صوم صائم ، ومن يُقتدى به هو الذي ينبغي له الإفطار وإن لم يتضرر بالصوم لأن كثيراً من الناس يعتقدون حرمة الإفطار أو قبحه فيتحملون من ذلك مشقّة عظيمة حسبما شاهدت ذلك مراراً في كثير من الأسفار المندوبة فضلاً عن المباحة ، فإذا رأوا من يعتقدون فيه الخير سهل عليهم الفطر وعلموا إباحته وأولويته لمن شق عليه الصوم . واستدللت بغير هذا من الأدلة .

ثم ارتحلنا من هناك وتركنا منهل التميمي عن يسارنا إلى أن وردنا عين الغزالة ظهراً وهي أعين من الماء العذب فيه بعض ملوحة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها وليس في برقة كلها ماء يجري مثل هذا ، وتجاوزناها بأميال فبتنا في أرض طيبة كلّها منقسمة بتخوم الحرث ، وآثار البناء متصلة بأطرافها ؛ وعن يمينها شعاب تنصبّ من الجبل وكأنّها مجاري السيل ويقسمها أهل تلك الأرض على مزارعهم .

غريبة : وفي الغد منه مررنا عن يسار الطريق ببيت منحوت في الحجر الصلد طوله عشرون ذراعاً في مثلها وبداخله بيت آخر نحو نصفه وفيه غرف صغار كأنها مخازن وكل ذلك منقور في الحجر الصلد نقراً عجيباً مربعاً كهيئة أحسن ما أنت راءٍ من البيوت ، وباب مربع كأحسن الأبواب ، وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضاً فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها ، وتدبرنا بقوله تعالى ﴿ وتَنْحِتونَ من الجِبالِ بيوتاً ﴾ . وقد ذكر العبدري هذا البيت وأجاد وصفه .

ثم سرنا يومنا ذلك وعدلنا عن طريق دفنة[1] يميناً وبتنا بموضع يقال له المدور وفيه مآجل كثيرة مملوة بماء المطر ، ثم ارتحلنا منه وبتنا مقابل دفنة ، وهي منهل على ساحل البحر يمر عليه الحاج بالصيف وعند قلة الأمطار .

ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بموضع يقال له العريض وفيه مآجل ومزارع محروثة وطلعنا سطح العقبة وبتنا به ثم ارتحلنا منه وسرنا في سطح العقبة وهي أرض مستوية لا عَلَم فيها إلاّ آثار الأبنية القديمة وبعض آثار المزارع ، ونزلنا بفم العقبة الكبرى ، وفي سطح[2] العقبة قبر يزار يقال لصاحبه سيدي عزير[3] وهو من عرب سمالوس يأتيه الأعراب بإبلهم وغنمهم فيمرون بها بين كومين هناك ، ويزعمون أن من مرّ بها هناك لا تصيبه آفة في تلك السنة ، ويقتدي بهم بعض الحجاج في ذلك .

لطيفة : أرض برقة منقسمة في عرف أهلها على أقسام أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت ، ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة

١ في نسخة : دمنة .
٢ في نسخة : وسط سطح .
٣ في نسخة : عزيز .

البيضاء ، ومن هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء ، ومنه إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر ، ومنه إلى العقبة الكبيرة يسمى البطنان ، ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى بين العقبان[1] ، ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى .

وقد ذكر العبدري تقسيماً غير هذا جارياً على اصطلاح زمانه .

ثم ارتحلنا من فم العقبة وانحدرنا منها في منحدر صعب مشرف على البحر ، ثم نزلنا ذلك اليوم بماء يقال له بقبق[2] على أحساء كثيرة في رملة بيضاء في سفح كثيب من الرمل الأبيض يظهر من بُعد كأنّه ثلج .

غريبة : مررنا بهذا المحل سنة أربع وستين فوجدنا فيه سفينة للنصارى قد حرثت في ذلك المحل وهو محل صعب على السفن يسمى جون العقبة قلما تدخل فيه سفينة وتسلم ، وبعد أن تجاوزنا ذلك المحل لحقنا نصراني من أهلها وتزيّا بزي المسلمين وكان يحسن العربية فقال : إنّي من إفريقية جئت في هذه السفينة التي حرثت وهي للمسلمين ، وبقي معنا في الركب يحسن الناس إليه بالطعام والشراب حتى وصلنا الإسكندرية ودخل إلى سفن النصارى ولم يتفطن له أحد أنّه نصراني حتى وصل إليهم ، وبقيت سفينتهم في ذلك المحل إلى أن أدركنا رسومها في هذه السنة .

ثم ارتحلنا من بقبق ونزلنا مقابلة ماء يقال له القتبل ، وفي الغد نزلنا على ماء يقال له شماس وقريب منه آخر يقال له الفوار ، وهاتان المرحلتان / كلتاهما [١١١] فيهما آثار الأبنية المتصلة جدّاً حتى لا يكاد يخلو ميل واحد من البناء ، والبقاء لله وحده .

١ في نسخة : العقاب .
٢ في نسخة : بقباق ؛ وفي نسخة أخرى : بقبو .

ثم ارتحلنا منه ومررنا بماء آخر بقربه طيب يقال له حلق الضبع وفوقه غدير كبير في أصل جبل صغير قلما يخلو من ماء الغدير ، وما[1] نزلنا إلى موضع يقال له قبر العاصي فيه قبور معلمة بأحجار وخشب .

ثم ارتحلنا منه ومررنا بماء يقال له العبدية وهي بئر كبير مطوق بحجر في سفح جبل ينزل إلى البسيط الذي فيه في منحدر صعب كان أحق باسم العقبة الصغيرة من المكان المسمى به إلا أن العقبة كانت في حَدَب ذاهب في البر لا غنى لأحد عن المرور بها اشتهر اسمها ، وهذا إنّما هو على شفير البحر لا يمر به إلاّ من سلك ساحل البحر ، وبإزاء العبدية ماء آخر يقال له مطيريح مصغراً ، وهو آبار متعددة قريب ماؤها في بسيط من الأرض ذي نطف كثير ، يشرف على ذلك البسيط حاجب شبه جبل صغير فيه بيت منحوت في الحجر شبه الذي ذكرنا في البطنان إلاّ أن هذا أصغر منه ، وبعده ماء آخر يقال له مطروح مكبراً وكان فيه نزولنا ظهراً ، وسقى الناس إبلهم وكانت قبل ذلك لا تشرب ولو أقامت ما عسى ، وما أذكر أن إبلنا شربت الماء الحي من قبل دخولها إلى طرابلس حتى وصلنا هنا .

وأغرب من ذلك أنّا عددنا[2] للإبل سنة خمس وستين من يوم دخولنا مصر آيبين إلى أن خرجنا لبرقة وبلغنا الجابية تسعين يوماً لم تشرب ماء حتى قرب الصيف ويبس العشب وصار هشيماً ، وكذلك هذه السنة لم نَرَ شدّة الحر والجدب في الأرض إلى هذا المكان وأما قبل ذلك فقلما يخلو لنا يوم من ماء مطر وكلإ فوق الحاجة ، وقدمت معنا غنم كثيرة من الجبل الأخضر جلبها التجار إلى مصر فما كانت غنمهم تجوع ولا تعطش وأنعم الله على الحجاج

١ كذا .
٢ في نسخة : أن عودتنا .

بمرافقهم لا تخلو لهم ليلة من شراء لحم بأرخص ثمن سيّما التي أصابها الحفاء أو كلت عن المشي لسمنها ، فيشترى ذلك بثمن بخس .

وبرقة في هذه السنة قد أنعم الله على وفده فيها ، دخلوها في فصل الربيع فصادفوا ماء ومرعى ، وقلما تخلو لهم ليلة من لحم وسوق إما مع عرب يصادفونهم وإمّا مع المنتجعين معهم أو التجار الذين انضافوا إليهم ، إذ لا يقدرون على المشي وحدهم فهم يتحينون قدوم الحاج حتى يذهبوا في خفارته ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون .

لطيفة : ولمّا اشتد الحر كانت الغنم لا تقدر على المشي قائلة ، فيسوقها [١١٢] أصحابها آخر الليل ، فإذا اشتد الحر قالوا بها حتى يلحقهم الركب / عند هبوب الرياح وبرد الهواء فيسيرون معه إلى المنزل .

ولمّا قربنا من العمران وتخوفوا أن يذهبوا وحدهم اكتروا جماعة من الحجاج نحو العشرة يذهبون معهم بمكاحلهم آخر الليل ويتقدمون ، فأعطوهم شاة لكل واحد ، فزعم بعض الناس أن ذلك لا يجوز وأنّه ثمن الجاه وخالفته في ذلك وقلت : إنّما هذا كراؤهم في تقدمهم معهم وحملهم السلاح معهم خشية أن يقتطعهم أحد قبل وصول الركب ، والجاه إنّما هو للركب لا لها ولا للجماعة المتقدمين إذ لو لقيهم أحد لم ينفعهم جاه الركب وهم غائبون عنه إلاّ أن يقاتل عنهم من معهم من الرماة ، وقد أفتى الإمام ابن عرفة في بعض مرابطي إفريقية ممن كان يذهب مع القوافل بجواز أخذ الجعالة منهم وقال : إن ذلك عوض عمّا كان يعطله من منافعه أيام ذهابه معهم وأجرة على خطاه ومشيه لا على جاهه كما نصّ عليه غير واحد من أصحابه فهؤلاء أجدر بالجواز من ذلك ؛ ثم ارتحلنا من مطروح . . .

[٣٦٩] وفي اليوم العاشر [١] طلعنا العقبة الصغيرة والمسافة بينها وبين الإسكندرية نحو من أربع ليال [٢] ولقينا هناك قافلة امتاروا تمراً من بلاد سوى ، فاشترى الناس منهم حاجتهم من التمر ، وتمر هذا البلد أحسن تمر رأينا في بلاد المشرق حلاوة ونقاء وكبراً ، يشابه تمر سجلماسة يحملونه في مقاطف صغار من سعف النخل ، تسع كل واحدة أزيد من ربع القنطار ، ويبيعونها كذلك بأوعيتها ، وأخبرونا أنها لا تباع في بلادها إلا كذلك ، فمشتريها لا يحتاج إلى حبال للشدّ ولا غرائر للحمل ، بل يشتري حاجته منها فيعلقها على بعيره فمن الإبل ما يحمل العشرين فما دون .

ثم سرنا فيما بين العقبتين بمثل سيرنا الأول نرد المناهل التي ذكرناها في الذهاب ، والأرض مجدبة كأنها لم تكن كذلك مخصبة ، قد أطارت الرياح ما فيها من الهشيم ، ويبس أوراق الشجر بترادف البرد العقيم .

وقطعنا ما بين العقبتين في عشرة أيام ، وطلعنا العقبة الكبرى في اليوم العاشر ، ولم يتزوّد الناس من الماء يوم طلوعنا ظنّاً منهم أن الماء يجدونه لكثرة الأمطار وخبر العربان ، فلمّا طلعوا لم يجدوا من الماء إلاّ شيئاً قليلاً في ماجل فوق سطح العقبة ، فتزحوه فما قارب كفايتهم . وفي الغد وهو يوم الخميس ظلّ الناس سائرين خائفين من العطش كلّما رأوا نشزاً من الأرض الحمراء تسابقوا إليه والخبير أمامهم وهم بأثره كأجود الخيل إلى المغرب ، فلم يجدوا ماء ، ولا سمعوا له خبراً ، ونزل الناس بعد المغرب في صحصاح من الأرض لا ماء به ولا كلأ ، وذهب الدليل وحده يطلب الماء وظنّ به أكثر الناس السوء ، وزعموا أنه قال لهم : إن لم أجد الماء فلا أرجع إليكم ، وهو في ذلك مصيب ، فإنّه إن

١ من هنا بدأ العياشي يسجل مشاهداته في العودة إلى وطنه .
٢ في نسخة أربعة مراحل .

رجع إليهم بغير ماء قتلوه بلا شك ؛ وبقي الناس في حيرة ، كل واحد يزجر طيره ، ويسأل عن تفريج كربه غيره ، فلمّا كان بعد العشاء الأخيرة جاء [٢ : ٣٧٠] الخبير وأخبرهم أنّه وجد الماء ، فمن الناس من صدّق ومنهم من كذّب ، وكانت معنا فضلة من ماء تقسطناها شرباً ولم نطبخ عشاء وادخرنا فضلة منها لغد خوفاً من عدم وجدان الماء ، ولولا أن الفصل فصل برد ، أوائل دجنبر ، لهلك بعض الناس عطشاً ؛ فلمّا أصبحنا استبق الناس إلى الماء ، فوجدوا ما كفاهم من ماء المطر في مسيل واد ذي أحجار لم يمر عليها الركب الذي أمامهم ؛ فأخذ الناس منه حاجتهم وساروا .

لطيفة : لما أصبحنا في ذلك اليوم بعثت بعض أصحابنا إلى الماء مع السيارة المتقدمين وكان معه مفتاح قيد من حديد على فرسي ، ولم أشعر بذلك إلى أن طلع النهار وارتحل الناس ، فتفقدت المفتاح ولم أجده وأعيتنا الحيلة في فتح القيد ، إلى أن خرج الناس من المنزل ويئست من انفتاحه . فلمّا حصل الاضطرار ، جاءت الاستغاثة من الملك الجبار ، فحركنا الفرس فطار القيد من رجليها من غير صنع أحد ، فحمدنا الله كثيراً ، وكبّرنا له تكبيراً .

وسرنا بقية ذلك اليوم . وفي الغد منه نزلنا إلى البطنان فنزلنا في أرض سهلة مطمئنة وسرحت الإبل قرب المنزل ، وعندما اختلط الظلام عدا بعض متلصصة عرب الهنادي على فرس لبعض الحجاج فركضها من فناء الخيام ، فركبنا وتبعناه فلم نقع له على أثر ، وحال الظلام بيننا وبينه ؛ ثم بلغ الخبر إلى شيخ الفريق الذي هناك من الهنادي ، وجاء بالليل إلى شيخ الركب واعتذر له ، وبعث إليها من جاء بها من أهلها ، فواعدوه بكسوة فلم يوفوا له بما وعدوا ، وتلك شيمة في حجاج المغاربة يكادون أن يعاملوا بمثلها والله يلطف بالعباد .

وفي الغد نزلنا ظهراً على ماجلٍ كبير في البطنان يوم الأحد ، حتى سقى

الناس إبلهم واستقوا ، وأقاموا بقية يومهم ، والله الحفيظ فهو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين .

ثم في الغد نزلنا قرب المكان المسمى بالمدور وهو مكان فيه ماجل للماء قلّما تخلو منه إلا في السنة المجدبة ، وفيه مزارع ربما مررنا بها وفيه زرع كأجود ما يكون .

ثم في الغد نزلنا على البسيط الذي يمر منه إلى عين الغزالة ، ثم في الغد مررنا على يمين الطريق فوق الجبل المستطيل بين الطريق والبحر بماجل فيه ماء كثير ، واستقى الناس منه ، ولم يمر الركب به أجمع وإنما مرَّ به من قصده للورود ، وكنت جُنُباً وكان اليوم شاتياً ، فكنت أسأل الله أن ييسّر لي في الاغتسال ، فوجدت ماجلاً مهدوماً ودخلته أنا وصاحب لي وأورينا ناراً وسخّنّا الماء ، فاغتسلت في مكان أشبه الأمكنة بالحمّام دفئاً ، بحيث لا أحس بشيء من البرد
[٣٧١:١] مع شدته ، فحمدت الله كثيراً وشكرته .

ومررنا يومنا على يسار عين الغزالة ، وهي ماء فيه ملوحة تسحّ من سفح جبل وتصبّ في بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح يحف بها القصب والعريش وأنواع النبات المائي ، يوجد حولها صيد كثير عند خلو البلدة من كثرة المارة ، وبتنا تلك الليلة في سفح الجبل المقابل لها من غربيها .

ثم في الغد يوم الجمعة نزلنا على التميمي ضحى ، ووجدنا ركب الجزائر مقيمين فيه ، وكرهنا الورود عليهم لأجل ما بين الركبين من الشنآن ، وكانوا يتوقعون منهم فتنة ، فوقى الله شرها ، ونزل ركبنا دون الوادي بنحو ميل ؛ فلمّا أصبحنا ارتحل أهل الجزائر وأقام أصحابنا ، وكان من أشد يوم رأيناه برداً مشوباً ببلل يشوي الوجوه فضلاً عن غيرها من الأعضاء ، وحمدنا الله على الإقامة ، ورأينا ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر

الناس لا يعلمون ؛ وهم الذين رحلوا رائين أنّهم حازوا قصب السبق بالتقدم وتحملوا مشقة ذلك اليوم العبوس القمطرير لحظّ عاجل في فلوات من الأرض لا يحمدهم عليه ربهم ولا أحد من العباد ، نسأل الله تعالى أن لا يملكنا لحظوظ أنفسنا الزائلة ، وأن لا يجعل أزمّتنا بأيدي الآراء الفائلة . ولم يجد الناس ما يتسوقون في مورد التميمي ، وكان معهوداً بالسوق غالباً ، إلاّ شرذمة من متفقرة أعراب ذلك البلد وشيخهم يدعونه سيد حسين العجل ، من متفقرة الأعراب مزج تفقره بمشيخة الصرم الذي هو فيه ؛ جلبوا إلى الركب شياهاً وعنزاً وتيساً وكنّ هزالاً ، وبيع الزرع هناك بسبعة قروش لإردبّ القمح ، وأكثر من اشتراه عرب البلد ، وأخذ الحجاج منه قليلاً ، وكانت معنا قافلة لبعض الأعراب تحمل زرعاً بقصد البيع لما رأوا في العام الذي قبله من المجاعة التي لحقت الركب في برقة ، وذلك الغالب على من سلك برقة في أيام الشتاء تقصر الأيام وتكثر المراحل وتتسع الأمعاء للأكل فلا يكاد يكفي الإنسان ما يحمله من الزاد من مصر إلاّ من له فضل ظهر يستظهر بحملان أكثر ممّا يحتاج في الغالب ، وقليل ما هم ؛ وعامة الناس إنما يحملون الزاد من أرياف مصر مقسطاً على المراحل المعدودة لقلة الظهر وطول المسافة ، فيتضررون لذلك بزائد المراحل التي يوجبها قصر الفصل مع كثرة العوارض المؤذية ، بالإقامة من شدّة برد أو مطر ، أو عروض مخافة توجب الإقامة ، وهذا عكس ما وقع لنا في الطلوع في فصل الربيع فقد فضل للناس بعد الخروج من برقة عامة أزوادهم ، ولم ترزأهم المسافة منها إلاّ القليل ، حتى قال بعض الحجاج بعد الوصول إلى مصر : قدر الله علينا أن نأكل الطعام بأغلى ثمن في أرض
[٣٧٢:٢] رخيصة الأسعار كثيرة الأرزاق ، وذلك أنهم اشتروا الطعام / من طرابلس بسعر غال ، واكتروا عليه بأضعاف ممّا اشتروه به إلى مصر ، فلم يُقدَّرْ

لهم أن يأكلوه إلا في مصر ، فيأكلون الأكلة منه في مصر بثلاثين أكلة في مصر ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . وقد تسوق إلى الركب بعض الأعراب هناك بسلع نهبوها من سفينة تكسرت في بعض سواحل البطنان ، فمن الناس من اشترى ومنهم من كف وقليل ما هم ، ومن جملة ما أتوا به للبيع مصحف بخط مشرقي ، وكتاب آخر فيه شرح « منية المصلي » في فقه الحنفية وهو غاية في بابه ، فهممت باشترائه استخلاصاً له من أيديهم لأنّه عرضة للضياع والإهانة ثم كففت خشية أن يقتدى بي في استحلال شراء أموال المسلمين ، ولغلبة الظن أنّي لا ألقى ربه فأرده عليه ، فآثرت السلامة .

وفي الغد منه أقام الناس ثانياً لجمع ما فرضوه لخلاص الدليل ولسوى مصالح ذلك ، وكان جملة ما فرضوا نحو سبعين ريالاً للدليل ، منها ثلاثون : عشرة منها قيمة ناقة له تكسرت قرب الجميمة فغرمها الحاج له تطييباً لخاطره ، وعشرون منها أجرته ، وخمسة عشر أعطوها لشيخ من شيوخ الركب كان قليل ذات اليد شكس الأخلاق ، ومعه طائفة من أهل بلدته يرون رأيه ، فكان الناس يدارون منه بعض الحدّ خشية افتراق الكلمة ، ويعرف بابن مؤمن من أندلس مراكش .

والشيخ في الحقيقة الذي لا ينبغي أن يعدل عنه عند وجوده الحاج محمد ابن الحاج عمران المراكشي ، فقد كانت له سراوة نفس وطيب أخلاق وحسن عشرة واحتمال مع طوائف الناس ، وله سخاوة يدٍ وعفة قلب عن المطامع ، وآتاه الله مع ذلك سعة من المال إلا أنّه ليس معه عصبية . وقسيمه الآخر في الرئاسة قد اعتضد بعصبة من أجلاف الأندلس وشياطينهم ، وعظم الناس لا يعدلون بابن عمران أحداً .

ومن جملة ما فرضوا عشرة ريالات للعلامين وثلاثة للبراح ، وضربوا

الأجرة في هذه المرة على أحمال السلع خاصة ، وكان معي حمل من الكتب ولم يأخذوا عليه شيئاً ولم يطالبوا أحداً ممّن ليس معه سلع ، وهو أرفق بالمساكين وإن كان الأوجه من حيث النظر ضرب الأجرة على كل الإبل لاشتراك الكل في منفعة الدليل على حد سواء ، لأن منفعته هداية الطريق والدلالة على موارد الماء ، وأهل الأحمال وغيرها في الاحتياج إلى هذين الغرضين على حد سواء بخلاف أجرة المجير الذي يجير الركب من اللصوص ، فليس خوف صاحب الأحمال والسلع الكثيرة كخوف غيره ، لأن المقصود بالأذاية في الغالب هو من له أحمال وسلع ، والفقير قلّما يُتَعَرَّض له سيَّما مع وجود غيره . . .

[٢ : ٣٧٤] ولم يقدم أحد من درنة للسوق كالعادة لأجل الفتنة الواقعة بين أهلها وأميرها الحاج محمود عامل عصمان باشا صاحب طرابلس ، وذلك أن أكثر سكان البلد مغاربة لأنها حديثة العهد بالعمارة ، ولم يبقَ من أهلها بالأصالة أحد ، فلمّا عظمت شوكة الوالي أنف سكان البلد من الفضيحة ، فأضمروا له العداوة وثاروا عليه في المدينة ، فأخرجوه وصار في مركب إلى مدينة كندية ، وبعث إلى طرابلس يعلم الباشا بالخبر ، فبعث الباشا مركباً من طرابلس مشحوناً بالمقاتلة ، ورجع الحاج محمود من كندية في مركب آخر ، فتوافوا على البلد فأخرجوا كل من كان فيها من المغاربة بعد قتل ذريع ونهب ، وصاروا لا يتركون أحداً يدخل البلد ممّن ليس من أهلها حتى الصعاليك من الحجاج والمتسوقة فيبيعون ويشترون خارج البلد .

ثم ارتحلنا من التميمي يوم الاثنين ، فلمّا نزلنا ليلاً وكانت عادة الجمالين أنهم يعتمون في مسارح الإبل فلا يرجعون إلاّ بعد هويّ من الليل ، ولم يروا قبل ذلك بأساً فاطمأنت قلوبهم ، فجاءهم على غرّة قوم من الأعراب الذين

تركناهم بعين الغزالة فأغاروا على بعض إبل الركب ، فأخذوا منها نحواً من عشرين بعيراً ، فلمّا أصبح الناس هموا بالرجوع إليهم وغزوهم في حلتهم ، ثم تراجع الناس عن ذلك وكان بعض الإبل لمرابطة سمالوس ، فتبعوهم وردوا إبلهم إليهم ولم يلحقوا بنا إلى أن جاوزنا سمالوس وبعض الإبل [٣٧٥:] للجوابس وهم رهط معتوق دليل الركب فلم ترجع .

ثم ارتحلنا ضحى ونزلنا قرب غدير يسمى بو هندي ، وفي الغد مررنا به ضحى وسقى الناس واستقوا ونزلنا المخيلي قرب المغرب بقليل وكان به أثر مسجد تهدم ولم يبقَ إلا منارته ، وعلى بابها قبر شيخ الحجاج عمران ، وولده محمد هو شيخ الركب بعد موت أبيه ، وموت أبيه كان في شهر رمضان في السنة الفائتة ، وهذا الذي طلع بالركب من مراكش ولده . فلمّا باتوا بهذا المحل وتسحر قبل الفجر وما به من بأس ثم أصابه سعال شديد بأثر ذلك مات منه قبل أن يرتحل الناس من المنزل ودفن هناك رحمة الله عليه . فعندما مررنا به وقف الحجاج عليه هنيئة وقرأوا ما تيسّر وبنوا عليه حائطاً من الحجارة ، ونزل الركب بقربه .

ثم ارتحلنا من المخيلي ، وفي اليوم الثالث مررنا بسمالوس ظهراً ، وسقى الناس واستقوا ، ووجدنا فيه ماء كثيراً ، وهو واد كبير يهبط من الجبل الأخضر تصب فيه أودية كثيرة من أودية الجبل قلّما يخلو من ماء إلاّ في الأعوام المجدبة . وفي اليوم الثاني منه استهل جمادى الثانية ليلة الاثنين ، وفي اليوم الثالث نزلنا بإزاء قصور الرجيبة ووجدنا هناك أعراباً كثيرة من عرب الجبل السعادي : الفوائد وغيرها .

وفي الغد ارتحلنا وسرنا في وادٍ كلّه ربيع وماء وأعراب والناس يتسوقون ويشترون اللبن والسمن عامة يومهم ، ونزلنا بعد العصر بالبيوت آخر الجبل

الأخضر ، ولحقنا هنالك أواخر ركب الجزائر ، وكانوا يظنون أن لا نلحق بهم فلمّا لحقناهم جدّوا في السير ولم ينزلوا إلى الليل .

وفي الغد ارتحلنا وتركنا مورد سلوكهم عن يميننا وقصدنا الجابية والركب الجزائري أمامنا يتوارى لأولنا ونحن آخرهم . وفي اليوم الثالث نزلنا الجابية عصراً ومررنا بهم وهم نزول فبعثوا إلينا أن تأخروا عنا حتّى نرتحل أمامكم ، فأنف أصحابنا من ذلك ، فتجاوزوا الجابية ولم ينزلوا بها ولا عرّجوا عليها ، ولم ينزل ركبنا إلاّ العشاء الأخيرة على آبار أخر على نحو فرسخ من الجابية ، وعليه أثر قصر تهدم ، وكان أهل الجزائر قد طلبوا من أصحابنا أن يتأخروا عنهم يوماً يقيمونه بالجابية معتلّين بأن معهم من أكابر ترك الجزائر طائفة لا يرضون أن يتقدم عليهم صعاليك المغاربة لأنهم جيش السلطان ، فأخذت أصحابنا الحمية والأنفة ، وقالوا لهم : نحن لا نعرف عزّاً ولا سلطاناً ، وحلف الآخرون أن لا يتقدموا عليهم حتّى خشينا أن تكون فتنة فكفّ الله أيديهم وجهدوا أن يلحقوا بنا فلم يقدروا بعد ذلك .

ثم ارتحلنا من هناك مجددين السير خشية لحوق أهل الجزائر بنا فتكون [٣٧٦:٢] فتنة على غير شيء ، وفي اليوم الثاني لقينا على قصيرات / وعتلا عرب الجهمة الذين قتلوا عبد القادر ابن أخي عبد الرحمن الجبالي ، وقد قدموا من فزان ، فلمّا رأوا أوائل الركب ظنّوه غازياً للجبالي ، فانجفلوا إلى فدفد على ساحل البحر تحيط به سباخ يتعذر سلوكها إلاّ من محل واحد ، وبعدما وصلوا إليه رجعت خيلهم وتلقت الركب من إمام فتشوش الحجاج منهم ، فلمّا وصلوا إلينا وعرفوا أنّنا حجّاج جاء أشياخهم وتكلموا كلاماً طيباً ، وقالوا : ما نحن إلاّ في بَركة الحجاج ، وإنّما ظننّاكم من جموع الجبالي ، سيروا رويداً ونحن قاصدون إلى الهنادي ، وهم عرب العقبتين ، ومعنا مائتا

فارس وأربعمائة راجل ، وكتبوا مع شيخ الحجاج كتاباً إلى الباشا زاعمين أنّهم لم يقصدوا مخالفته وإنّما أضرّ بهم الجبالي حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، وأنّه إن أمرهم بنزول الجبل نزلوه ، وكانوا قد استنصروا بسلطان فزان على الجبالي لما ثقلت عليهم وطأته ، فجاء معهم بجموعه ومن انضاف إليهم من عرب تلك الناحية حتى أغاروا عليه في بلد سرت ، وأهل حلته غارّون منتشرون في آفاق الحرث ، وأخبرونا أنّهم في وقت الغارة صادفوا عبد الرحمن وابن أخيه عبد القادر يأكلان لحماً حنيذاً بينهما ، فلما أحسوا بالخيل قال عبد القادر لعمّه : انجُ بنفسك وأنا أدافع عنك الخيل ريثما تبعد عنهم ، فنجا برأس طمرّة ولجام ، ودافع عنه ابن أخيه حتى قُتل ، وأخذوا جميع ما معهم من حلل الأعراب ، وخلت قصور سرت من يومئذ ونهبوا ما فيها ورجعوا إلى فزان ، وأقاموا هنالك حتى جاؤوا في هذه الكرة .

ثم ارتحلنا من هناك وأصابنا مطر أول النهار إلاّ أنّا كنا بأرض مسترملة فلم يمنعنا من السير وإن عاقنا بعض التعويق ، ونزلنا قرب المضيق الذي دون المنعم ، وفي الغد مطرنا أيضاً مطراً أشد من الأول ، وتقدّم الناس إلى المورد ليستقوا فلم يخرجوا من مضيق السبخة عند منقطع الرمل حتى وجدوا الطريق ممتلئة ماء فاستقى الناس منها ولم يقفوا ولا تعطلوا ، وأغناهم الله بماء السماء عن ماء الآبار . وتجاوزنا مورد المنعم قبل الظهر ولم ننزل إلى المغرب ؛ وفي الغد بينما نحن نسير أول النهار إذ سمعنا صوتاً هائلاً مثل الرعد القاصف فظننّاه مدافع عرب وقع في البحر بين المراكب ، فتسارع الناس للصعود على الحاجب الذي بيننا وبين البحر ، وكنت فيمن ذهب فلم نرَ في البحر شيئاً ، وأخبرنا بعض الناس ممّن لهم علم بأحوال البحر أن ذلك صوت يُسمع في البحر أحياناً يسمى تمد لا يعلم له سبب وأظنّه أنّه قال : إن ذلك إنّما

يقع في الغالب عند إبّان المطر .

ثم مورنا وسط النّهار يوم الخميس بأسفل السبخة التي فيها منقطع [٢:٣٧٧] الكبريت ، وبه / سمي المكان ، وبقي في ذلك اليوم جمل لنا تخلف عليه بعض أصحابنا ، فتخلفت لأجلهم مع طائفة من الحجاج ، ولم نصل إلى الركب حتى قرب العشاء ، وهم نزول . وفي الغد عدلنا عن السبخة يساراً وسلكنا أطراف الشعاب التي تشرف على الساحل ، وهي طريق غير معتادة للركب إلا أنّها مخصبة صلبة لا يخشى فيها من وحل السباخ إذا نزل المطر ؛ وفي الغد مررنا بغدران كثيرة وربيع كثير في تلك الأودية وتلك أوائل بلاد سرت . فلمّا بتنا قرب الكحيلة في أعلى واديها ترقّبَ الناسُ قدوم الشيخ وجماعته إلى الليل فلم يقدموا ، وكانوا تأخروا في بعض تلك الأودية يطبخون غداءهم وتلك عادتهم من يوم خروجنا من الإسكندرية يتناوبون ذلك فيما بينهم فكل يوم يأتي أحدهم بآلة الطبخ والمطبوخ على قدر كفايتهم فيتقدمون أمام الركب من المنزل فإذا وجدوا محلاً مخصباً نزلوا وطبخوا وأكلوا ورقدوا حتى يجوزهم الركب فيقوموا ، وفي ذلك اليوم كانت المرحلة ذات شعاب كثيرة ، فلمّا فرغوا من أكلهم وركبوا ضلوا عن طريق الركب وكانوا اثني عشر رجلاً ببغالهم ومكاحلهم ، فذهبوا ذات اليسار ، فلمّا علموا أنّهم حادوا عن طريق الركب اختلف رأيهم في السير يميناً أو شمالاً ، ثم اتفق رأيهم على المبيت إلى الصبح ، وبات الناس تلك الليلة يخوضون في أمرهم وأوقدوا ناراً على قدفد ، ورفعوا مصباحاً على رمح وضربوا بالطبل والمدافع ، فلم يقفوا لهم على خبر ، فلمّا أصبحنا ارتحلنا وظنناهم أمامنا وذهبنا أمام الركب نقتص الأثر فلم نقع لهم على أثر ، فبينما نحن كذلك إذ لحقوا بالركب ظهراً ، وكان من أمرهم أنّهم لما أصبحوا اتفق عزمهم على أن يذهبوا إلى ناحية البحر ،

فلمّا ساروا قليلاً رأوا ركب الجزائر فقصدوهم فلمّا عرفوهم عدلوا عنهم إلى أن وقعوا على أثر الركب فاتبعوه ، ولم نبت تلك الليلة إلى قريب من الشقّة ووجدنا بها أوائل عرب زاوية أولاد سيدي ناصر . وفي الغد مررنا بالشقّة ضحى ولم نجد بها ماء . وفي الغد مررنا بقبر قدير[1] ، ونزلنا مورد الأحمر ، ثم ارتحلنا منه ونزلنا قرب الموضع المسمى بالمدينة ، وفي الغد مررنا بها ، ولم نزل نسير ذلك اليوم والغد منه في مزارع وربيع كثير إلى أن نزلنا الزعفران ، ووجدنا قصوره خالية من لدن قتل سلطان فزان مع الجهمة والهبابية لعبد القادر وأخذوا أعرابه ، وقد جاؤوهم غارين ظانين أن لا يقدر عليهم أحد فقتلوه ونهبوهم كما تقدم خبر ذلك .

ثم ارتحلنا منه واستقبلتنا ريح باردة لم نرَ مثلها قبل ذلك ، ودامت طول النهار وغده إلاّ أنّها في اليوم الثاني أخف ؛ وفيه مررنا بحسّان ظهراً وهذا الاسم الآن صار علماً على موضع فيه مورد ماء ضنين قلّما يوجد فيه ما يكفي [٣٧٨:] الركب إلاّ في أزمنة الخصب ، وكان في الأصل اسماً لعامل لبعض ملوك بني مروان بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبة بن عامر أمير إفريقية ومفتتحها وارتداد غالب أهل إفريقية ، فنزل في هذا الموضع وبنى فيه قصوراً تسمى الآن قصور حسّان ، وكان يغير من هناك على إفريقية ، وأقام بذلك المحل نحواً من ثلاث سنين وخبره مذكور في تواريخ فتوح إفريقية . وقريباً من هذا المحل لقينا أوائل عرب الجبالي عبد الرحمن الذين استنفرهم الأخذ بالثأر ، وهو معهم بمحلته من الأتراك وغيرهم ، وظننّا أنّه يعارضنا للسوق فلم يجتمع بنا واجتمع بركب الجزائر ، وكان قد حمى واسطة سرت فلم يقدر أحد من

---

١ في نسخة : نوير .

أعرابه أن يتقدم إليها مع غاية خصبها حتى يقدم .

وفي الغد سرنا طول النّهار والبحر عن يميننا والسبخة عن يسارنا ، وكنّا نظن أنّا نقطع مخاضة الهائشة آخر ذلك اليوم ، فلم نقدر وبتنا قريباً منها ، وفي الغد لقينا صبحاً بعض الصعاليك ممّن قدم من المغرب ، فأخبرونا ببعض أخبار المغرب في الجملة ، وقطعنا مشرع الهائشة ولم نجد به شيئاً من الملح ، وطلب الناس فيه ولو ما يعشّيهم فلم يجدوه لأنّها صارت كلّها ماء بكثرة الأمطار ، ووجدنا ماء الهائشة كلّه أقبح ما يكون وكنّا ظننّا أنّه يحلو بكثرة الأمطار فلم تزده إلا مرارة ، وسرنا بقية يومنا ، وفي الغد نزلنا بوكدية آخر منازل قفير برقة التي قيل فيها : « غرقة ولا برقة » .

وفي الغد لاحت لنا أعلام العمارة ، وظهرت لنا من الدنيا أمارة ، وتصايح الحجاج : البشارة البشارة ! هذا أوائل العمران ، قد كشف لنا أستاره بأمان ، ودخلنا قصر أحمد ظهراً ، نظهر فرحاً ونسرّ ذعراً ، لأنّنا لم نرَ العمارة دهراً ، يخيل إلينا أن المباني والنخيل شيء ما عرفناه ، وانتشار الناس في أرجائها أمر ما ألفناه ، وكأنّنا أموات نُشروا ، ومن المقابر حُشروا ، وما أسرع انقضاء سفر تنقصته الليالي والأيام ، فكيف بعمر مرت له الشهور والأعوام ، نسأل الله حسن الختام ، على الإيمان والإسلام ، والعفو والعافية على الدوام ، آمين .

ولمّا دخلنا قصر أحمد سألت عن صاحبنا الحاج عبد الله بن غلبون فدلوني على مسكنه ، ولم أجده فيه ، ونزلنا بالفناء حتى قدم ، فأكرم نزولنا وأجزل قِرانا وعلف خيلنا وعرض علينا المبيت فأبينا لعدم نزول الركب ، وقد طلب منهم أهل البلد النزول متبركين بهم فأبوا ، ولم يبيتوا تلك الليلة إلى تكيران — بلد ولي الله تعالى قطب الزمان وإمام أهل العرفان سيدي أحمد

[٣٧٩] زروق رضي الله عنه ونفعنا به – وسرت / أنا وصاحب لي كما نحن ولم نعرّج على منزل الركب إلى أن نزلنا بغرب مسجده ، ودخلنا للزيارة والصلاة وأردنا المبيت بالمسجد فوجدناه غاصّاً بالصعاليك من الحجاج ، وأكثروا فيه اللغط ، فذهبنا إلى دار صاحبنا سيدي أبي العباس خادم الزاوية ، فبتنا عنده تلك الليلة وأكرمنا ، وكانت ليلة الجمعة وكتب لي سؤالاً في مسألة من بيع الثنيا هل تبطل بموت البائع أو المشتري ؟ وكتبت له في ذلك ما حضرني في الوقت ، مرجحاً بطلانها بموت المتطوع بها لأنّها هبة لم تقبض كما قيل بذلك ، ولم أعلم أن النزاع بينه وبين ابن عمّه في ذلك مقدم طائفة المجاورين هناك سيدي عبد الواحد ، فوجد عليّ في نفسه ولم يظهره لي ؛ وأقام الركب هناك يوم الجمعة والسبت نتعاهد زيارة الشيخ طرفي النهار ، والأمطار قلّما يخلو منها الجو ، وكذلك دأبه من يوم رحيلنا من الجابية قلّما يمر علينا يوم صاحٍ ، فأخصبت البلد لذلك وغزرت مياهها ، فتجد على طرف كل بلد بحيرة من الماء النازل من الجو والنابع من الأرض ، وربما أضرّ ذلك بالإبل في سيرها لكثرة الوحل ، والغيث كما قيل لا يخلو من العيث ، سيّما على المسافر الذي طال سفره ، وأنهي وطره .

وكان ارتحالنا من سيدي أحمد زروق يوم الأحد وبقيت لنا هناك ناقة وهبتها لصاحبنا أبي العباس وخشي أن يشاركه فيها من بقي من خدام المحل ، قال لي : اذهب مع ولدي ومكّنها له ولا تقل إنّها هبة ، ففعلت ابتغاء مرضاته .

وفي الغد من يوم رحيلنا مررنا بزاوية سيدي عبد السلام ظهراً ، ودخلنا إلى المسجد وزرنا ضريحه نفعنا الله به ، ولقيت سيدي أحمد بو مجيب – وقد تقدّم التعريف به – وبتنا خارج البلد ، وفي الغد مررنا بساحل حامد وزرنا سيدي مفتاح رضي الله عنه ، وبتنا قريباً من آبار السليم ، وسُرِقَتْ لنا تلك

الليلة سطلةٌ عظمت علينا المصيبة بها لأنّها كانت تكفينا في أشغال كثيرة أعظمها تسخين الماء للطهارة لأن الفصل وقت برد .

وفي المساء نزلنا النكازة ونزلنا قرب إينوت ، وفي الغد نزلنا واد المسير بأعلاه ، ووجدنا فيه ماء كثيراً غزيراً لكثرة الأمطار ، ونسي[1] الناس في قطعه مشقة ، ولم يترك آخر الركب إلا بعد العشاء ، بل بات بعضهم في عدوته القصوى .

وفي الغد ارتحلنا ورافقت الركب إلى واد الرمل وتقدمت أمامه مع بعض أصحابي ، ولقينا أهل طرابلس الخارجين للقاء إخوانهم أفواجاً ، وبلغنا تاجورا عند الظهر ، وجاوزناها واجتمعت بينها وبين الهنشير بصاحبنا سيدي محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي – خرج للقائنا ومعه طعام يتلقانا به ورجعنا به معنا وكنت نويت زيارة الشيخ / الصيدلاني فجئنا إليه ووصلنا بعد صلاة [٣٨٠:٢] العصر وتوضأنا وزرنا ، ولقينا ولده سيدي عبد الحفيظ وأخرج لنا طعاماً فأكلناه ولما دعانا للأكل وكنت بالمسجد تربصت ريثما صليت الظهرين آخر وقتيهما ، فعتبني على ذلك وقال : إذا حضر الغذاء تؤخر الصلاة ، فهممت أن أقول له : إنّما ذلك مع اتساع الوقت ، فشممت منه رائحة عدم قبول المراجعة فتركته ، وكان له صيت ملأ الخافقين ، أصله ديني فتحول دنيوي ممزجاً بتدين غمره لإقبال الخلق ونفوذ الكلمة عند الأمراء ، والله أعلم بسريرته ، وأكثر الناس يقولون بحسنها ومذهبي التسليم . وكان شيخنا سيدي أحمد بن مساهل من عادته صلاة الجمعة في الهنشير فرجوت أن أدركه فوجدته قد خرج أمامنا ، ثم صلينا العصر وسرنا ودخلنا المدينة قبيل غروب الشمس آخر يوم الجمعة

---

١ كذا ولعله : وقاسى .

الرابع من رجب ، وتيممنا منزلنا المعهود بجامع الحاج إبراهيم وبتنا فيه .

وفي الغد لقينا شيخنا ابن مساهل ، ولم يقدم أصحابنا بالإبل إلاّ قريباً من الظهر ، وكانوا قد باتوا قريباً من تاجورا ، ولم نجد هناك شيئاً من خبر المغرب ، وقلق الناس من ذلك ، فمن زاعم أنّه لم يبقَ به من يجيء ، ومن قائل منعهم الجوع أو الوباء أو الخوف ، وأنا في ظني أن الوقت قد تأخّر شيئاً ما . وبعد نحو من جمعة دخلت علينا الأركاب الآتية من المغرب : ركب أهل فاس وأميرهم الحاج محمد القسيمي ، وركب أهل مراكش وأميرهم الشيخ المبارك الحاج إبراهيم الغدان ، ولم يقدم أحد من أهل بلدنا ، إلاّ أنّه جاءت مكاتب كثيرة من إخواننا شرحت الأحوال جميعها ، وأقامت مقام المعاين سميعها ، فابتهجنا بها فرحاً ، وأزالت عنا ترحاً ، وملأت أكفنا وَرَقاً — بفتح الراء لا بالكسر — وجبرت بعض ما كان في القلوب لا في القوالب من الكسر ، وقاسينا في تلك المرة ما الله أعلم به من الشدة غالب ما نأكل في اليوم والليلة أكلة واحدة ، وقلوبنا مع ذلك شاكرة لله حامدة ، وكنّا ننتظر شيئاً يصل إلينا من بلادنا نستعين به في زادنا فلم نَرَ شيئاً من الإخوان ، ولا من أحدٍ من الأقران ، إلا ما وصل إلينا من صاحبنا الصديق الود ، الوثيق ذي العهد ، القديم الإخاء ، العزيز السخاء[1] ، سيدي الحاج بوشت المنقوشي ضاعف الله مثوبته ، وطيب أحدوثته ، ووقاه من كل[2] الشرور ، وأجزل حظّه في الدنيا والآخرة من جميع الخير ، آمين آمين آمين ، بعث إلينا عشرة ريالات مع بعض الحجاج الفاسيين أقمنا بها الأود ، وقضينا بها بعض مصالح ذلك

١ في نسخة : السخي .
٢ من كل : مكررة في الأصل .

الأمد ، والأشد علي من كل شيء قضاء دين صاحبنا الحاج أحمه العجين [٢:٣٨١] الذي استدانته من القاهرة ووعدته / ببعثه من طرابلس ، ظنّاً مني لم تصدق مخايله أنّه يأتيني شيء من البلد ، أو ألقى هناك من أتسلف منه ؛ فلمّا انقشع غيم ذلك العارض ، وأخلف خلّب برقه الوامض ، علمت أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ، ولا وسيلة أكرم عليه من رسوله المكين لديه ، صلى الله عليه وسلم ، فشرعت في تكميل تخميس البردة المبتدأة في غزة ، قاصداً بذلك التوسل به إلى الله تعالى أن ييسّر خلاصي من الدين من وجه سهل ، فأكملته في نحو من أربعة أيام ، وأنا في خلال ذلك أكابد همّ الدَّين مصدقاً بأثر : « لا همّ إلاّ هم الدين ، ولا وجع إلا وجع العين » . وفي اليوم الذي أكملت فيه التخميس بل في المكان الذي فرغت فيه منه مَنَّ الله بخلاص الدَّيْن من جهة أرجو من الله إتمامها بلا كلفة ، وقد فعل فلله الحمد والشكر ، وذلك أنّي أوصيت بعض أصحابنا أن ينظر لي من يبيع سلعاً من الحجاج بالسعر الذي بلغهم أنّها تساوي في المغرب ويربح كلفة الطريق والأمن من خطره ، فتردد في ذلك تلك الأيام فلم يجد شيئاً إلى أن يسّر الله ذلك في ذلك اليوم من عند بعض شرفاء مكناسة وهو سيدي إدريس بن أبي عبد الله أحد أهل البيوتات وذو الثروة والرياسة في مكناسة ، فاشتريت منه بمائة مثقال اشقوبية إلى المغرب ما يبع في طرابلس بنحو من مائة ريال ، فبعثنا إلى صاحب الدين ما له علينا ، واسترحنا من همّ الدين ، وأخذنا في التجهيز بما يحتاج إليه السفر من الزاد والرواحل والأسباب ، فبعنا ما فوق وما تحت لشراء الظهر ؛ وفي كل جمعة أركب للعمروس لشراء الإبل وهو أعظم أسواق طرابلس تجلب إليه الإبل من كل مكان ، وأردت بيع الفرس فيه فلم يتيسر ، وكنت أرجع في كل جمعة أصلي الجمعة بزاوية سيدي محمد الصيد ، وأنا فيما بين ذلك

أخرج طرفي النهار للسعي في قضاء الدين[1] ، وفي خلال ذلك ترد علي الفتاوى من أهل البلد لما سمعوا بي وأجيب عليها بقدر الحال ؛ وهممت ببيع بعض الكتب فلم أجد من يسأل عنها ، ولم يزل لطف الله علينا في ازدياد وبركته في تتابع امداد .

وجاءني رجل ممّن ينتحل العلم من أهل الزاوية الغربية يمتّ إلى صاحبنا سيدي محمد بن أحمد بقرابة وكلفني قراءة بعض التلخيص للقزويني فقرأ ما تيسّر منه وكلفني صاحبنا قراءة بعض الألفية .

وورد علي في طرابلس صاحبنا سيدي أبو راوي من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام وذاكرنا واستفاد أشياء في التوقيت على قصر باعي فيه ، وجاء ونحن هناك مركب معهم كتاب من الخاقان الأعظم يأمر فيه بالزينة التي جاء خبرها ونحن بمصر ؛ فزينت طرابلس سبعة أيام بلياليها على نحو ما وقع بمصر وأكثروا من الأعاجيب من تماثيل وتصاوير فصوّروا صورة الفيل وصورة
[٣٨] الجمل ملبساً بجلود الضأن وفيها رجال يمشون بها / حتى لا يشك الرائي أنّه جمل وغير ذلك . وتعطل على الحجاج بسبب هذه الزينة جل أسبابهم من بيع وشراء وزاد ذلك في أمر عطلتهم طولاً .

وجاءنا ونحن بطرابلس خبر سيد روحه عبد الرحمن الجبالي أنّه أخذ الجهمة وأصحابهم ، وزاد ذلك في سرور أهل البلد وأميرهم ، لأنّه كان يتوقع عداوتهم ويتخوّف انقطاع طريق الجبل الأخضر بسببهم ، فوقى الله شرّهم بمنّه وفضله .

ودخل علينا في طرابلس ركب أهل تونس في شارة حسنة وفخامة هيئة في بشر كثير وسواد عظيم كسواد الليل ، يفعم الطرقات كإفعام السيل ،

---

١ في نسخة : الأوطار .

يجرون سبع كراريط وخمس مجقات زادت في أبهتهم وزينتهم ، وأميرهم أبو الفضل مفتي تونس ، ومعه جماعة من كبراء تونس ، ومنهم ابن أخي قاضي القدس الشيخ محمد النفاتي اجتمعت به وسألني عن عمّه وأخبرته أنّه يريد الحج في هذه السنة .

وجاء معهم الشيخ العلامة الفقيه المشارك سيدي عاشور القسمطيني ، ارتحل إلى الحجاز بجميع أسبابه وحمل معه جميع كتبه ، ونوى الاستيطان والمجاورة في تلك البلاد ، فلمّا بلغ إلى طرابلس وقع بينه وبين أهل تونس بعض ما يقع من المسافرين في سفرهم من مراجعة ، فانخذل عنهم ورجع إلى أهل بلده أهل قسمطينة ، وقد لقيته وتبركت به واستجزته لنفسي ولمن ذكر في الاستدعاء من الإخوان ، وأجاز لي ولهم لفظاً وهو يروي عن سيدي محمد النواتي عن سيدي عبد القادر بن خدة عن الشيخ السنوسي رضي الله عنه ، ويروي أيضاً عن سيدي محمد السوسي عن المنجور ، ويروي أيضاً عن سيدي سليمان التعاويسي عن الشيخ سالم السنهوري ، وأسانيد الشيخ السنوسي والشيخ المنجور والشيخ سالم السنهوري معروفة في محلها وكتبت له يوم لقيته هذه الأبيات الثلاثة :

للشيخ عاشور الإمام الأمجدِ حاوي الكمالات التقي الأرشدِ
مدت يدي لتنال كلّ فضيلة علماً وذوقاً من إمام مرشدِ
حاشا تُردُّ يدٌ إليك مددتها يا حائزاً أقصى العُلا والسوددِ

واعتذر لي عن كتب الإجازة بضيق الوقت ومزاحمة الأشغال لقرب السفر فقبلت عذره .

وقد كتبت من هناك كتباً إلى أصحابنا بالحرمين الشريفين ومشايخنا

الشيخ عيسى الثعالبي والملا إبراهيم بن حسن الكوراني وصاحبنا الشيخ حسن العجيمي المكي وكتبت إليهم بإجازات المشايخ لهم ، وكتبت إلى شيخنا الملا إبراهيم أستنجزه الوعد في شرح قواعد الشيخ زروق ، وبعثت إليه نسخة من القواعد وكتبت على ظهرها هذه الأبيات وأخبرت بعد ذلك أن ذلك كلّه سرق من حامله ولم يصل ، ولنذكر الأبيات :

[٣٨] قواعد هذا الفن صرن قواعدا يئسن نكاحاً ينتظرن مواعدا
مواعد صدق من إمام محقّق بشرح لمعناها يكون مساعدا[1]

وقد كثر تطلبي من علماء الوقت شرح هذا الكتاب فلم ييسر الله ذلك على يد أحد منهم مع كون هذا الكتاب ليس مثله ممّا يترك ويسهل ، ولا هو مستغنى على الشرح فيؤخذ على ما هو عليه ويحمل ، لوجازة لفظه ودقة معناه مع استمداده من علوم كثيرة يتوقف في تحقيقها على مشاركة تامة في جميع العلوم واطلاع عظيم على نوادر العلوم وغرائبها . وقد وعد شيخنا الملا إبراهيم بشرحه وهو بذلك جدير إن وُفّقَ إليه وأُعين ، والله خير معين .

وكتبت من هناك أيضاً كتاباً لأصحابنا المجاورين في المدينة المشرفة أوصيتهم فيه بالدعاء شاكياً إليهم أمر ما وقع في الغرب من الفتن خصوصاً بلادنا وسائلاً منهم أن يرفعوا أمرها إلى حضرة الرسالة ومعدن الجمال والجلالة صلى الله عليه وسلم ، وقد ظهر والحمد لله أثر ذلك في الوجود ظهوراً لا يشك فيه من علم بالحال ، وميّز ما كان عليه الأمر وما إليه آل ، خصوصاً فتنة العصابة الناجمة ببلادنا من أهل الغواية المنتهكين لحرمة الشرع المسددين سهام أذايتهم لأهل الدين خصوصاً ، ولكل من لم يتابعهم على ضلالتهم عموماً ،

[1] حذفنا سائر القصيدة .

فقد أكثرت التأكيد على أصحابنا المكيين والمدنيين في رفع الشكاية إلى الله لمتبوعهم الذي ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا الذي فيه عيناه . وقد رأى بعض الفقراء في واقعة منام إثر وصول الكتاب إليهم أن النبي صلى الله عليه وسلّم في دار والناس يدخلون عليه فيها أفواجاً فسأل الرائي عن ذلك فقيل له [٢ : ٣٨٤] إن النبي صلى / الله عليه وسلّم يبايع الناس على البراءة من فلان ، ومن ذلك اليوم أخذ ذكره في السقوط وأمره في الهبوط ﴿والله غالبٌ على أمرِهِ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمون﴾ وفي ضمن الكتاب الذي بعثته للمجاورين ثلاثة أبيات أمرتهم بإلصاقها حذاء المكان الذي كنت أجلس فيه بالمسجد النبوي يكون ذلك لهم تذكرة بقائلها ، فيقسموا له من دعواتهم في أشرف الأماكن ، وقد كتبوا إليّ أنهم فعلوا والحمد لله كثيراً على ما مَنّ به من ذلك وهي هذه :

أجيرانَ خير الخلق مُنّوا بدعوة لمن ناب عنه في الخطاب بنانُهُ
لئن غاب عنكم شخصه ففؤاده لديكم رهان لا يُفَكُّ رهانُهُ
فإن خفتمُ نسيانَهُ فكتابُهُ يذكركم بِهِ وهذا مكانُهُ

نسأل الله تعالى بجلال وجهه العظيم ، ووجاهة نبيّه الأكرم الكريم ، أن يرزقنا العود إلى تلك الأماكن المطهرة ، وينعم قلوبنا وقوالبنا بالتقلّب في تلك البقاع المنورة ، ويحشرنا في زمرة أهلها أحياء وأمواتاً ، ويجعل محبة سكانها لأرواحنا أقواتاً ، إنّه جدير بالإجابة قريب لمن واضب في دعائه إلا عليه [كذا] آمين آمين .

وممّن لقيته بطرابلس مفتيها الشاب الظريف الأريب العفيف الفقيه المشارك سيدي محمد المكي ، بيتهم بيت علم ورياسة من لدن أسلافهم إلاّ أنّه لم تكن له رحلة في طلب العلم ، وقد حج مع أبيه في صباه ومات أبوه قبل أن يستفيد منه ، فقرأ على شيخنا ابن مساهل وعلى بعض متفقهة البلد ، فأعانته الحظوة

والذكاء ونباهة الفكر واقتناء الكتب الكثيرة على ولاية منصب الفتوى بعد عزل شيخنا ابن مساهل ، وقد تقدم شرح ذلك في أول هذا الكتاب ؛ وقد شاهدت منه حسن أخلاق يدل على طيب أعراق ، وقد استعرت منه كتباً فما بخل بإعارتها بل استعار لي من غيره كراريس من شرح المختصر لشيخنا الأجهوري مسّت الحاجة إليها لتكميل جزء ناقص عندي فتوسط لي في ذلك توسط أمثاله ، ولم يقصر عمّا يقتضيه مجده من رتب كماله ، فأوجب علي ذلك أن أكتب له بعد إتمام الجزء أبياتاً ثلاثة أشكر صنعه ، وأشيد ذكر نعمته التي بذل في إتمامها وسعه ، لأن الكتاب كان بيد من يضنّ به عن ملاقاة الهواء ومماسة الهباء ، لولا الاستعانة بوجاهة من ذكر ، وجلالة من شكر ، وهي هذه :

سأشكر إحساناً بدا منك سيدي ... وأشكر فعلاً منك قد صدق القولا
ويشكرك الشرح الذي تم نقصه ... ولولاك كان النقص قطعاً به أولى
[٣٨٥] وقد قيل من لم يشكر الناس لم يكن ... ليشكر رب الناس في كل ما أولى

[٣٩٠] وممّن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد ابن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم ابن محمد بن عبد الكريم الفكون القسمطيني رضي الله عنه ونفعنا به ، قدمها حاجّاً وهو أمير ركب أهل الجزائر وقسمطينة وتلك النواحي ، على نهج أبيه وعادته في ذلك ، محافظاً على سلوك سيرة والده من التؤدة والحلم والوقار ، فأحبته القلوب ومالت إليه النفوس ، ولم يطلع أميراً إلا في هذه السنة ، وقبل ذلك إنّما كان يطلع بالركب والده رضي الله عنه ، فلمّا توفّي قام ولده هذا مقامه في ذلك ، أعانه الله وسدده ؛ وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس السابع والعشرين من ذي الحجّة سنة ثلاث وسبعين وألف شهيداً بالطاعون ،

وكانت لنا به رضي الله [عنه] وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح ، لما حججت معه في سنة أربع وستين ، وقد قال لي رضي الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته : إنّي أقول لك كما قال الإمام الشاذلي رضي الله عنه : لك ما لنا من الخدمة وعليك ما
[٣٩١:٢] علينا من الرحمة . / وكان رضي الله عنه في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ، ومجانبة علوم أهل الرسوم بعدما كان إماماً يقتدى به فيها ، وله في كثير منها تآليف شهد له فيها بالتقدم أهل عصره ، فأُلقي في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب والتردد إلى الحرمين الشريفين مع كبر السنّ ، وكان يقول — إذا ذكر له شيء من هذه العلوم — : قرأتها لله وتركتها لله ؛ وقنعت منه رضي الله عنه بالكلمة التي قالها لي لما علمت حاله ، وخشيت أن أثقل عليه وأكلّفه ما لا تطيب به نفسه ، فإنّه رضي الله عنه من أهل القلوب ، ومروياته رضي الله عنه مستوفاة في فهرسة شيخنا محمد عيسى الثعالبي ، فنحن نروي عنه جميعها بواسطته ، فلمّا لقيت ولده هذا تقربت له وانتسبت له بمعرفة والده ، فوجدت عنده بعض علم بي وقال : أما أنت الذي وصل كتابك إلى الوالد ، المبعوث من وادي ريغ قبل موته بعام ؟ فقلت : نعم ، ورحب بي وهش وبش وأنس ، ووجدت عنده عدة من مؤلفات والده وبعضها بخطه رضي الله عنه فأعارها لي مدة إقامته هناك ، فمنها شرحه على أرجوزة المكودي في التصريف ، وهو مجلد أجاد فيه غاية الإجادة ، وأحسن كل الإحسان ، وأعطى النقل والبحث فيه حقهما ، ولم يهمل شيئاً ممّا يقتضيه لفظ المشروع ومعناه إلا تكلم عليه ، وأجاد كما هو شأنه في تآليفه ، وأول خطبته : « الحمد لله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال ، وأوضح بيان افتقارها إليه بتغير

حالاتها من حركة وصحة واعتلال ، ونوع أشكال عين وجودها إلى ضم الانضمام إليه ، وكسر الانكسار لديه ، وفتح الانفتاح في مشاهدة العظمة والجلال » . ولا يخفى عليك ما اشتمل عليه هذا المطلع من براعة الافتتاح ولطيف الإشارة إلى أنواع الإعراب والتصريف ، وقد فرغ من تأليفه أوائل صفر من عام ثمانية وأربعين وألف ، وشرحه هذا أوسع نقلاً وأكثر بحثاً وأتمّ تحريراً من شرح العلامة سيدي أبي عبد الله المرابط الدلائي ، ولا أدري أيهما سبق إلى شرحه ؛ ومن تآليفه رضي الله عنه ديوانه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم المرتب على حروف المعجم وكتب عليه ممّا يمدح به عند الغمة ، وساعة الغياهب المدلهمّة ، والتزم أن جعل مبدأ كل سطر حرفاً من حروف « إلاهي بحق الممدوح اسمعني آمين » وجملة ذلك خمسة وعشرون حرفاً ففي كل قصيدة مثلها أبياتاً فلنذكر بعضها تبركاً فمنها في روي الهمزة :

[٣٩٢:] أبدراً بدت في الخافقين سعودُه ونوراً به الأكوان أضحت تلألأ

[٣٩٦:] ومن تآليفه رضي الله عنه جزء في تحريم الدخان وسمّاه « محدد السنان في نحور إخوان الدخان » وهو في عدة كراريس مشتمل على أجوبة عدة من الأئمة وقد لخصنا بعضه بحسب ضيق الوقت . . .

[٤٠٣:] ## ذكر ارتحالنا من مدينة طرابلس

كان ارتحالنا منها بعد ارتحال الأركاب كلّها المشرقية والمغربية يوم الاثنين الخامس من شعبان ، وافترق الركب من هناك وذهبت طائفة منهم مع الحاج محمد نين ، والطائفة الأخرى مع الحاج محمد بن عمران والحاج

محمد بن مؤمن ، وهم جل الركب . وشيعنا من هناك صاحبنا سيدي محمد بن
[٤٠٤:٢] أحمد بن عيسى اليربوعي وصاحبنا أبو راوي وجماعة من الطلبة إلى / زنزور ، ودخلنا المدرسة التي هناك ووجدنا بها صاحبنا الناسك الخاشع سيدي محمد بن بلقاسم الغرياني ، وتلقانا الطلبة بالترحيب وأطعمونا ، وهذه المدرسة أحسن المدارس التي في تلك السواحل ، وقد زرنا على بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد أظن أنهم ذكروا أنّه يعرف بالعريفي ، وأخبرني من أثق به بحكاية وقعت لبعض الناس مع صاحب هذا القبر في شأن الدخان تدل على قبحه وخبثه ، وذلك أنّه كان عند قبره زيتونة كان يجلس إليها في حياته فجاء رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب فيه الدخان ، وكان من أكابر البلد ، فلمّا نام في الليل جاءه ووقف عليه وضربه على رأسه فقال له : يا فلان مكان كنت أجلس إليه فجئت إليه فنجسته ! فأصبح الرجل أعمى ، أخبرني بذلك من أخبره الأعمى . وبات الركب هناك قريباً من زنزور ، وبات معنا أصحابنا ، وفي الغد ارتحلنا ومررنا ضحى بقرية هناك قريباً من الزاوية الغربية فيها رجل من الصالحين يزار ، وكل من جاءه ضربه بين كتفيه ثلاث ضربات ودعا له . وأخبروني أنّه كان هناك رجل من الصالحين قبله يفعل مثل ذلك ، وكان هذا غير معروف ، فلمّا مات أصبح هذا الرجل يفعل مثل ذلك . ونزلنا ذلك اليوم بالزاوية الغربية ، وكان قد تقدم إليها صاحبنا الحاج عبد الرحمن غريط المكناسي ، وله عند أهلها مزية عظيمة ويعتقدون فيه اعتقاداً كبيراً ، ويرون أنّه من أهل التصريف ، فكل من له حاجة طلبها منه وأتاه بصدقة ، ولا يذهب عنه إلا وهو يعتقد أنّه قد ظفر بحاجته ، وربما قضيت حاجة بعضهم ، وربما اتفق له الإخبار بشيء فيقع كما أخبر ، وهو رجل عامي نعلم طويته وعلانيته ، خال من كل ما يتوهمون فيه ، وإنّما

أعانهم على ذلك حسن اعتقادهم وبركة إخلاصهم ، فأضافوا الركب تلك الليلة ضيافة كبيرة يتقربون بذلك إلى مرضاة الشيخ عبد الرحمن ؛ وفي الغد ارتحلنا ومررنا قبل الزوال بقرب ولي الله تعالى سيدي راشد الكالياي ، وتؤثر عنه كرامات كثيرة ، ونزلنا قريباً منه وزرناه ، ومن هناك ودعنا صاحبنا سيدي محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي ورفيقه سيدي أبو قطاية من نسبه ولم نبت إلى مقابلة زواغة ، وفي الغد نزلنا الزاوية الشرقية بعد المغرب ومنها إلى برج الملح ومنه إلى قرب السواني . . . .

٧

رحلة ابن ناصر *

كان دخولنا إلى طرابلس ظهراً يوم الأحد الثاني والعشرين من شعبان فنزلنا بإزاء الهنشير لأجل فتنة وقعت بين أهل طرابلس والباشا خليل حاكم المدينة . وكان هذا الباشا ظلوماً فجوراً يقدم الروم على أهل الإسلام ، واتخذ بطانة من النصارى يوليهم على المسلمين ، وكاد يخلع ربقة الإسلام من عنقه ويهين العلماء والمرابطين ، ولذلك قيض الله من نفاه من أهله وقبيلته وخرج ، وسدوا المدينة في وجهه .

وبين طرابلس ومدينة شراوين خمسة أيام بينهما حصن لبدة ، حصن عظيم من بنيان الأوائل .

وجبل نفوسة : جبل عظيم من أعمال طرابلس في وسطه النخيل والزيتون الكثير والفواكه ، ويجتمع فيما حوله ستة عشر ألف رجل ، وطول جبل نفوسة من المشرق إلى المغرب ستة أيام .

ولمّا قدمنا طرابلس نزلنا فيها بمحل الركب ، فبينما نحن ماكثون إذا بسفن ثلاث ظهرت في البحر ثم تتابعت السفن إلى أن كملت اثنتين وعشرين سفينة في اليوم نفسه ، فأقاموا على المدينة بقية يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم وعناء شديد ،

* هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر وكانت رحلته سنة ١١١٩ ؛ ولم نستطع الحصول عليها وما أدرجناه منها هنا منقول عن الحشائشي .

وليس من بينهم من مدبر ولا ذو رأي حميد ونظر سديد ، ولما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم حيث رأيناهم ينقلون في أمتعتهم من المدينة لخارجها وحريمهم إلى سوانيهم على فعلهم غير اللائق بهم فيما يبدو لنا منهم في إظهار الجزع والخوف والجبن للصقليين النصارى ؛ فقلنا لهم إن هذا الفعل ذميم فاصبروا ولا تظهروا لهم الوهن والجبن ، فقالوا : والله هذا ليس بجبن وإنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا على الصبر عليه من البونبة التي تتساقط علينا مثل المطر من سفنهم الحربية ؛ فإن هاته البونبة يضربوننا بها ولا تقع على شيء كائن ما كان إلاّ وهدمته ودكته ، والمسلمون كلهم في هاته الأيام لا ينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله .

فلمّا كان بعد العشاء ليلة السبت ضرب النصارى بمدافعهم . فرأينا من ذلك ما لم نره قط ولا سمعنا به . ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محمرة تحكي الشهاب خارجة منه صاعدة ثم تدلي هابطة ، ثم يرمون بأخرى وتقع أكثر من الأولى ، وإذا هبطت إلى الأرض تسمع لها صوتاً هائلاً تصم منه الآذان وتقشعر منه الجلود ، فتتصدع بالموضع الذي وقعت فيه ، فتنفجر كالصاعقة ولا وقعت على بناء إلا هدمته ، ولا على بسيط مستوٍ إلا وجعدته . ونحن في ذلك رافعون أكف الدعاء إلى الله بالذلة والخضوع الليل كلّه ، ولا نكتحل بنوم قط ، ما أطلق مدفع منهم إلا وظننا أنّه يقع علينا ، فتارة حذاء البحر وتارة تمر علينا ، وأكثر ما تقع بالمدينة أو قرب المدينة أو شاطىء البحر . فأخذوا في الضرب الليل كلّه إلى الصباح بل إلى الضحى لا يفترون عنه ساعة ، وضربوا فيما أخبرني بعض علماء البلد أزيد من تسعمائة بونبة .

فلمّا رأينا هذا الأمر ومعنا النساء والصبيان وفيهن الحوامل خشينا عليهن

أن يقذفن ما في أرحامهن ممّا يعاين . فتحولنا لبعض البساتين المسورة فنزل الركب بها وأدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم أمسكوا عن الضرب إلى أن وصل العشاء فضربوا أيضاً دفعة واحدة فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسد كور العدو . وعند الفجر عادوا إلى الرمي أيضاً وتمكنوا من النزول بشاطىء المرسى فدهمهم المسلمون المرابطون بها ، وكسروا لهم صندلاً صغيراً فنكصوا وولوا الأدبار وانهزموا هزيمة شنعاء واجتمعت آلاف من المسلمين بعد ذلك بعددهم وعُددهم وانخذل الطليانيون .

ثم جرى بينهما صلح على أن يدفع المسلمون جميع من عندهم من أسرائهم ، وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك ، واشترط النصارى على المسلمين أن يردوا لهم ما أخذوا منهم قبل ذلك الزمان في البحر في هدنة بينهم ، فقبل المسلمون لهم ذلك وقدره مائة ألف ريال قرملية ، وحين تم الصلح دخل النصارى المدينة للتسوق وربما أغلظوا على بعض المسلمين ، وذلك لتوعد أمير البلد من الترك على من أساء على نصراني ولو بكلمة بعقاب شديد . فصبر أهل المدينة على ذلك وأمّا المغاربة وجميع الحجاج فأغلظوا على النصارى وأخشنوا لهم في القول ؛ ثم إن أهل البلد أخذوا في دفع ما اشترط عليهم النصارى فصاروا يدفعون لهم الخيل والزرع والإبل والبغال والحمير ، وكلمنا علماءهم المالكية فقالوا : والله إن هذا هو الصغار بعينه ولا قدرة لنا على الاحتراز منه . وخرج الركب خارج المدينة خوفاً من مشاهدة هذه الفظائع ثم أجلى الله تعالى النصارى عن المدينة يوم الخميس بعد المهادنة وإمضاء شروط الصلح ، وفرح المسلمون بانتقالهم عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح وذهب الحمار بأم عمرو .

٨

صفوة الاعتبار لبيرم

[٦٦] طرابلس الغرب : وهي مملكة إسلامية من عهد سيدنا عمر ، رضي الله عنه ، وكانت في أيام دولة الرومان والقرطاجنيين في غاية العمران والخصب ؛ وإن كانت المياه بها قليلة ، لكن الآثار القديمة دالة على إخراج منابع الماء بها من العيون والآبار وحفظ ماء المطر ؛ غير أنها الآن قليلة الخصب والسكان ، فسكانها لا يتجاوزون المليون ، والمعمور منها أودية خاصة ، وقاعدتها طرابلس ، ويتبعها ولايات مثل برقة وغدامس وفزان وبنغازي ، وهاته الأخيرة تارة تنفرد بالإدارة وتارة تتبع طرابلس . وقد استولت الدولة العثمانية على هاته المملكة في المائة العاشرة من الهجرة سنة ٩٥٨ وذلك أن [٦٧] الدولة الحفصية التي قاعدتها تونس لما ضعف / أمرها واستبد عليها الولاة في الأطراف كان من جملة من عصى عليها والي طرابلس التي كانت تابعة لها ، وجار في الأهالي ، فتجهز إليه السلطان الناصر الحفصي وغلبه ، وأولى على طرابلس أبا محمد عبد الوهاب بن أبي حفص فقبل الولاية بعد امتناع طويل على شروط ، أولها : إبقاؤه والياً إلى أن يعيد البلاد إلى أعز ما كانت عليه من الغناء والراحة ؛ الثاني : أن يستقل بالإدارة مدة ولايته بحيث لا يعارَض ولا يُرد أمره في شيء ، الثالث : أن ينتخب مقداراً من العساكر حسب إرادته لإبقائهم في إعانته . فأُجيز له ذلك وبقي في الولاية إلى أن مات وولي ابنه الذي هو على شاكلته . فاستقر العدل والغناء في المملكة حتى بلغ النهاية ، وأخلدت الأهالي إلى الراحة وترك السلاح لما ضجروا منه سابقاً حتى كان

ذلك سبباً لطمع العدو فيهم وذلك أنه قدمت إلى ثغر طرابلس سفينتان مشحونتان تجارة ، فاشترى جميع ما فيهما رجل واحد ونقد الثمن حالاً . . . . الخ . فتعجب المدعوون الذين هم من الاسبنيول القائم في ذلك الوقت ، فأخبر أصحاب السفن دولتهم بما رأوا ، فطمعت في طرابلس ، وكان عندها ابن السلطان الحفصي مستنجداً بها على أبيه ، فحملت بجيش قليل على طرابلس وامتلكتها باسم أحمد الحفصي الابن المذكور ، وجار في البلاد أشد الجور هو والاسبنيول .

ولما رأى ذلك النابلطان الذي هو أحد ممالك إيطاليا تداخل بين الأهالي بالإفساد ووعدهم بالحماية من الظلم وأنهم إذا أطاعوه حماهم من المظالم الإسبانية ولا يتداخل في أمورهم وإنما يستولي على الحصون فقط .

وكان ما كان وأجرى فيهم الأمر على نحو ما وعد ثم ابتدأ بالتداخل فيهم ففرت بعض الأهالي من البلد وتحصنوا في تاجورا وكانت الحرب بينهم قائمة ، غير أنهم علموا بضعفهم عن امتداد المقاومة ، فأرسلوا وفداً منهم إلى الآستانة مستنجدين بالدولة العثمانية في إنقاذهم ، ودعوها للاستيلاء على جميع البلاد حيث كانت هي إذ ذاك أقوى دول الإسلام وجمعت تحت رايتها أغلب الممالك الإسلامية كمصر والشام والعراقين ؛ ولما وصل الوفد إلى الآستانة ، تعجب من شكلهم كل من رآهم ولم يجدوا أحداً يفهم لغتهم ، حتى صادف [٦٨] أحد الطواشيين / في القصر السلطاني الجمع المحتبك للتفرج عليهم وكان عالماً باللغة العربية فعلم القصد ، وكان هو الواسطة في إبلاغ مطالبهم للدولة ، فأولته هو على تلك البلدة ، وأرسلته معهم مع حامية ضعيفة لأنهم سهلوا الأمر على الدولة ، لكنه لما وصل ذلك الوالي وعلم حقيقة الأمر أرسل بتفصيل الأخبار إلى الدولة .

وكان إذ ذاك أسطولها الموجه إلى الاستيلاء على تونس على أهبة السفر تحت رئاسة سنان باشا ، فأمرته الدولة بالتعريج على طرابلس أولاً فافتكها من أيدي النابلطان وبقيت مستقلّة بالإدارة ليس للدولة عليها إلاّ هدايا وإعانات في وقت الحرب . إلى أن عصى يوسف باشا قرمنلي وحاربته الدولة في أواسط سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) ، فاستولت استيلاء باتّاً على المملكة وصارت إدارتها مثل إدارة سائر الولايات العثمانية ومركز الولاية مدينة طرابلس الغرب ؛ وسكانها يميلون للبداوة ولو أهل مدن ؛ ويحدها شرقاً مصر ، وشمالاً البحر الأبيض وتونس ، وغرباً تونس ، وجنوباً الصحراء الكبيرة .

٩

رحلة الحشائشي *

[٦٦] فصل في أهل بلد طرابلس

اعلم أن غالبهم من البرابرة وطباعهم تميل إلى البداوة أكثر من الحضارة وهم على كمال بشري في أنفسهم وغالبهم يميلون إلى التجار خصوصاً في هاته السنين الأخيرة فلهم متجر عظيم مع أهل السودان من برنو ووادي والشاد وغات وغير ذلك . ولا يميلون إلى الغرباء في أول الأمر ، وقد ذكرت هذا في رحلتي لكن تحققت بعد ذلك أنهم إذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم . وصدق الله تحقيقي هذا ببيتين من الشعر وجدتهما ببعض التقارير للفقيه أبي الحسن :

لأهْـــلِ طرابلس عـــادة من البر تنسي الغريب الحميما
حللت بها مكرهاً ثم إذ أقمت بها أبدلوا الهاء ميما

وقول التجاني :

* اسمها « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » لمحمد بن عثمان الحشائشي التونسي ، وقد اجتزأنا ببعض ما ورد فيها ، لكي لا نخلي هذا المجموع من فوائدها ، وإلا فقد نشرت حديثاً (بيروت ١٩٦٥) .

سقى رُبوعك يا مغنى طرابلس حيا يحييك عني كل منبجس
[٦٧] فكمْ يد لك في تأنيس مغترب شطت به الدار عن أنس وعن أنس
أقمت فيك على حكم النوى زمناً كأنني فيهِ للسلوان في عرس

أمّا العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة كما لا توجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الإسلام ، على أن هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الأمّة المحمدية كالفقيه أبي علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي . . .

وفي رمضان سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) دخلت جامع السوق داخل البلد ، وهو جامع بهيج عليه رونق عظيم ، فوجدت كثيراً من أعيان الترك من ضباط وغيرهم كل منهم جالس على ركبتيه بخشوع وتؤدة ووقار يسمعون في كلام رب العالمين من مجود عالم بالتلاوة مصري له صوت حسن كأنه من مزامير آل داود . وفي أحد أركان الجامع من الجهة القبلية وجدت العالم الفاضل النحرير المنعم الشيخ محمد بن مصطفى باشا مفتي السادة الحنفية يقرىء الحديث الشريف متن الشفا للقاضي عياض ، وعليه حلقة عظيمة من أعيان البلاد وغيرهم
[٦٨] وهو على اسطبل من اللوح عال على الأرض بمقدار يسير تراه أعلى من جميع من دار به من السامعين . وهاته عادة جلوس المدرسين عندهم إلاّ أن الكراسة لا تنقطع من يده ، وهو أول مشهور بالعلم هناك ، إلى أن تم درسه قبيل المغرب بساعة . وفي مدة إقامتي بهاته المدينة رأيت أوباش البلد فهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية . وأكثر الأوربيين طليان .

والبلد القديم بناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس إلا أماكن الإفرنج فإنها على الشكل الأورباوي والبلد الجديد المعروف بالمنشية على الشكل الجيد مثل [تونس] . أما هواء البلد فهو معتدل ليس برديء ، وتوجد به

الحمى في زمن الصيف .

أما لحوم البلد وفواكهها وغلاتها فجميعها طيبة ، وفيها من كل ما خلق
[٦٩] الله / لعباده من أصناف النعم بثمن متهاود ويعظم فيها الدلاع (البطيخ الأخضر) إلى أمر عظيم بحيث أن الحمل لا يمكنه حمل دلاعتين إلاّ بمشقّة ، وهو في غاية الحلاوة مع لذاذة الطعم .

ويأتيها من أوربا غالب السلع التي تأتي إلى بلد تونس ، ويخرج منها القمح والشعير والبقر والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبردقان والليم الحامض والحلو والفلفل الأحمر الشايح والحنّا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك . وهاته السلع الخارجة ليس عليها ضرائب دولية إلا شيء قليل وجميع ما يأتيها من السلع برّاً مع القوافل السودانية وغيرها لا يؤدي شيء من الضرائب .

وغالب تجارها من أهل البلد وبعض من المالطيين واليهود ، ولا يوجد فيها بانكه مالية في وقت حلولي بها ولا طرق من الحديد ولا معامل أوربية نارية ولا قهاوي منظمة على الشكل الأوربي . وهي لا زالت بعيدة عن التنظيمات الأوربية والتحسنات .

أمّا الفلاحة في هذا البلد فتنقسم على قسمين : القسم الأول أصحاب البساتين الكبيرة والأراضي المجاورة إلى البلد يعني أحواز طرابلس وأصحاب الآبار والمياه فإن هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الأرض جيداً ، وأمّا العرب والعروش البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا بأصحاب حزم وكد لا يخدمون الفلاحة على أصلها مع أن أراضيهم جيدة في غاية الخصب لكن يميلون إلى المتاجر أكثر ممّا يميلون للفلاحة ، على عكس أهل بني غازي كما سنعرف [إن شاء الله] في هذا التاريخ .

[٧٠] الحالة العسكرية بهاته المدينة : ينقسم حال الجيش إلى قسمين : أما ما كان من رتبة شاويش إلى رتبة أمير أمراء فإنّهم على أكمل حال وأتم منوال يأكلون الطيبات ويسكنون الغرف الرفيعة وفيهم ذوات العيال بكثرة ومرتباتهم جارية ، يميلون إلى التنزه كالأوروبيين ، ويلبسون اللباس الفاخر ، وحريمهم في غاية التستّر لا ترى من جسم المرأة أنملة ، مع العفة والديانة ، وغالبهم يحسنون التكلم باللغة الإفرنسية . أما العساكر فحالتهم دون ذلك ومرتباتهم ليس جارية على أصلها في ذلك الوقت .

وفيها من العساكر في ذلك التاريخ سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) ما ينيف على الثمانية آلاف جندي تامة العدد والعُدد وقيل لي إن جميع مرساها كلّها محصنة بالألغام البحرية بحيث لا تجوز سفينة كبيرة إلا بدليل . وما أبهج نظام تلك العساكر العثمانية خصوصاً عندما تكون الموسيقى السلطانية تصدح بنغماتها الشجية في أدواح المنشية ، والضحى ينشر نسيمه العليل على أفنان الشعاب ذوات الظل الظليل ، وثغر طرابلس في ابتسام والربيع ضارب أطنابه بأريافها وعلى الدنيا السلام .

خرجت يوماً إلى نواحي المنشية فوجدت طائفة من الجيش التركي والموسيقى معه تصدح بتلك النغمات السالبة للعقول ، وكان معي بعض من له إلمام بالأدب فاقترح عليّ بعض أبيات في ذلك المنظر البهيج الحافل فأنشدته ما خطر ، بعد أن تمتع بتلك الهيئة الحسنة كل من السمع والبصر :

جُيوش الترك قد صدحت نهاراً ... بألحان تروق بها شجيه
وثَغرُ طرابلس يَزْهُو ابْتساماً ... بطلعة حسن هيئته البهيه
دعَتْ بالنّصر للسلطان فوراً ... وللإسلام طرّاً في البريه
[٧١] وإنّ النّصرَ مَعْقُودٌ تراهُ ... بِرايةِ فخرِ دولته العليّه

فاستلطفها المقترح .

ومرسى البلد ليس بمرسى صناعي بل تقف فيه السفن قريبة من البر ، وإن اشتد البحر يصعب النزول من السفن على الركاب . ولما كنت هناك وجدت بمرساها مدرعة واحدة للعثمانيين وبابورين للبوسطة أحدهما فرنساوي والآخر طلياني ، وكان الطلياني متوجهاً إلى تونس وهو الذي حملني إلى مسقط رأسي :

تونس تؤنس الغريب فحق ... أن أقول لأهلها يا كرام

أما أحكام هاته المدينة فهي جارية على مقتضى قانون المجلة التركية على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه ؛ وفي بلدانها الكبار نجد حاكماً سياسيّاً هو المتصرف وقاضياً شرعيّاً يأتي في الغالب من الآستانة .

قد عرفت آنفاً أن أمراء الترك وحكامها يتكلمون باللغة الفرنسية جيداً إلاّ النزر القليل ، ولنذكر لك حكاية تدعم هذا القول وهي : إنّني لما كنت ببلاد مرزق بأقصى فزان أرسلت يوماً تابعي السيد رمضان الشامي : . . إلى بيت الدواء المعدة للعسكر المقيمين بمرزق نطلب من السيد أحمد اليوزباشي المكلف بالحستخانة الطبية ، وهو الطبيب العسكري بمرزق ، شيئاً من الدواء الصالح لجرح بركبتي اليسرى ، والوقت حال حر شديد ؛ فأرسل لي قارورة ماء نتن الرائحة قائلاً لي إن ثمنها عشرين قرشاً ، خمسة فرنك تونسي ، متعللاً أن الدواء محسوباً عليه من الحكومة فلا يمكن إعطاءه من دون ثمن ولا يباع إلاّ للوجهاء من الغرباء ، فأرسلت له مع الحامل
[٧٢] عشرين قرشاً واستكثرت / خيره . ثم لما بلغته أرسل لي في الحين توصيلاً منه مختوماً بطابعة مكتوباً ذلك التوصيل باللغة الإفرنسية في القدر المذكور ؛ وبعد يومين أتاني اليوزباشي المذكور يزورني فكشف عن ركبتي وبشرني بالشفاء عن قريب ووقعت بيني وبينه محادثة لطيفة ، فحكى لي أن أصله من

بلد السودان غير أنه لا يعلم مسقط رأسه ، كان اشتراه بعض الأتراك من طرابلس الغرب وذهب به إلى الآستانة ثم أعتقه سيده ، وهناك تعاطى القراءة والكتابة بالتركية والعربية ، ودخل مكتب الحرب وتعلم ما يلزم تعليمه إلى أن أتى في نوبته إلى طرابلس ثم منها إلى مرزق ، وهو في غاية السواد الفاحم مع رقة البشرة وظرف المحادثة . ثم سألته : لم كتبت إليّ التوصيل المذكور باللغة الإفرنسية والحال أنك تحسن اللغة العربية والتركية وأنا عربي؟ فقال لي: إن جميع ما يتعلّق بدواء العساكر العثمانية في جميع مملكتها يكون حسابه باللغة الإفرنسية وعندنا أشياء كثيرة نستعملها باللغة الإفرنسية لا بلغتنا التركية .

اعلم أن لمدينة طرابلس أعمال كبار ثلاثة أولها فزان وهو في الحقيقة أكبر الأعمال مساحة ، والثاني عمل سرت ، وهو أخصب الأعمال وأجودها تربة ، والثالث عمل الجبل ، وبلغني في هاته المدة أن الأعمال صارت أكثر من الثلاثة ولكن مبنى كلامي على ما كتبته في حق طرابلس سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) سواء كان في هذا الموضوع أو في غيره فلتعرفه حتى لا تنسب إليّ وهماً إذا عرفت حالها سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) .

ولكل عمل حاكم سياسي يسمونه متصرفاً نظره ومتصرفيته على ذلك العمل . وكل عمل به عدة بلدان وفي كل بلد حاكم يسمونه القائم مقام من غير رتبة عسكرية ونظره تحت متصرف ذلك العمل . ونظر المتصرف للباشا العام حاكم
[٧٣] ولاية طرابلس ، والباشا نظره لوزير الخارجية بالدولة العثمانية .

وأحسن الأعمال من جهة حسن الأرض واعتدال الهواء عمل سرت ثم الجبل ثم فزان ؛ أما بنغازي ودرنة وبرقة والجبل الأخضر فسنعقد لها فصلاً يخص كل واحد من ذلك لأنهما خارجان في هاته المدة عن حكم باشا طرابلس ولهم باشا معلوم واحد خصوصي وقد كانوا تحت نظر باشة طرابلس في الزمن

الماضي ؛ ونبدأ بعمل فزان وعلى الله التكلان .

[٧٧] ولنرجع إلى وصف فزان فنقول : يحتوي هذا الصقع على ثلاثمائة قرية بناؤها من الطوب إذا أصابها الغيث الوابل تنهدم سريعاً ، وماؤهم من الآبار والعيون وبكل قرية من النخيل ما لم يعلم علمه إلا الله تعالى ، إذ لم يحص عدده ، والصحراء والتوارك يمتارون منه ، وغالب أراضيه ليست بصالحة للفلاحة ولا وجود للبقر بأراضيهم إلا بقر الوحش البري ، وأغلبها إن لم نقل كلّها رمال وجبال من الرمال رحالة وجبال من الحجر لونها أكحل لا نبات فيها . وتبلغ الحرارة هناك إلى درجة عالية ويقع عندهم الجمود في المياه فكثرته من أكتوبر إلى فبراير إن هبت عليهم الرياح الغربية . والرقيق
[٧٨] في بلدانهم كثير يباع ويشترى من غير إشهار . ويمكن أن الثلاثة أيام أو أربعة تمشي في أراضي لونها كالقار أو أشد سواداً ، وجبالها وأراضيها صلدة لا نبات بها ، وأياماً تمشي في رمال متصلة بعضها ببعض ، وبها جبال شامخة من الرمل رحالة ، وأياماً في بساط متسع وتنايف ممتد الأطراف ومجاهل تمكث فيها القوافل العديدة وأهلها لا خدمة لهم إلا حركة النخيل ، وفيهم التجار الذين يذهبون إلى السودان وبلدانه ؛ وكثير منهم يقصد بنغازي وطرابلس وتونس لأجل الخدمة والتمعش ، ولهم محبة عظيمة في خوض تونس على غيرها لكثرة أرباحهم بها ، ومن مكث مدة في تونس ثم رجع إلى بلده يحسب غنياً في عرفهم ويتفاخرون بالذهاب إلى تونس .

وطباع أهلها التأنّي والرزانة وغالبهم على طريقة الشيخ السنوسي إلا القليل ، ولا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن به زاوية من زوايا السنوسيين .

[٧٩] أما بلدانهم الكبيرة المشهورة فأولها **مرزق** : / هي قاعدة فزان الكبيرة

التي بها المتصرف والعسكر ، تبعد على طرابلس بمسير ثلاثين يوماً تقريباً للقوافل ؛ ولتعلم أن عمل فزان كان مستبدّاً ليس داخل تحت طرابلس وله حاكم خصوصي من قبيلة أولاد محمد ومحل ملكه مدينة مرزق ولا زالت طائفة منهم ببلد مرزق إلى يومنا هذا ، ومكث فزان بأيديهم مدة خمسمائة عام إلى أن أخذه منهم يوسف باشا سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) في مدة ولايته على طرابلس .

ومن بلدانهم المشهورة مرزق كما تقدم ثم القاطرون ثم سوكنه ثم هون ثم ودان ثم الزيغن ثم سمنو ثم القرضة ثم سبهة ثم ديلم ثم الشاطي إلى غير ذلك .

تنبيهات مفيدة في وصف مرزق :

بلد كثير العيون والنخيل وماؤه في غاية العذوبة وتكثر به أمراض السخانة بالصيف ؛ دخلت هاته البلاد في مدة سياحتي الصحراوية سنة ١٨٩٥ — ١٣١٣هـ في يوم ٢٧ من شهر ربيع الأنور قبل الزوال ، فتوجهت في الحين إلى زاوية [٨٠] الشيخ أحمد مختار شيخ مشايخ السنوسيين بعمل فزان / وقد بلغته قدومي قبل أن نأتيه بأيام ، مع حسن الوصاية عني ورد البال مني ، وقد وجدته يقرىء في كفاية الطلاب للشيخ الصالح المشهور عبد الله بن أبي زيد القيرواني بالزاوية ، فلمّا تم درسه أقبل علي بشراشر قواده هو وجميع كبار الطريقة السنوسية ، وبت تلك الليلة بالزاوية مكرماً مبرراً ؛ ومن غد اكتروا لي محلاً لنزولي ، وهي دار ذات طابقين على ملك محمد باشالي أحد التجار الطرابلسيين فاستريحت بها .

وصادف بعد قدومي بيومين ، قدوم المتصرف الجديد وهو في رتبة باشا . وكان قدومه البلد صباحاً فنزل بقصر الحكومة ؛ وفي اليوم نفسه بعد ان صلى صلاة العصر بالجامع الكبير بإمامة الشيخ أحمد مختار المذكور إمام الجامع

المذكور ، خرج الباشا في جمع عظيم من أمراء العساكر ومدير البلد وقاضيه والجم الغفير من الأعيان والأهالي وساقة الناس ووقف الجميع عند باب القشلة الكبرى والعساكر مصطفّة والموسيقة التركية تصدح بتلك النغمات المطربة ، وكان موكب عليه من المهابة وحسن الرونق أمر عظيم . ثم بعد أن تلي الفرمان باللغة التركية تقدم قاضي البلد وتلا خطبة باللغة العربية يدعو فيها بالخير لمولانا السلطان عز نصره وللمتصرف الجديد وسائر الأمة .

ومن هناك توجّه الباشا للزاوية السنوسية وكنت أنا بالزاوية فكلفني الشيخ أحمد مختار وبعض الأعيان من الإخوان بنظم أبيات شعرية تهنئة للباشا ، والحق [٨١] أن هذا الباشا ممن يستحق الهناء ، رجل خير من أهل البر والتقوى والعبادة يناهز الستين من عمره وعليه مهابة ووقار ولطف اسمه « أحمد أنور » كان حاكم بغداد قبل هاته النوبة ، فنظمت تلك التهنئة في الحين بما جادت به القريحة ، وسردها الشيخ أحمد مختار على حضرة الباشا ودعوا له بالخير ، ومن الأبيات :

أدار من الهنا كأس السرورِ ... قدومُكَ للبلادِ بكلّ خيرِ
قدومٌ في ربيع كالربيع ... ونور لاحَ في نور الشهورِ
تبسمت البلاد بكم وأمست ... تجر ذيول أبواب الحبورِ
ولاحَ البشر عن طرر الأهالي ... ونار القطر بالمولى الوزيرِ
قدومٌ بارك الرحمنُ فيهِ ... يليه السعد بالخير الغزيرِ
وندعو الله أن يبقيكَ كهفاً ... ويحفظ ذاتكم من كل ضيرِ
ويبقي لَنا أميرَ المؤمنين ... وسيدنا على أمد الدهورِ
ففيض الخير من عبد الحميد ... وعمدتنا على أمد الدهورِ

فوقعت عند الباشا موقع الاستحسان .

ثم إن القاضي كتب هذه القصيدة بخط يده وكان من أبرع الناس في الكتابة بخطه الثلثي الجميل ، وأرسلت القصيدة مع جواب من الأهالي يتضمن الثناء على الباشا إلى الحضرة السلطانية . والقاضي هو رجل من أبناء أكابر دار الخلافة شاب لطيف جميل المنظر يلبس الثياب الرفيعة ويتزيا تارة بعمامة خضراء لا يتجاوز الخمسة والثلاثين من عمره ، متحنك ومتفنن وله محبة عظيمة في اللغة العربية والعلوم العصرية يميل كثيراً إلى الشعر العربي وكم من ليالي أحييناها في السمر والتحميض بمحله ؛ وكان يصنع لي الطعام الفاخر اللذيذ وتظهر
[٨٢] عليه آثار / الرفاهية من لباسه ورياشه ، ويبدي الضجر من المكث بمرزق . طلب مني أن أقربه شيئاً من هذا العلم أعني علم الأصول وأعرفه بحقيقته ؛ فأقرأته شيئاً من الخطاب على الورقات جزاه الله عني خيراً ، وكان منور الذات والفكر بحيث لا تشبع العيون عن رؤياه .

[ومرزق] كانت محط رحال القوافل السودانية والصحراوية ، وهي منتصف الطريق لمن قدم من طرابلس قاصداً مدينة برنو يعني كوكة يقصدونها من واداي ومصروجالو وتوات ؛ وكان يأتيها الركب التواتي قاصداً حج بيت الله الحرام يتألف من آلاف من البشر فيقيم هناك مقدار خمسة أيام وعشرين يوماً يبيع ويشتري ثم يسافر . ونمت بها التجارة إلى أن بلغت حدّاً عظيماً من الرفاهية . لكن لما وقع المنع من أحد متصرفي فزان بعدم تجارة الرقيق وأعتق جميع من في البلد منهم ومنع دخول العبيد الأرقاء إليها تقهقرت تجارتها ولم تأتها القوافل وصار محل التجارة بلد غات إلى هذا اليوم .

وبمرزق وجدت من العسكر النظاميين ما يقرب من المائتين .

ودخلها السنوي ما يقرب من ثلاثمائة ألف قرش هي وأعمالها تستخلص على النخيل وبعض الرقاب وبعض الأملاك بغير قوانين منظمة ، وجميع بناءات

البلد مبنية بالطين والتراب والجير ، وبها قشلة للعسكر ، وبها قصر كبير يسكنه متصرف البلد في الغالب ، وهو محل إدارة الحكومة به أربعة مدافع من الطراز القديم ، وبه مجلس بلدي رئيسه المتصرف به عشرة أعضاء من أهالي البلد يجتمع يوم الخميس ويوم الاثنين من كل أسبوع ينظر في مصالح البلد بلا راتب شهري . وكان بالبلد قنصل إنكليزي ثم أبطلته الدولة الإنكليزية ولم
[٨٣] أدر ما هو السبب . وليس هناك / علماء إلا أن غالب أهل البلد يحفظون القرآن العظيم كما هو عادة بلدان الصحراء .

أما الأعيان والتجار فغالبهم من غير هذا البلد ونسمي لك من تعرفت من سادتهم : عبد الرحمن تنيتيو . السيد الشريف السنوسي . الحاج الكيلاني الهوني . عبد الحميد اليزباشي . سي الحاج محمد بن علوه . وأخوه سي الحاج عبد الله . بالحسن الأمين . موسى بن عثمان . الشيخ أحمد مختار شيخ السنوسيين والإمام الأكبر بالجامع الكبير .

لم يوجد بهذا البلد شيء من الغلال والثمار والفواكه إلا بعض البقول كاللفت والقثاء والسلق والمغدنوس والطماطم والفلفل . أما الزيت والسمن فيجلب لها من الخارج ، ولا تسأل عن رخص التمر بها فهو قوت البلد المعتاد . أما الفقر فمفقود . أما من يتعاطى بيع المعاش من الخبز والتمر والخضر وغير ذلك فهم النساء بسوقه المعتاد أمام البلد الكبير داخل المدينة . وفيهن خصال
[٨٤] حميدة منها حبهم للغرباء ولهم رأفة وحنانة عليهم وجبر خاطر . / وهم في غاية الحسن واللطافة ، ولا يوجد فيهن الجمال ، ولهم ثغور كالجوهر النضير ينطبق عليها قول ابن سهل الإشبيلي :

وإذا تبسم إن لؤلؤ ثغره سلب العقول إذا بدا متبسما

أو قول الحريري :

نفسي الفداء لثغر راق مبسمه وزانه شنب ناهيك من شنب
يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

ولهم عيون مرضى صحاح كأنما عناها من قال :

عيون عن السحرِ المُبين تبينُ تُسالمها العُشّاقُ وهي تخونُ
مراض صِحاح ناعِسات يواقظ لها عند تحريك الجفون سكونُ

ومن أراد أن يتزوج بهاته المدينة فإن صداق المرأة الحسنة الشرعي لا يتجاوز المأتين فرنك في الغالب ، وهن متغلبين على رجالهن .

وبهاته البلدة البيض والدجاج بكثرة مع رخص الثمن . ومرزق ملآنة بالتوارك وهم الذين يبيعون الحطب والفحم .

[٨٥] وبالبلد سوق عام به حوانيت التجار وكل شيء من أنواع السلع يباع فيه بالمزايدة ويفترق السوق باقي ساعتان إلى الزوال ، فلا ترى بعد أحداً به إلا حوانيت التجار تمكث مفتوحة إلى المغرب وبعده . ولا توجد عندهم تجار أغنياء فإن أول غني عندهم من التجار يسمى المهدي العامري ، مات أبوه فخلف له مقدار الستين ألف قرش وهي اثنا عشر ألف فرنك ، وهذا المقدار له بال عظيم بهذا البلد لأن القرش يفعل ما يفعله الفرنك بهذا البلد .

وأسعار الأشياء رخيصة جداً ؛ الحمل من الحطب الغليظ يباع بقرش وحمل الفحم مثله بثلاثة قروش . وأجرة البناء في اليوم قرش ونصف ومثله خدام البساتين ، وبالجملة إن كل شيء ينسب إلى البلد رخيص إلا القمح والزيت والشعير ويجلبونه التجار من الخارج ، أما الزيت فيمسحون به رؤوسهم فهو عندهم كالعطر ، وأدمهم شحم البعير إلا المثري فيستعمل

الزيت أحياناً أو السمن .

ولا يوجد بالبلاد طبيب إلا طبيب العساكر ، ويوجد ساعاتي تركي الأصل منفي هناك .

وأحواز البلد عن قريب بها بعض الأراضي الصالحة تعظم بها المقاثي خصوصاً الدلاع .

وماؤها على غاية من الحلاوة يجلبونه من الآبار في قلال كبار على شكل صنوبري على ظهور نسائهم أو عبيدهم للشرب ، وفي جميع وطن فزان وغات يخرجون الماء من الآبار بواسطة أحمرة في الغالب ظريفة الجرم ، وغالب [٨٦] كسبهم النخيل ، ولا ينزل المطر في هذه البلاد إلاّ / قليلاً في المدة الطويلة . وعن عدم نزول المطر في هاته البلاد إلا قليلاً في المدة الطويلة ، حكى لي السيد عبد الله بن علوة أن المطر لا ينزل عن بلادهم إلاّ بعد أحقاب ؛ قال : والآن أربعين سنة لم تجُد السماء بقطرة وذلك من فضل الله عليهم لأن المطر يضر بالتمر الذي هو قوت البلاد ويهدم دورها .

[٨٧] الكلام عن بنغازي والجبل الأخضر

هاته المدينة كانت في القديم تحت حكم باشة طرابلس والآن يأتيها باشا خصوصي مثل طرابلس من الاستانة نظره تحت وزير الخارجية يدير شؤونها وهي في الحقيقة من أعمال طرابلس اعتباراً .

كان قدومي لبنغازي من مالطة عن طريق طرابلس وفي اليوم السادس والعشرين من ذي الحجّة الحرام على متن البابور المسمّى بالعصملي لشركة من اليونان ، فبلغناها قبل الزوال بساعتين سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) ولما نزلنا من البابور إذا برجلين واقفين على الرصيف فلمّا وضعت رجلي بالبر طلبا مني

تذكرة السفر من بلادي فناولتهما إيّاها ولم يرداها إليّ إلا بعد ثلاثة أيام حتى ضمنها شيخ البلد بدفتره الرسمي .

ومن عوائد أهل البلد إذا قدم عليها بابور ، يخرج غالب تجار البلد ورئيس البلدية ومدير الجمرك ولفيف الخلق فيصطفون على جوانب رصيف المرسى الذي ينزل فيه المسافرون حتى إن المسافر لما يصل إلى البلد يكون معروفاً بالذات عند جميع أهاليه والحكومة .

[٨٨] وجرى العمل أن بعد خمسة عشر يوماً يأتيهم بابور اسمه « سعد الله » لإنسان من تجار الإسكندرية كما يأتيهم بابور آخر وهو الذي حملني اسمه «العصملي» بعد خمسة عشر يوماً إليها ، والحاصل أن في تلك المدة لم تكن مواصلة السفن بثغر بني غازي كثيرة . وموقع المرسى في الناحية الغربية من البلد ، والبحر يحف بالبلد من الجهة الغربية والجوفية بحيث أن الشمس إذا غربت تسقط بالبحر ، ولها منظر عجيب عند غروبها فيه لأنّني لم أشاهده قبل ذلك وإن شاهدته بعد أثناء سفري لأوربا .

اعلم أن ريح الصَّبا بهاته المدينة تهب من الناحية الجوفية والغربية ، والدبور والنكباء تهب عليه من القبلة عكس ما بديارنا التونسية : تكون سموماً حارة عندهم وبذلك يظهر للعبد الفقير ما في كلام بعضهم من السهو في تقاسيم الرياح وأسمائها عن عدم تقويمها بالأماكن والبقاع حيث قالوا :

ما هبَّ من شرقٍ فذلك الصَّبا ثمَّ الدبور عن يمين ذهبا
ثم الشمال بعد ذا وقد جرتْ نكباء بينَ كل ريحين سرتْ

هذا ما استحضرته من الأبيات في أسماء الرياح وقد بقي شيء منها فيما بقي من أسماء الرياح البرية ، وإن للبحر أسماء غيرها خاصة بالبحر يعلمها الملاحون وتعريفهم لذلك والله أعلم إنما هو بحسب المكان الذي كانوا فيه والبحر شرقيه

فاشتهر هذا التعريف من غير تأمل ؛ والله أعلم .

يوجد بها اثنا عشر رجلاً من الجرابة وبعض من الصفاقسيين وبعض من [٨٩] الطرابلسيين دون العشرة وجانب عظيم من اليهود ؛ أما أهالي البلد فلا يتعاطون هاته الصناعة . وليست لهم إلا صناعة الفلاحة . وأهل هاته المدينة لهم همم عالية وسيرة مرضية متولعون بحب الاطلاع على أحوال غيرهم من أمم المشرق والمغرب فرأيت لهم عزماً عظيماً وتولعاً بحب قراءة الصحف ، والحق أن الطريقة السنوسية هي التي هذبتهم .

ولا تدخل السلع الأوربية في ذلك الوقت إلى بنغازي إلا بعض من الفخار كالقدور والأواني يأتون بها بعض الطليانيين ، أما السلع الداخلة فهي الجرود وهي عبارة عن الأحرمة الجريدية والجربية واللفة بتمامها والقماش بأنواعه ، السكر بأنواعه ، العطرية ، الأبزار ، الملف بأنواعه ، محارم حرير وخيط قطني ، بشاكر صفاقس ، ماعون حديد ونحاس ، سكاكين وأمواس ، مناجل وأصحنة ، صناديق لوح مدهونة ، ورباع من صنعة تونس ، الكاغد بأصنافه ، والزبد أنواع ، الروائح الطيبة والأعطار كماء الياسمين والزهر وأعطارها والمسك ، وأنواع الشاشية التونسية ولا يلبسون غيرها ، وغير ذلك . وهاته البلدة يباع بها كل ما يأتيها من السلع بثمن عال خصوصاً السلع الردية فإن بها يربح الأرباح الباهظة لأنهم لا يفرقون بين الغث والسمين ، فكثيراً ما يشترون من عند من لا يخاف الله عطر الفتنة ويظنونه عطر ورد من العال بثمن عطر الورد الحقيقي ، وهكذا في كل الأشياء ، فالتاجر تتوافر أرباحه إذا كان عنده السلع الردية ، وربما أتى بعض التجار بالسلع الغالية فلا تخرج لوفرة سعرها لأن البلد بلد بوادٍ وأعراب ، وغالبهم أهل الجبل الأخضر ، والقصاب والبقال والخباز والزيات غالبهم من أهل طرابلس ومسراطة ؛ أما أهل البلد فليست لهم

[٩٠] حرفة إلا صناعة الفلاحة . / وهم مختصون بها ولا يتقنونها ؛ ولو أنهم معتنون بإتقانها لكانوا أثرى بلاد في إفريقية لخصوبة أراضيهم بحيث أن العام الذي لم تنتج لهم فيه الفلاحة تتعسّر أحوالهم فتمدهم الدولة العلية بما يتزودونه تلك السنة القاحطة ، والغالب عندهم الخصب الذي لم يوجد نظيره في كثير من بقاع أرض الله الواسعة ، فقفيز القمح بالأرض ينتج في العام المتوسط من الأربعين إلى الخمسين قفيزاً وفي العام الصابة يبلغ المائة ومثل ذلك الشعير . وفي زمن الصيف تأتي لها السفن من أوربا إذا كان العام خصباً فتشتري منها القمح ، والشعير يأخذ منه الإنكليز الكثير لصنع البيرة وهو أحسن من غيره .

حكى لي يوماً السيد محمد المهدوي شيخ البلدية أنّه أخذ من بنغازي إلى أوربا في سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) ستين ألف قفيز ونيف ما بين قمح وشعير .

أما أنواع الحيوانات بهاته البلدة وكثرة وجود أصنافها فحدّث عن البحر ولا حرج ، كفاك أن الكثير من لحوم مصر والشام تأتيهم من بلد بنغازي من بقر وضأن ومعز ، طعمه في غاية اللذة . واللحوم لا تتجاوز الوقة نصف فرنك عبارة عن رطلين ونصف ، والدجاج والبيض بها رخيص جدّاً ، والحمام كذلك الأربعة بنصف فرنك . والخضر والبقول والغلال فلا قيمة لها بهاته [٩١] البلد وجميع ما فيها من الطعام / رخيص ، والسمن والزيت والعسل كذلك .

والحاصل أنّني لم أر مكاناً فيما وطئته رجلي أرخص أسعاراً من هذا البلد .

أما هواء البلد ففي غاية الاعتدال والنعومة فلا تحلها الأمراض العادية .

وجميع أراضي أحواز البلد الخارجة عنها مسافة ستة كيلومتر يملكونها الأهالي وفيها بساتينهم ، ثم بعدها تجد أراضي شاسعة ممتدّة الأطراف ليس على ملك أحد إلاّ الله ، خصبة ناعمة يحرث بها من شاء من أهل البلد أو عرب الجبل الأخضر بلا أجر ولا يؤدون شيئاً للدولة ، وكلما بعدت عن البلد اتسعت

الأرض مع الخصب والجودة بحيث تراها كأنّها محترثة والحال أنّها من عهد آدم لم تحرث فمهزول الأحمرة يثيرها ، فحز ما شئت واحرث ما شئت ، وما عليك من الأداء إلاّ ما أوجبه الله على عباده من الزكاة الشرعية . ومن أراد أن يملك أرضاً بوطن بنغازي بعيدة عن البلد بمقدار الخمسين أو الستين كيلومتر فإن المائة ماشية التي هي ألف اكتار لا يتجاوز الخمسة آلاف فرنك ، وكل ما بعدت عن البلد انخفضت أسعار الأرض وانعدم بيعها وشراؤها من مسافة السبعين كيلومتر تقريباً .

أرض برقة وغلالها : وبعض أرض برقة من جهة الجبل الأخضر على مسافة عشرة أميال من بنغازي بها غابات كثيرة من الخروب والمشمش والليمون [٩٢] والتفاح والإجاص والرمان وغير ذلك .

وأهلها عرب بادية ينسبون أنفسهم إلى عرب المحاميد بوطن طرابلس ، وكانوا على عهد الدولة الحفصية يرتحلون في بعض السنين الجدبة إلى باجة القمح بأرض تونس يتزودون منها القمح والشعير ثم يرتجعون إلى بلدهم .

[٩٣] ومن أعمال بنغازي الجبل الأخضر ، وبه المياه العذبة وجميع الفواكه المتقدمة الذكر ، ويخرج من هذا الجبل العود المعروف عندنا بالسرداوي لسقوف البيوت ويخرج منه لحاء بعض الشجر يعني قشوره لصبغ بعض الأقمشة يرفعونه لكل من مصر والشام والإسكندرية ، ويوجد بأطراف الجبل الملح الجيد فقد رأيت جبلاً من الملح بمرسى بنغازي ترفعها السفن العظيمة من مرساها .

اعلم أن سكّة هاته البلد كسكة طرابلس وأعمالها ؛ وأنواعها : ليرة عثمانية ، قطعة من الذهب صرفها مائة وتسعة وعشرون قرشاً ، المجيدي عبارة عن قطعة من الفضة صرفها أربعة وعشرون قرشاً ، البوشليك قطعة من الفضة عبارة عن فرنك تقريباً . والبارة عبارة عن قطعة صغيرة الحجم من الفضة صرفها ثماني زلطات . الزلطة قطعة نحاس مقدار الصولدي التونسي في الجرم

صرفه سانتيم تقريباً ولكن له اعتباراً في البيع والشراء .

[٩٤] شكل البلدة : وجميع البلد على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس إلاّ حومة الافرنج التي بها محل قناصل الدول فعلى الشكل الأوربي وبعض بناءات للوجهاء والحكومة كذلك .

وفيها مساجد كثيرة نخص بالذكر منها الجامع الكبير الذي بالسوق وبه منارة عظيمة . ومسجد الحنفية وهو مسجد عظيم في غاية الإتقان والنظافة والاتساع . ومسجد زاوية شيخ الطريقة المدنية وغير ذلك . وبها زاوية عظيمة للشيخ السنوسي ، وزاوية لشيخ الطريقة المدنية ، وبها أسواق منتظمة تشبه أسواق تونس وأعظمها سوق اللفة .

ولباس أهلها شاشية من عمل تونس تحتها عراقية بيضاء يظهر من تحتها شيء قليل ، وسراويل إلى الكعبين كسراويل عساكرنا التونسية ، وسورية [١] فوق السراويل إلى نصف الرجل ، وفرملة [٢] اسكندرانية أو تونسية ، يلتف فوق ذلك بحرام تونسي . ولم تجد من يلبس برنساً من أهل البلاد ؛ وأنعلتهم شبه البلغة التونسية ، وبعضهم يلبس في زمن الشتاء أنعلة تونسية ، وكذلك لباس أهل مسراطة ودرنة والخمس والساحل وطرابلس .

وفي هاته السنين الأخيرة يخرج من بنغازي ركب عظيم يتألف من خمسمائة جمل فما فوق في مبادىء شهر اكتوبر من كل سنة يتألف من بعض تجار

[٩٥] أهل طرابلس ومسراطة ويبلغ إلى واداي في ظرف ثمانين يوماً . فيحمل / من بنغازي جميع أصناف السلع خصوصاً أنواع القماش واللفة والسكر والشاي ، ويقيم في الطريق أياماً قليلة ، منها أيام ثلاثة في الكفرة القاطن بها الشيخ سيد

١ السورية : جلباب أو قميص . (ع . م)
٢ الفرملة : شيء يلبس مثل الصديري . (ع . م)

محمد المهدي يزورون ذاته الشريفة ويتزودون منه الدعاء ذهاباً وإياباً . ثم يأتي هذا الركب بسلع من واداي منها العبيد والريش وناب الفيل والجلد ولا يمكث الركب أزيد من سنة إلاّ لحادث . والذي كان سبباً في هذا الركب وفتح هذا الطريق هو سيد محمد المهدي شيخ الطريقة السنوسية وأمّنه من اللصوص بحيث أنّك تسير من بنغازي إلى واداي لن ترى بالطريق ما ينكد عيشك ولم تسمع بأحد من التجار اختلس له عقال بعير ، خصوصاً وأن الطريق يأتي على واحات الكفرة التي بها الشيخ السنوسي .

وبنغازي متقدم من جهة دخله المالي .

[٩٦] وفي شرقي البلاد على ثلاث مراحل منه تجد مدينة هائلة ذات بناءات وأسوار وقصور شاهقة وذلك مدينة عين شحات ، وتسمى شحات ، على مسافة يومين ونصف من الجهة الشرقية ، بها آثار عجيبة من بناءات الرومان أيضاً وموقعها على شاطىء البحر أيضاً ، حكى لي السيد الحاج أحمد المهدوي شيخ البلدية ببنغازي حكاية نصها أنّه في سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) كانت الدولة الإنكليزية طلبت من مولانا السلطان عبد العزيز نعمة الله أن ترسل سفينتين إلى عمل بنغازي لأخذ شيء من النشاف [١] لأن هذا الشط يوجد به النشاف بكثرة ولأنّه صار غنيمة باردة لليونان ، فأذن بذلك ، فلمّا وصل السفينتان كان دأب الإنكليز الحفر في تلك الأطلال البالية واستخراج الآثار العتيقة من مدينة شحات كأوان من الفضة والنحاس والمواعين والخواتم المنقوش عليها صور عجيبة والتماثيل المرمرية والرخامية وغير ذلك ، حتى إنهم عثروا على تمثال شحات الذي تسمت باسمه وهو من الذهب الخالص ، فأخذوا الجميع وكان ما حملوه وقر سفينتين فأخذوا الجميع وأقلعت السفينة قاصدة مدينة لندن

١ النشاف : الاسفنج . (ع . م .)

ثم فطن بعد ذلك السلطان بالمكيدة فجعل حينئذ حراساً على تلك الأطلال :

[٩٧] إذا نفذ القضاء بجسم عبد فما يجدي المحنك والطبيبُ

وهاته الحراسة لا زالت موجودة ليومنا ؛ انتهى كلام شيخ البلدية .

والبوادي والعربان تعلمت كيف تلتقط تلك الآثار من الماعون والسكك والحواتيم رغماً عن الحراسة المذكورة وتبيع ذلك خفية للأجانب ببنغازي ؛ ويعاقب بايعها إن ظفرت به الحكومة .

وتوجد أطلال كثيرة من بناءات الرومان خاوية على عروشها يسمونها المدن الخالية في اصطلاحهم ، وموقعها في الغالب في النواحي الشرقية مثل الحنية ، مسا ، توكرة ، القبة ، توجد بها الآثار القديمة . وآخر بناء وجدوه من بناءات الرومان آثار قديمة اعتلى غالبها الرمل في مكان يقال له الحطيّة بالقرب من عين عبيدة القريبة من بلد الزيغن من عمل فزان ؛ وبعد ذلك لا يقع بصرك على شيء من الأطلال الرومانية فيما وطئته قدمي من الصحراء وأقاصي فزان والقاطرون وغير ذلك ؛ والظاهر أنّه إلى هناك انتهى بهم العمران وهو معقول لأن الرومان إنما تعمر على وجود الماء .

وبالجملة فإن الصحراء لا يوجد فيها شيء من تلك الآثار ، وفي غير الصحراء لا تكاد تمشي ميلاً واحداً من غير أن تجد طللاً بالياً ، ويكثر هذا [٩٨] من الحدود / الطرابلسية التونسية إلى أن تصل الإسكندرية تغور وتنجد وتكثر بالقرب من البحر .

وهناك مكان يقال له المرج على مسافة يومين من مدينة بنغازي به أسواق وبناءات وهو في غاية الخصب الذي لا مزيد عليه وسكانه بوادي . وبه قبر سيدنا رويفع بن ثابت الصحابي رضي الله عنه .

وبالجملة فإن الجهة الشرقية من بنغازي كلّها خصبة ذات أشجار عظيمة

وأعين من الماء العذب جارية . وهي المسماة بالجبل الأخضر وهي في غاية العمارة ممتدة تلك العمارة إلى أطراف الإسكندرية مسافة عشرين يوماً وفيه الغلال الطيبة ما شاء الله في غابات وتلول عالية كالزيتون والرمان والانجاص والسرو بكثرة والصنوبر . أما فاسوخ الصبغ فهذا الجبل معدنه ترى على حافات مرسى بنغازي جبالاً منه شامخة تأخذ منه أوربا وجميع الأقاليم . وسكان هذا الجبل أعراب بادية لسانهم طلق فصيح بالعربية وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة معتقدون في شيخهم سيدي محمد المهدي السنوسي اعتقاداً لا تزحزحه الجبال ، ويخافون الله ورسوله أصحاب عبادة ، والأمن وعدم [٩٩] الخوف قد ضرب أطنابه بأرضهم . فالغريب والسواح عندهم لا يهضم له جانب ولو كان معه حمول الذهب والفضة . وهاته الأراضي الخصبة هي عبارة عن مكان متسع خصب للغاية كما علمت بمقدار عمالة تونس أو أزيد تقريباً وسكانها لا يتجاوز الستمائة ألف نسمة تقريباً .

ومن سوء البخت أن الأمة العثمانية نصرها الله وأيد ملكها لم تلتفت إلى عمارة هاته الأراضي التي هي من أخصب أرض الله ، ولم أر ولو معمراً واحداً يملك شيئاً من الأرض في ذلك التاريخ ، وإلى الله عاقبة الأمور كلّها . والجهة القبلية المائلة إلى الغرب من وطن بنغازي دون غيرها في كثرة الخصب .

عود كلام مفيد على الفلاحة : اعلم أن كيفية حرث الأرض عندهم ليس بتفنن كما علمته ، لا من جهة آلات الحرث ولا من جهة الدواب التي تثير الحرث ولا من جهة العلم بالحراثة وإصلاح الأرض من التغبير وغيره ، فكيفية حرثهم هو أن لا يتجاوز الحراث في الأرض أربعة سانتيم مع طراوة الأرض ولينها وبين الخط والخط مسافة خمسة سانتيم لم تحرث ، وأكبر محراث عندهم لا يتجاوز طوله شبراً من حديد ، والزريعة عندهم ليست بمتقنة مع وجود

الصابة عندهم وليست لهم مصاريف باهظة على الفلاحة كما هي عندنا بتونس ولا يعرفون الخماس بل يسمونه الرباع لأخذه الربع من الصابة . وجميع آلات الفلاحة رخيصة جداً وكذلك الدواب من البقر والجمال والبغال والبهائم والخيل ،

[١٠٠] والرباع / يمون نفسه ونوع المونة جانب من الشعير والقطانية البيضاء . وهذا التقرير أخذته من العارف بذلك السيد عمر بن شتوان أحد أمناء فلاحة بنغازي .

مدينة درنة : لم تخطها قدمي ، بلغني عنها عندما كنت ببنغازي أنها بلاد طيبة الهواء وأهلها كرام في غاية اللطف وهي باختصار تماثل بنغازي فيما قلناه سابقاً ، ولم نجد لها معلومات كافية وهي من مراسي مملكة طرابلس المعتبرة ، ولها باشا خاص مثل بنغازي وأنا بعد البحث عن مزيد التعريف بها وإن شاء الله تأتي عودة[1] على الكلام عليها قبل ختم هذا الكتاب .

[١٠١] **مدينة مسراطة** : / هذا بلد عظيم من أعمال طرابلس يقال له مسراطة بينه وبين البحر اثني عشر كيلومتر . وهواؤه جيد للغاية وماؤه طيب وأراضيه خصبة ؛ به النخل الكثير فلكل واحد من أهل البلاد بستان يخصّه ، وهم يخدمون الأرض حتى يصيروها كالحرير الناعم على نمط أهل صفاقس وضد أهل بنغازي ، وفيها من جميع الغلال والفواكه ما لم يعلم علمه إلا الله لأن المياه بها كثيرة جداً . وأهلها عالمون بالفلاحة وخدمتها يخرج منها القمح والشعير لأوربا بكثرة في سنين الخصب وكذلك الزيت لأن زيتونها على غاية من حسن الإتقان وهو كثير عندهم متولعون به ويخرج منها السمن الطيب بأنواعه . وهو بلد كبير بناؤه متفرق عن بعضه بعضاً في الغالب كبساتين صفاقس وأرضها أجود من أرض صفاقس وأخصب وأكثر مياهاً .

أما أهلها ففي غاية الحسن والجمال والرفاهية وحسن المعيشة ورخيصة

---

١ لم يرجع المؤلف إلى الكلام عن مدينة درنة كما وعد . (ع . م .)

[١٠٢] الأسعار مثل بنغازي وأرخص ، وكلهم تجار أصحاب جد واجتهاد .

وبها ثلاثة أسواق ، سوق الأحد وهو السوق الكبير تأتي لهم العرب من جميع أنحاء طرابلس من كل حدب ينسلون على مسافة خمسة أيام أو أكثر فتتجمع به ألوف من العرب خصوصاً في فصل الربيع كعروش . ورفلة . والسعادة . وطرهونة . وعرب ابن وليد . والجبل . وأهل طرابلس نفسها . وأهل بلد زليطن . والخمس . والساحل وغير ذلك ، وتعظم أسواقها . ويباع بهاته الأسواق جميع أنواع الحيوانات من البغال والخيل والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز . وترى ألوفاً من هاته الأصناف . ويباع بها السمن الجيد الصافي عديم النظير والعسل المصفى والزيت الحلو الطيب والدجاج والبيض ، ويخرج منه إلى طرابلس ألوف من الصناديق اللوح ، وبه أنواع الطيور من الحمام والوز والجرمان يعني البط بثمن زهيد ، ويجلب لسوقها من أنواع الصيد البري ما لم يعلم علمه إلا الله كلحم الغزال وبقر الوحش والأرانب والحجل والقطا والدرج والحمام البري وغير ذلك . والتجارة رابحة بهذا البلد ويختص بصناعة المرقوم الجيد المختص بهذا البلد مثل اختصاص القيروان بصناعة الزرابي . ومثل السوق المذكور سوق الخميس وسوق الثلاثاء إلا أن سوق الأحد يعظم أكثر منهما .

وبعد صلاة الجمعة من كل أسبوع تخرج قافلة كبيرة في مقدار مائتي جمل وأكثر ذاهبة إلى طرابلس فتبلغ إليها صبيحة يوم الثلاثاء لكنها تسير ليلاً ونهاراً سيراً مجداً بحيث يمنع النوم إلا وقت الاستراحة القليلة وهي مقدار الثلاث سوايع في الليل ومثلها بالنهار .

[١٠٣] وغالب تجار مسراطة من اليهود وهم كثيرون في غاية الرفاهية يتمتعون بحرية تامة في كسبهم وارتزاقهم وديانتهم . ولا توجد في البلد قناصل للدول

الأوربية . وبها كثير من اليهود التونسيين والجزائريين ولم يوجد بها من الجرابة إلاّ نفراً واحداً ولم يوجد بها أحد من الصفاقسيين .

ويوجد بالبلد خمسة وعشرون عسكرياً ومعهم ضابط من رتبة يوزباشي وحاكم تركي إلاّ أن عسة البلد في مدة إقامتي فيه غير كافية للأمن . ولما كنت هناك عمدت عدة من الأشقياء إلى جامع اليهود فدخلته ليلاً وأخذت منه جميع الفضة التي كانت بها أسفار التوراة ، وقناديل من الفضة وصندوقاً به عشرة آلاف قرش كانت موضوعة هناك لتوزع على الفقراء والمساكين منهم ثم مزقت الكتب التي ذكرت . ولما بلغ الأمر الحكومة خرجت العساكر للبحث وألقي القبض على أنفار متهمين بهذا الفعل وبطشت الحكومة بالجاني البطش العظيم بالغرامة والعقاب الشديد .

ويوجد بمسراطة رجل من رعايا اليونان لكنّه شهر على نفسه أنّه من رعايا الإنكليز يتجر هذا الرجل في القمح والشعير وله دكان في غاية النظافة يبيع [١٠٤] فيه / أنواع المملحات والمقرونة والجبن . ويتعاطى رهن الرباع والعقار بفايظ معلوم . ورأيت الكثير من أعيان البلد يجلس بدكانه حتى حاكم البلد نفسه . وسكة نقودها مثل طرابلس وبنغازي .

وبناءات البلد بالجير والآجر والحجر بناء محكماً ليس على الشكل الأورباوي وبها كثير من الآثار الرومانية .

وبهذا البلد ضريح الشيخ العالم الولي الصالح المشهور سيدي أحمد زروق المغربي العباسي البرنسي صاحب التآليف المباركة والكرامة المشهورة توفّي بمسراطة سنة [1] . ومقامه يبعد عن البلد من مقدار الستة أميال قريب من البحر

١ بياض بالأصل ولكن من المعروف أن وفاة سيدي أحمد زروق كانت عام ٨٩٩ هـ، يراجع عنه « نيل الابتهاج » لأحمد بابا التنبكتي . (ع. م .)

في ربى على غاية الانشراح وقبره في بيت متوسط مصلى المقام ، ووجدت الدولة العثمانية مشتغلة ببناء مدرسة هائلة مجاورة لمقامه أمر بصنعها السلطان عبد الحميد المخلوع ، فقضيت مناسك الزيارة ثم رجعت من حيث أتيت . . .

[١٠٧] وبمسراطة قبر القطب الرباني العارف حضرة الشيخ سيدي شعيب المدني صاحب الطريقة المدنية المتوفى سنة ٥٩٤ هـ الموافق ١١٩٧ م بزاويته المشهورة [1] .

وفي يوم الجمعة ١٠ من رمضان المعظم في الساعة الثامنة بعد الزوال خرج الركب المعتاد من مسراطة قاصداً طرابلس فبتنا تلك الليلة مسافرين ومن غد صباحاً رأينا نخيل بلدة زليطن ومن هناك تخلفت عن الركب فعرجت عن [١٠٨] الطريق لزيارة الشيخ العارف / بربه الغوث سيدي عبد السلام الأسمر [2] ولم نتمكن من الدخول إلى بلد زليطن .

أما مقام الشيخ فهو على ساحل البحر في غاية الانشراح بعيد عن زليطن بقدر خمسة أو أربعة أميال ، ودعونا الله بما تيسر ووجدت على قبره الشريف التابوت الذي تسبب في صنعه المرحوم المنعم السيد حسونة ابن المرحوم السيد حمودة بن عمار شقيق السيد الكيلاني بن عمار جزاه الله خيراً ولقي ثوابه في كافة حسناته .

١ أخطأ الحشائشي في عدم التفريق بين شعيب المدني وبين محمد بن حسن بن حمزة المدني، فالأول مغربي توفي عام ٥٩٤ هـ ١١٩٧ م ولم يكن في ليبيا ، وأما الثاني الذي كان بمسراتة فهو من مواليد المدينة المنورة عام ١١٩٤ هـ وساح خمسة وعشرين عاماً ووصل طرابلس أيام يوسف القره مانلي وبنى زاويته بمسراتة وتوفي عام ١٢٦٣ هـ فليلاحظ .(ع . م .)

٢ ولد الشيخ عبد السلام الأسمر عام ٨٨٠ هـ ١٤٧٥ م وتوفي عام ٩٨١ هـ ١٥٧٣ م وله أثر في الحيط الصوفي في المغرب والمجتمع الليبي ، وقد ألف عنه كريم الدين البرموني المصراتي كتاباً في مناقبه ، واختصره محمد بن عمر بن مخلوف التونسي ، ولا يزال كتاب البرموني مخطوطاً أما المختصر فطبع في تونس . (ع . م .)

وبعد إتمام الزيارة رجعت إلى القافلة مسرعاً فوجدتها قربت من بلاد الساحل ، وعند مساء اليوم نزلنا ببيت على الطريق العام تابع لقرية بلاد الساحل وهاته البلدان والأراضي كلها نخيل وزيتون . ثم رجعنا صباحاً ، وسرنا النهار كله فتارة نقرب إلى البحر وأخرى نبعد عنه ، وبتنا جوار بلد الخمس ، وهي مرسى تأتيها السفن لأخذ الحلفاء ، ثم رحلنا صباحاً وبتنا في نفس بلد تاجورة وهو بلد تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، تأتي ترجمته إن شاء الله ؛ ثم رحلنا منه صباحاً فسرنا إلى أربعة قبل الزوال ، ودخلنا مدينة طرابلس البيضاء وكان ثغرها مبتسماً في وجهي . ومن بلد مسراطة إلى طرابلس دائماً المسير محاذياً إلى شاطىء البحر وكثيراً ما توجد بطريقنا بناءات الرومان خصوصاً بين الخمس وطرابلس على رؤوس الهضبات المرتفعة . وتوجد هناك آثار مدينة لبدة وهي من أعظم مدن الرومان وبها عين ماء عظيمة تنحدر إلى البحر من ناحية الخمس .

[١٠٩] **الخبر عن بلد غات مع الإلماع إلى ذكر طرف من أحوال التوارق** : حيث كانت هاته البلدة من أعمال طرابلس لزمنا التكلم عليها حسب الطاقة . هذا البلد بعيد عن طرابلس من جهة الغرب المائل إلى الجنوب بمقدار أربعين يوماً على الجمال مشياً وسطاً ، وينقسم إلى ثلاثة بلدان صغار بناء الجميع بالطين والتراب وسعف الجريد ، وهو على شكل مثلث في رأس كل خط منه بلاد وأسماء البلدان الثلاثة ، غات . والثانية تونين . والثالثة بلاد العتارة ، والجميع يطلق عليهم غات مجازاً وبها مسجدان وزاوية للشيخ السنوسي لأن غالب البلد سنوسيين ، والبلد هو ذو عيون ونخيل وهواؤه متوسط ، اشتد فيه الحر ، وفيه بعض المعادن التوتية والكحل والطرونة وبعض الملح رديء .

[١١٠] وصفة أهل غات وعاداتهم كلّها على صفات التوارق وهي في الحقيقة

بلد من بلدانهم يتغالون في حبها .

أما حاكمها في سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) فهو سيدي الحسان باثبان السيمن بن أحمد ابن سيدي الحسن الأنصاري ؛ له من الحكومة مرتب سنوي قدره في كل شهر ألف وستمائة قرش يأخذها من متصرف مدينة مرزق . وهذا الحاكم تولى حكم البلد بعد موت ابن عمّه السيد الضاوي ابن الحاج الأمين الصديق الأنصاري ، أخو السيد أيوب الأنصاري وستعلم ترجمته . وكان السيد الضاوي حاكماً عدلاً ثقة منصفاً عالماً بأحوال السياسة تهابه التوارق وتخشى بأسه وتوقره . ومن طباعه الحسنة أنّه لا يرضى النهب والقتل والظلم ، وفي مدته اطمأنت البلاد والعباد ، وشاع خبره حتى إن بعض الأتراك من حكام مرزق يقول إن هذا الرجل يصلح للصدارة العظمى ، وسمي في جميع أعمال طرابلس بالرجل المنصف ؛ ولما منع التوارق من الإغارة على الأركاب والنهب دسوا الغدر والخديعة فتفطن بأعمالهم . وسلم البلاد للدولة العثمانية فجعلت به خمسين عسكرياً وبنت به قشلة للعسكر وجعلت بها مدفعاً ، وأقرت الحاكم المذكور على البلاد في حراسة العسكر المذكور ، وبعث الكثير من مشايخ التوارق إلى مرزق من الذين فعلوا ما لا يليق بالأمن والراحة . وكان استيلاء الترك هذا على البلد المذكور سنة ١٢٩٣ هـ (الموافق ١٨٧٦ م) . ثم لما رأت التوارق ما حل بمشايخهم دهموا على العسكر ليلاً والعسكر نائمون فقتلوا جانباً منه وفر الباقون إلى مرزق .

[١١١] وأما الضاوي حاكم البلد فدهموا عليه وهو بمحله وهو على حين غفلة وما عنده شيء من السلاح إذ ذاك فضربوه بسيوفهم بعد أن قتل منهم اثنين بخنجر صغير كان بيده ثم أثخنوه جراحاً ومثلوا به في القتل ، فحزن عليه جميع من يحب العدل والإنصاف . وحين مات كان أخوه السيد أيوب بوطن توات

لتجارة له . وخلف ولدين ، أحدهما اجتمعت به مع عمّه السيد أيوب بمرزق وهو ضجيع الفراش بمرض الحمى ، وقد باشرت علاجه بنفسي وهو أنّي ناولته صباحاً جانباً من زيت الخروع فوقع له إسهال عظيم حتى خاف عليه عمّه المذكور ، حيث كان نحيف الجسم شاب ظريف الشمائل ، ثم من غد ناولته ثلاثة قراطيس من روح الكينا فشفاه الله على يدي وقام كأنّما نشط من عقال .

ثم لما أراد الذهاب لبلده خرج من مرزق في جماعة من التوارق قاصدين غات ، ولما سار مقدار ثلاثة أميال على مرزق سقط من أعلى الجمل الذي كان راكباً عليه وبذلك مات من حينه ، رحمه الله ، فرجعوا به إلى البلد ودفن بخارج بلد مرزق رحمه الله ، ولتغيب أخي الضاوي سيد أيوب المذكور عن بلد غات استولى على غات ابن عمه سيدي الحسن ابن الحاج أحمد بن الحسن الأنصاري استيلاء وقتياً إلى أن يأتي أخو الضاوي من توات ، ولما أتى سيد أيوب أقر ابن عمّه على غات ولم يرض بالولاية .

ولما بلغ الدولة فشل الحاكم والعسكر بعثت لهذا الحادث متصرف فزان إذ ذاك الرجل العربي المشهور الحسمي بن قدارة وهو من الرجال المعروفين بالشجاعة والرأي الثاقب لحسم الثورة وأمن بلاد غات من سطوة التوارق ، ففعل ذلك بحسن تدبير ورأي مصيب وانحسمت النازلة وعم الأمن بلاد غات .

[١١٢] واعلم أن غات لا تدفع شيئاً من الضرائب للدولة العثمانية بل إن الدولة تدفع لها هدايا في بعض الأحيان ، والحال أن حاكمها السياسي يخلص معلوماً سنوياً وهو ريال فرنك على كل جمل يدخل غات . وفي كل سنة يدخل ما ينيف على الثلاثين ألف جمل من السودان الأقصى والأدنى ، وهذا المال له بال في غات التي قرشها بمثابة فرنك في غيرها ، فتأتي هاته القفول بسلع

كثيرة كالعبيد وريش النعام والنعام نفسه وناب الفيل — وقد شاهدت بعين رأسي نابين من نياب الفيل يحملهما جمل واحد كأنّهما أسطوانتان — والجلد والزبد والبخور السوداني وغير ذلك . والغالب أن هاته القفول تحل بغات في شهر أكتوبر الأعجمي .

الكلام على تجار غات : فمنهم المقيمون بالبلد والمشهورون منهم الحاج محمد مامه المنتقي . الحاج إبراهيم بن سليمان . الحاج عمر النفوتي . الحاج عمر الذي كف بصره . محمد بلخوا . عبد القادر عيسى . هؤلاء غاتيون في الأصل . ومن الغدامسة : أبناء الحاج عون الله . البشير بن عون الله بن الأكحل . أولاد الثيني وغيرهم . ومن عادات تجار أهل غات أنهم لا يفتحون دكاكينهم بأنفسهم فإن ذلك يعد عندهم من العيوب بل إن لكل تاجر رجل عتري ، من بلد العتارة . . . والأعتارة أصلهم عبيد أرقاء لأهل غات وخدامهم في القديم ثم تناسلوا فيفتح ذلك العتري دكان سيده ، ثم بعد حصة زمانية يأتي [١١٣] سيده فيجلس بدكانه ، وهو عبارة عن بيت صغير بناؤه بالطين / والتراب والجريد .

اعلم أن التجار بالسودان ودواخل الصحراء هم من أهل مدينة طرابلس ومن أهل فزان وغالبهم من أهل غدامس أما الطرابلسية فقد أنشبت أظفارها بهاته التجارة في سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) . وكانت في القديم يعني قبل سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) جارية بين أهل تونس والغدامسية وغات لا دخل لأحد من الطرابلسية في هاته التجارة ؛ وبيان ذلك أن غات وغدامس كانت تحت الدولة التونسية ، ولا زالت الآثار التونسية فيهم خصوصاً في اللباس ، تلبس أعيانهم الجبة التونسية والبرنس المصنوع بالحرير والحرملة والصدرية والمنتان والشاشية التونسية والحزام التونسي ، وسيوفهم تونسية الأصل ، وجميع ما

يعزّ عليهم من الأثاث تونسي حتى إذا أرادوا مدح شيء من السلع قالوا هذا تونسي الأصل . وفي سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) ظهر إنسان من وطن طرابلس اسمه ناصوف أراد أن يفتح طريقاً من طرابلس إلى واداي ويذهب له بنفسه ، فأخذ جانباً من أحد المثرين الأجانب وجهز قافلة صغيرة ، وحيث لم يكن له علم تام بالطريق الموصل المأمون إلى واداي تشارك في الرأي مع رجل يقال له محمد ابن علوه من أعيان تجار بلد مرزق مقيم إذ ذاك بطرابلس لتجارة له ؛ فقال محمد بن علوه لناصوف : إن كنت عازماً على الذهاب لا محالة فإنّا

[١١٤] نبشرك بالربح العظيم ، وكان / محمد بن علوه ممن له خبرة بمتجر السودان ، فأرسل معه ابنه وقصد واداي على طريق مرزق ، ولما بلغ مرزقاً توفّي محمد ابن علوه وابنه ، ثم إن ناصوف توجّه بنفسه إلى أن بلغ واداي سالماً وباع سلعته بأوفر الأثمان الباهظة وأخذ من واداي الريش والناب وكرّ راجعاً إلى طرابلس ، فباع ما أتى به من السلعة بما عوضه الريال الواحد خمسين ريالاً . وهذا أول رجل دخل واداي من أهل طرابلس وهو المشهور وقيل سبقه غيره ثم اقتفى أثره غيره من أهل الطرابلسية فسافروا لواداي وغيره من الممالك السودانية ، ومن ذلك الوقت اشتهرت التجارة بطرابلس مع الممالك السودانية ولا زالت تتألف الشركات وتذهب القفول الكثيرة إلى تلك البلدان القاصية .

هذا الرجل من أهل طرابلس أصالة اجتمعت به ببنغازي بدار سيدي الحاج محمد المهدوي شيخ البلدية نعمه الله وتسامرت معه عدة ليالٍ كانت كاختلاسة من الدهر وفرصة من العمر ، وهو رجل فصيح اللسان باللغة العربية الدارجة طلق اللسان حلو الكلام ذو دعابة وفذلكة في حديثه رحب الصدر أنور الوجه قصير القامة له وجاهة في قومه ، نفاه الباشا أحمد راسم في جملة من

ثار عليه في نزول العسكر ، وله أبناء في غاية الجمال والرجولية والهمة العالية ، حكى لي أنّه سافر لمرسيليا ليبيع الريش والناب ودخل تونس في سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) فأضافه الحاج علي بن عامر الطرابلسي ببستانه بإريانة خارج الحاضرة وأثنى عليه خيراً .

وممّا يشهد أن غات وغدامس تحت حكم ملوك تونس سابقاً ما هو مسطر في بعض أسواخ مخلفات جدود سيدي أيوب الأنصاري من ذرية حكام غات . وذلك أن بعض جدوده المسمى بأحمد الأنصاري قدم مدينة تونس وكان

[١١٥] معه عشرة من الخدم الرقيق يقصد بيعهم ، فقصد بهم الأمير محمد باي صاحب الجامع الضخم ، امام ولي الله سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه ، فأخذهم الأمير المذكور جميعاً منه بما أرضاه وسره ، ولما أراد السفر إلى غات أرسل معه محمد باي هدية إلى حاكم غات وحثّه على العوائد التي كان يرسلها حاكم غات لأمراء تونس ، وكتب محمد باي أيضاً جواباً إلى أمير طرابلس يحسن الوصاية عنه ، وإن يكن ببال من المتاجر الواصلة إلى تونس مع الغدامسية .

[١١٦] ولما وصل إلى طرابلس وجد أميرها سار إلى عفو الله ، وقام بالأمر بعده ابنه فمكنه من جواب محمد باي ومضمونه — على ما في تلك الأسواخ البالية المشار إليها ولا زالت عند سيدي أيوب إلى يومنا هذا — ما نصه : إن حكام غات تبقى حكاماً بغات على نظرنا ومهما احتاجوا إلى شيء يخبروننا عنه لنكون في إعانتهم والسلام من محمد باي . ثم لما بلغ الجواب أرسل حاكم غات في الحين هدية إلى محمد باي المرادي ، وبقيت حكام غات ترسل في كل عام هاته الهدية إلى ملك تونس واستمرت المواصلة من ذلك الحين . وهاته الهدية تتألف من عشر جوارٍ سود ومثلهن ذكور أو طواشي وجانب زبد سوداني وجانب بخور وبعض طيور من البوبغا والنعام أحياء ، ثم صارت هاته الهدية تأتي

على طريق الركب الغدامسي الذي يأتي من غدامس في كل عام . ولما يصل الركب إلى حمام الأنف يرسل الأمير له بواباً من طرفه لإبلاغ سلام الأمير
[١١٦] على أعيان الغدامسية والفرح بقدومه ./ ولما يصل تونس ينزل في الفندق المسمى بفندق الطبرية جوار باب العلوج داخل تونس . فيجعل لهم الأمير ضيافة إكراماً لهم وهي قصاع كبيرة من الفازين والملوخية باللحم البقري تكفيهم فيأكلون ويشربون ويدعون للأمير بطول البقاء . ولهم عوائد جارية من الدولة في كل عام للمقيمين منهم بتونس جارية في كل عام وهي قفيزان من الملوخية وعشرة رؤوس من البقر وجانب من القمح ، وهؤلاء الطائفة هي أول من كشف الغطاء عن التجارة التونسية السودانية ، وسيأتيك تفصيل ذلك عند التعرض لترجمة غدامس ، إن شاء الله .

هؤلاء التجار منهم يبيعون السلع السودانية كالجلد بأنواعه والريش والناب وكل ما يأتي من السودان كالتبر والرقيق والنعام والببغاء ، وكان لهم بداخل تونس دار كبيرة مشهورة يبيعون فيها الرقيق من ذكور وإناث صغاراً وكباراً وهي الدار الكائنة الآن بنهج البلاعجية رقم ٦ — يجلس بهاته الدار كبير من التجار الغدامسية المعروف بالحاج محمد الثيني وهو من الأعيان الأغنياء . فيأتيه إلى مكانه المذكور من أراد شراء الرقيق من أهل البلد فيجلس المشتري بمكان مخصوص بالدار المذكورة ، ثم يعرض عليه من أراد شراءه من الرقيق فبعد البيع والشراء والتقليب وسلامة العيوب يدفع المشتري الثمن ويرفع ما اشتراه إلى محله . أخبرني المنعم السيد الحاج أحمد بن الكيلاني أنّه ذهب مع والده
[١١٧] صغيراً إلى هاته الدار ليشتري منها خادماً فاشتراها بثلاثمائة / وخمسين ريالاً تونسيّاً فرنكاً ٢١٠ ، ودامت عنده سنين عديدة وكان موتها سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٤ م عتيقة ، وأخذ ولاءها السيد أحمد المذكور ؛ وبيع الرقيق ليس بممنوع

في تلك العصور ، وله سوق خاص به ، وهو المكان المعروف في يومنا هذا بالبركة بناها المرحوم يوسف داي لهذا القصد .

ودامت مواصلة الركب الغدامسي إلى تونس إلى أوائل دولة المشير أحمد باشا باي الحسيني ، أخذ الركب في التقهقر وانقطع بالمرة في أواسط الدولة المذكورة ، وصار يقصد طرابلس بسلعه وعبيده . والسبب في ذلك أحد أمرين : الأول هو صدور أمر الأمير بمنع بيع الرقيق والعقاب الشديد لمرتكبه والعتق جبراً ، والأمر الثاني هو أن محمود بن عياد لما استبد بالضرائب التونسية على الأشياء المباعة ودخل الدولة التونسية جميعه كان بيده وكان الغدامسية يجلبون في ذلك الوقت الذهب المعروف بالتبر من السودان يبيعونه بتونس لليهود والافرنج وبعض أهل البلد بأثمان وافرة تسبب ابن عياد في إصدار أمر من المشير أحمد باشا والي البلد في لزوم الغدامسية الأداء على التبر فضاق الحال بالغدامسية من ظلم ابن عياد مع ما لحقهم من عدم بيوع الرقيق فدبروا في تحويل الركب إلى مدينة طرابلس للخروج والتخلص من هذا الأداء . فأخذت الطرابلسية تتعلم منهم السفر إلى السودان إلى يومنا هذا .

ثم نرجع إلى الكلام على غات فنقول : إن غات هي مركز عظيم للتجارة
[١١٨] الصحراوية ومرسى السودان ولها تجارة كبيرة مع أهل توات وأهلها أصحاب عقيدة راسخة على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه متمسكون بالطريقة السنوسية وكانوا قبلاً لا يتعاطون إلا في تجارة الوثنيين الذين لا دين لهم .

ولما كانت من سكان غات التوارق وأميرهم وأعيانهم يسكنون هذا البلد الذي هو من أعمال طرابلس في الوقت الحالي ناسب أن نتعرض لبعض أخبارهم باختصار مفيد لمن لا يعرف أحوالهم . . . [1]

---

١ نقل الخشائشي هنا ما جاء في ابن خلدون عن التوارق ، فلم نر إثباته .

[١٢٠] ثم نخص بالذكر من هؤلاء التوارق الضاربين بالأعمال الطرابلسية حول غات وغدامس وفزان : هؤلاء ضاربون آلاف حول غات وجباله إلى بلدهم الأصلية وهم من الملثمين المار ذكرهم ، ولذلك ترى اللثام دائماً لا يزال عن أوجههم ولو عند الأكل والشرب ، ولنبدأ بذكر رجالهم المشاهير الموجودين بغات ولهم التصرف في جميعهم :

أولهم الرجل أنقدازن . وهو الحاكم على التوارق وولد أخت نخنوخ حاكم التوارق أيضاً قبله . تاكروب وهو رجل مسموع الكلمة في القبائل بمثابة وزير — مولاي — هو رجل ذو شهرة واعتبار . سيدي محمد بن نخنوخ من الوجهاء . بنايت بن موسى رجل من العالمين بأحوال التوارق . حميدو بن بو وافزن مثله . الشيخ محمد بن إبراهيم مثله . هؤلاء أعيان التوارق أصحاب الشورى الذين عليهم الحل والعقد وإذا صار أمر عظيم في قبيلتي أزقر وهقار فإليهم يرجع أمره .

ومن طبائعهم عدم الحمق والتأني في الكلام فلا ترى من يتكلم منهم صارخاً أو رافعاً صوته بتقطيب . وقل من يحسن الكتابة والقراءة منهم ، ولهم تعظيم لأرباب العلم والشرف خصوصاً من تمسك بالطريقة السنوسية وهؤلاء القسم من التوارق يسمون أنفسهم المشاك بمعنى مستقلين وأشراف . قال ابن [١٢١] خلدون واسم / التوارك أطلقته عنهم العرب لتركهم الحق في الصدر الأول وعلى هذا يكتب لفظ التوارك بالكاف لا بالقاف ؛ وهم ينطقون به بالقاف المصرية وكذا أهل طرابلس أمّا الآن فهم مسلمون ولغتهم تسمى تماشك وهم بيض الوجوه حسان الخلقة .

وليس لهم شيء من السلاح الجديد يحملونه . ولا ندري الآن هل وجد ذلك عندهم أم لا ، فغاية ما يحملونه من السلاح حربة طويلة وسيفاً ماضياً من

الجانبين وخنجراً ظريفاً على شكل الصليب مربوطاً مع ذراعه الأيمن ، وبعضهم يرفع بندقية وذلك قليل يأخذها في الغالب من بلد مرزق ذات جعبة واحدة من الطراز القديم ولم يحملها ربها إلا لما عسى أن يصادفه في طريقه من بقر الوحش والغزال .

ولهم كيفية خاصة لا يستطيعها الرجل الجسيم وهي جعلهم خرجاً من اللوح يربطونه فوق أكتاف الجمل ربطاً محكماً ويجعل زاده وسلاحه فوق ظهر الجمل بمزود من جلد المعز مدبوغاً ويعلق سيفه أمامه بقربوس سرجه ويجعل رجليه مختلفتين فوق عنق الجمل ويمسك الشكيمة بيده اليمنى .

اعلمني السيد أيوب الأنصاري أن عددهم لا يتجاوز الثلاثة عشر ألف [ ] وقيل تسعة آلاف فالأمر داير بين ذلك ، وكانوا يتجاوزون هذا العدد في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) وسبب النقصان هو الشيء الذي وقع في بلادهم والجوع ووقع غزوهم لبعض القبائل المجاورين لهم فكثر فيهم الموت ، وفي سنة [١٢٢] ١٣٠١ هـ / (١٨٨٣ م) غزوا قبيلة تبو فقتل تبو منهم سبعمائة رجلاً وأثخنوا فيهم .

واعلم أن أزقر وهقّار هؤلاء المتحدث عنهم وفوغاس أيضاً يمتدون من حدود توات إلى بلاد غات ومرزق في فلوات من الرمال والجبال قاحلة من الرمل وبينهم أراضي فارغة وقفار هاملة لا يسكنونها .

أما أشرافهم فيركبون الهجاين السريعة ، وغاية ما يكون من سرعة الهجين عندهم أن يسير الثلاثة أيام في يوم واحد . ولا أصل لما ينقلونه بعض المؤرخين من أن هناك جمال يعبرون عنها بالمهاري العشريات — بمعنى أنها تسير في اليوم مسير عشرة أيام — فهو حديث خرافة .

أما لباسهم فغالب السوقة منهم يلبسون القميص الأبيض وهو الغالب أو

الأسود أحياناً ، ويجعلون أكمام ذلك القميص كبيراً جدّاً بحيث أنّه إذا لم يرفعه ربه يصير مطروحاً فوق الأرض ، ويجعل فوق رأسه عمامة ووسط رأسه عرياناً ، ويحلقون رؤوسهم إلا أنّهم يبقون بعض الشعر برؤوسهم ممتدّاً من قفاه إلى جبهته في غلظ خمسة سانتيم ، ويجعلون على أوجههم لثاماً . وقليل منهم من لم يعلق التمائم والحروز بعنقه ويتنافسون فيها . أمّا أعيانهم فيجعلون طرابيش حمر طوال على رؤوسهم ارتفاعها مقدار عشرين سانتيم من صناعة تونس يتنافسون فيها .

أما الخيل فهي قليلة جدّاً عندهم ولا يركبونها .

[١٢٣] ولهم واحات كثيرة بالصحراء بها نوع من التمر رديء كتمر تاورغا يقتاتون منه ، وتوجد عندهم الغنم ، والمطر عندهم قليل جدّاً ، أكبر بلدانهم تسمى أدلى .

ومن عاداتهم ألا يتزوج الرجل منهم أكثر من امرأة شرعية . ومحل سكناهم في بيوت من الجلد محزمة بالقصب الجيد مصنوعاً كالحصير ، وبلدانهم : البلد عبارة عن واد ذات نخيل فيه بيوت مبنية ، إمّا بالقصب أو الجريد مع شيء من التراب الخالص ، وولد أخت الملك عندهم هو وارث الملك . ومن طباعهم أنّك إذا حللت بأرضهم ولم تكرمهم ولو بأقل الأشياء التافهة فإنّك تهان في أعينهم ، والكثير منهم يطلبك جهاراً ولو كان من أعيانهم الأغنياء ، وأقله أن تطعمه في بطنه ، وكبراؤهم الأعيان ليست لهم صناعة ولا تجارة ، وقد وقعت لي معرفة ببعض أعيانهم خصوصاً عندما كنت بمرزق ، فهديت لهم بعض حقق ملآنة بزيت الياسمين مع شيء قليل من عطره فوقع ذلك عندهم موقع الاستحسان .

وممّا هو مركوز في عقولهم أن ليس يوجد بلد في العالم أعظم من مدينة

تونس ، ويرون أن سلعها أحسن سلع مدن الدنيا بحيث أن التاجر إذا أتيت لهم أن الشيء الذي يريدون شراءه أصله تونسي اشتروه بما يطلب من غير مساومة . أخبرني السيد أيوب الضاوي أن له سيفاً تونسيّاً اشتراه بمائة دور بوطيرة ثلاثمائة فرنك تقريباً ، ومع هاته الدراهم عبد رقيق وجانب من ريش النعام ؛ وقد قدم لي هذا السيف فشاهدته بعين رأسي فإذا هو سيف ممضي من الجانبين رأسه من حديد طوله ثمانين سانتيم وعرضه ستة سانتيم ونصف
[١٢٤] وله غلاف من الجلد قديم . / قال السيد أيوب إن هذا السيف صنع في مدينة تونس الخضراء في مدة الأمير الجليل حمودة باشا الحسيني سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٢ م) .

ثم اعلم أن قبيلة فوغاس الممتدة بين توات وغدامس أشجع من قبيلتي أزقر وهقّار المار ذكرهما ، ومن أعيانهم أصحاب الكلمة والجاه والنفوذ رجل اسمه بو فينايت . ومثله لكن من المتجبرين رجل يقال له الكرب . وأبو فينايت المذكور له يد على قبيلة الشعانبة ونفوذ ، ولهم حيل عظيمة في الحرب لا شجاعة .

يحكى عن رجل من قبيلة أزقر اسمه كراجي ، له اعتبار بين قومه ذهب يوماً إلى دشرة[1] من عمالة الغرب الجواني ومعه عشرون نفراً ولما بلغهم قال لأهلها : إني أريد أن اشتري بندقية طيبة ، فإن اعجبتني ندفع لربها مائة مثقال من التبر الذهب الخالص والنقد ، حاضراً ، فلمّا سمعت أهل الدشرة كلامه ذهب منهم كل من له بندقية فأتاه بها ، ثم إنّه يأخذ البندقية ويزيل زنادها لينظرها في زعم أهل البلد ولما غلب على ظنّه أنّه لم يبق بندقية في البلد أمر العشرين نفساً التي معه فعاثت في البلد وأخذوا بعض أثاثهم وساقوا إبلهم بعد

١ دشرة : قرية صغيرة . (ع . م .)

أن قتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وهذا الرجل تهابه جميع التوارق ، قدم إلى غات فأكرمه جميع التجار وأعيان التوارق غاية الإكرام ، فطلب منهم يوماً أن ينظر القشلة العسكرية فنظرها وكان فيها مدفعاً واحداً . ولما أراد أن يرجع إلى أرضه جمع غالب الأعيان والتوارق وذهب بهم إلى القشلة حتى وقف على عين المدفع المذكور فخاطب من كان معه بقوله : يا معشر أعيان أزقر وهقار ، [١٢٥] اعلموا أنه ما دام فيكم / هذا الحديد الخشين لا راحة لكم في هاته الديار والسلام .

وانتهى بعض ما تيسر من ترجمة أزقر وهقار الضاربين بأرض غات وحواليها ، ومن أراد زيادة البيان فعليه بالرحلة الصحراوية للعبد الفقير ، وترجمت إلى اللغة الافرنسية بواسطة العالم الحاذق موسيو سير المراقب المدني بتونس والسيد محمد الأصرم رئيس الخلدونية ثم طبعت باللغة الافرنسية .

غدامس

[١٢٦] قال المؤرخ ابن الشباط : غدامس قرية كثيرة النخل وأهلها برابرة أكثر طعامهم التمر والكمأة وهي تعظم عندهم . افتتحها الأمير عقبة سنة ٤٢ . انتهى . ويقولون أهلها إن قبر هذا الصحابي بغدامس وهو مخالف لما قاله غير واحد من أنه مات بالزاب وقبره بها ، والله أعلم .

[١٢٧] وطبائعهم شبيهة بطبائع التوارق يتكلمون بلغة بربرية خاصة بهم مع معرفتهم مبادىء القراءة والكتابة . ومنذ اعتلقوا بالطريقة السنوسية صار منهم من يحفظ القرآن العظيم مع حسن مشاركته في العلوم الإسلامية . وكان تخرج منهم أناس عالمون فقهاء كالشيخ الغدامسي صاحب شرح الحزب الكبير للإمام الشاذلي رضي الله عنه ، ومن أمثالهم الدارجة قولهم « غدامس تولد ، وتونس

تربي » ، وذلك إذا ازداد مولود لأعيانهم يمكث عندهم بغدامس إلى أن يبلغ سنه سبعة أو ثمانية سنين إلى العشرة ثم يرسلونه إلى تونس لقراءة جانب من القرآن العظيم وتعلم الكتابة ثم يباشر خدمة بعض الحرف إلى أن يحصل على جانب من المال فيشتري به جانباً من السلعة المطلوبة ويقصد بلاده عن طريق وادي تطاوين . وهم أول من أحيا التجارة السودانية مع أهل تونس ودخلوا ممالك السودان وانتشروا في أصقاعه وتسلطوا على تجارته وربحوا الأرباح الباهظة .

ولنذكر لك على سبيل الاختصار بعض أعيانهم الذين لهم تقدم عظيم في بعض الممالك السودانية وتجارة عريضة : محمد بن محمد بن ابراهيم الغدامسي . وهذا الرجل له اعتبار عظيم وشأن وعلو مكان وغناء حتى صاهر السلطان برنو المعروف بالحاج عمر . وعبد الله بن عثمان القبيل . محمد بن مطيش . البشير بن خلف الله . أحمد بن سالم . حامد بن محمد الصياح الغدامسي . البشير بن محمد بن هيبة القبيل . المختار بن محمد القبيل . السيد محمد البشير الوحيشي رجل غني عظيم القدر . ومن أعمالها الخمس مرسى عظيم يوسق منه الحلفاء بكثرة .

[١٣٥] ومن أعمال طرابلس تاجوراء كعاشوراء . . . . قال الشيخ ابن ناصر : والذي أعرف في ضبطها تاجوراء كعاشوراء ، أما العبد الفقير فقد بت بهاته الدشرة مع جملة الركب القادم من مسراطة إلى طرابلس ، ففي الصباح تجولت بها فرأيت قرية بها بعض دور بناؤها بالطين والتراب وغالبها عديمة الأبواب ولا قصور ولا آثار تدل على ما كانت عليه ، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، بينها وبين طرابلس مرحلة صغيرة .

برقـــة

برقة أرض متسعة جداً تمتد إلى أحواز بنغازي وحدود الإسكندرية من جهة الجبل الأخضر إلى حدود سرت وفزان من جهة الجفرة ، ولها عند العرب اسمان برقة البيضاء وبرقة الحمراء ، باسم لون الأرض ، بحيث أن الأركاب إذا دخلوا أرضاً يتلونون بلون الأرض ، فترى ثيابهم بيض إن دخلوا البيضاء وتحمر
[١٣٦] إن دخلوا الحمراء ووقع للعبد الحقير مثل ذلك .

وتسكنها قبائل كثيرة من العرب منهم التمامة . وأولاد سليمان . والميابيس . والشريدات . والهوات . والسهب . والقدادفة . والعمارة . والتمامة . ومنهم سيف النصر المتسلط على الجميع بمثابة أمير عليهم ينقادون إلى أوامره ونواهيه .

ولا بأس بالتعريف بهذا الأمير العربي المحض وقبيلته لما في ذلك من الفوائد الغير معروفة اليوم لمتطلع أخبار البشر فنقول : اعلم أولاً أنني اجتمعت بهذا الرجل مشافهة مع صحبة قاضي عرش التمامة الشيخ المتفنن سيدي عبد الحفيظ التمامي ، وهو رجل مشارك في بعض العلوم لطيف الطبع والذات نيف على السبعين من عمره ، وكان إذ ذاك عرش التمامة ضارب أطنابه بأحواز بلد ودان لأنه في كل عام يمكث العرش المذكور في هذا البلد في وقت اجتناء التمر فيمتار منها قوت سنته ، ثم يرجعون إلى أوطانهم المتجولين بها من الصحراء . وقد فارقتهم عندما بارحوا بلد ودان بثلاثة مراحل فدخلوا مجاهل الصحراء الشواسع وعرجت عن طريق الزيفر .

[١٣٧] ولنترجم للشيخ سيف النصر طبق ما استطلعته من أخباره : هو سيف النصر بن عبد الجليل بن سيف النصر ، كان جده حاكماً على عموم فزان ثم

توفي جده واستولى بعده ابنه عبد الجليل ، فثار هذا الرجل على الترك وحاربهم حروباً كثيرة عدة سنين فكسر لهم المحالاً عديدة أيام يوسف باشا أمير طرابلس ، ثم ظفرت به الترك بوسائط من عيون الأعراب المعادين له فقتلوه غدراً وأتوا برأسه إلى طرابلس[١] ولم يبق من ذريته إلا صاحب الترجمة ، فمكث مع أبناء عمه في أعماق الفيافي والقفار إلى أن كبر سنه ، وكانت له نباهة تامة وشجاعة وكرم حاتمي ، فاتبعه عرشه وكثير من العروش الرحالة . وفي بعض السنين غزا عرش الحسون من رعايا الترك فأخذ منهم ما يقرب من ألف جمل ولما طلبته الحكومة الطرابلسية في رد ما أخذه فر إلى دواخل الصحراء ، والحكومة متحيرة منه حتى إنها وعدت بمليون فرنك لمن يأتي برأسه .

ومن هاته القبيلة من يقصد في كل عام بلد غات ومرزق والقاطرون للمتجر وليمتاروا منها ، وهم أبناء عم كثيرون في بلاد نواحي كانم من السودان .
[١٣٨] أما لغتهم فهي اللغة العربية الصرفة ، ويدخلها بعض تحريف قليل ، سمعت بعض صعاليكهم يحدو بصوت مطرب بكلام عربي قديم معرب :

أرحها فقد أبلى السنابك وخدها وأتعبها غور الفلاة ونجدها

فقلت له : من قائل هذا البيت . وهل حي قائله أو ميت ؟ فقال لي ما صورته بحروفه : حفظته عن والدي مذ كنت يافعاً . وقليل منهم من يعرف القراءة والكتابة ، وكثيراً ما كنت أداعبهم وأنشدهم الأشعار العربية فيفهمونها ويطربون لها سجية ، وفيهم من يقول الشعر سليقة إلا أن غالبه غير موزون كقول بعضهم يخاطب ناقته :

---

١ كان ذلك حوالي عام ١٢٥٨ هـ - ١٨٤١ م . وللقنصل الإنكليزي الكولونيل وارنجتون يد في تدبير القبض على عبد الجليل والإيقاع به حتى وقع في يد الأتراك . (ع. م.)

سيري على مهلك يا ناقتي الغرا واقطعي ما حاط بالكفرا

الكفرة واحة من واحات الصحراء الشرقية تحيط بها فلاة من الأرض بساط مجهل لا ماء فيه ولا مرعى مسيرة عشرة أيام من كل جهة ، وهي الواحة التي هجر إليها الشيخ الأكبر سيدي محمد المهدي ، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته .

ولهم تعظيم كبير لنسائهم مسبولة عليهم آمة الحجاب ولا يمكن أن يرى أجنبي عنهن ولو ظفر منهن . يركبن الهوادج في الخدور الملتفة بالملاحف المصبغة ذات الألوان المختلطة :

يطرزها قوسُ السحاب بأصفر على أخْضَرٍ في أحْمرٍ أثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وفي يوم رحوهن ترى مناظر تلك الهوادج سائرة فوق بساط الأرض كأنها السفن الشارعة ذوات الأعلام المختلفة الألوان على متن البحر النائم موجه وما هي في التحقيق إلا سفاين :

[١٣٩] سفاين البر كم انجا لراكبها سفاين البحر كم فيها من الخطر

ومن العجيب أن ألوانهن مع تعمقهن في الأرض الحارة هو البياض المشرب بسمرة يسرة تميل شيء يسير إلى الحمرة ، ويغلب عليهن الحسن لا الجمال ، وغالبهن رشاق القدود ميس الأعطاف ضامرات الخصور . اختلس ناظري نظرة من محيا مصونة منهن عندما نادى الركب بالرحيل فحيرت اللب وملكت القلب :

وذكرتني عهوداً كنت أعهدها ما بين سقط اللوى والبان والعلم

وأعطيت الحق لابن الحسين المتنبي رحمه الله تعالى في قوله :

من الجآذر في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
سوائر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدي المطي بها على نجيع من الفرسان مصبوب
قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها وخالفوها بتقويض وتطنيب
ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صقل الحواجيب
ولا برزن من الحمام ماثلة أوراكهن صقيلات العراقيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

فانظر إلى هذه الأبيات البديعة ، وتطبيق هاته الأبيات الشاهد الصدق على تفضيل نساء البادية على نساء الحضر يظهر الحق .

ومبدأ أراضيهم تبتعد عن طرابلس من جهة الشرق المائل إلى القبلة نحو شهر للأركاب .

[١٤٠] **ودان** : هذا البلد هو الآن من أعمال طرابلس الغرب تابع لمتصرفية فزان في التاريخ فناسب أن نذكره فنقول : إن الفاتح له في الإسلام عقبة بن نافع سنة ٤٢ هـ (٦٢٢) م . وفي يوم التاسع من ربيع الأنور سنة ١٣١٢ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥) دخلت صباحاً إلى ودان في رفقة من عرش التمامة المذكور ، فتلقتني أهل البلد بالفرح والسرور ، ونزلت بدار وجيه البلد السيد الأمين الشريف . وهو بلد دابر به النخل إدارة السوار بالمعصم ، وموقعها على رأس ربوة عالية تسمى المنارة ، وأرضها رمال متراكمة بعضها على بعض . وماؤها حامض رديء مسهل للبطن . وغالب أهلها إن لم نقل جميعهم من الأشراف

المعروفين بأشراف ودان ، يكرمون الأضياف ويحسنون للغرباء ، وكانت أعيانهم الأشراف لا تفارقني مدة إقامتي عندهم نخص منهم بالذكر : السيد الأمين ابن عبد المالك . السيد عبد المالك بن عبد الهادي . كولان بن عبد الله . محمد بن حسين بن أحمد . محمد بن عبد اللطيف . عبد اللطيف بن علي . الشيخ بو بكر بن أحمد وهذا شيخ زاوية السنوسية وعندي له جواب خاص فزاد في إكرامي ، وهو رجل محب في أهل الأدب إلا أن نور بصره انتقل إلى عيني بصيرته . الجميع أشراف .

[١٤١] وبناء البلد جميعه بالطين والتراب وسقوفه وأبوابه / من جذوع النخيل وبين سوكنة وهاته البلد مرحلة . والجميع يطلق عليهم الجفرة ، بينهما وبين طرابلس خمس عشر يوماً ، وبها جامع عظيم في رأس القارة .

طلبني بعض أعيانهم بأن أسرد عليهم شيئاً ممّا يتعلّق بمولده صلى الله عليه وسلم وكانت معي المواهب اللدنية فسردت عليهم شيئاً من هذا الكتاب بعد أن شرحت لهم قوله تعالى : ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ . وكان ذلك بعد صلاة الجمعة بالجامع المذكور في موكب لم يتخلف فيه إنسان من أهل البلد ، وبعد أن فض الركب أثنوا علي بأجمعهم .

وفي الليل اجتمعنا بالزاوية السنوسية وقد أعدوا بها مبيتة حافلة تعظيماً بشأن المولد النبوي الشريف يقرأون القرآن العظيم وجانباً من الأحاديث النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

ثم لمّا أردت السفر من هناك قاصداً بلد مرزق اشتروا لي جملين عظيمين من عند رجل اسمه علي بن زيد من عرش التمامة ، أصحاب سيف النصر ، وكان المذكور قاصداً بلاد القاطرون ليمتار منها . وفي يوم سفري عندما ودعتهم وهم وقوفاً يودعوني تلوت لهم قصيدة لم يخطر عندي منها بمحفوظي

إلا بعض أبيات مستهلها :

على معشر الأشراف من أهل ودان سلام كنثر المسك من قلب ولهان

إلى أن قلت :

وقد طال مكثي سادتي برحابكم فسرحوا ابن العم تسريح إحسان

ولما بلغت في سرد القصيدة إلى هذا البيت سمعت أحدهم يقول : والله لم يطل يا شيخ . ثم سرنا بسلام قاصدين جبل زاكم .

واعلم أن هاته البلد ذكرها الكثير من المؤرخين كابن الشباط في شرحه [١٤٢] على الشقراطسية والشيخ مقديش الصفاقيسي في / تاريخه والإدريسي وغيرهم . قال مقديش الصفاقيسي : وودان هي آخر بلد عامر وما بعدها إلا القفار إلى الإسكندرية وفيه نظر . اهـ .

ثم نرجع إلى ما هو المقصود ممّا يتعلق بالمملكة الطرابلسية قبل أن يذهب بنا القلم إلى ما يخرجنا عن المقصد المهم فنقول :

[١٨٨] حيث يلزمنا في هذا التاريخ الوجيز وصف عموم البلاد الطرابلسية والكشف عن جميع بقاعها وطرقها العامة لعموم الفائدة نقول : إن بين طرابلس وبنغازي ما يقرب من ثلاثين مرحلة أو أزيد من ذلك وجميعها تقرب من البحر ، وكلّها أراضي خصبة خصوصاً سرت وبرقة وهذان المكانان تقدر مساحتهما بمقدار جميع القطر التونسي وزيادة ، وفيهما الاعتدال السنوي والفصول الأربعة . وأراضي سرت لا يفارقها الغمام فهي تماثل أرض باجة من جهة المطر وأما من جهة جودة التراب فتفوق أرض باجة فإن قفيز القمح في أرض سرت ينتج في العام المتوسط الستين والسبعين قفيزاً ومثله الشعير . قال المؤرخ الشهير

مقديش الصفاقيسي [1] في تاريخ . . . : ومن مدينة طرابلس الغرب إلى مدينة سرت في جهة الشرق مائتان وثلاثون ميلاً ٢٣٠ وهي إحدى عشر مرحلة وبيانها يخرج السائر من مدينة طرابلس إلى المجتي عشرين ميلاً . ومن المجتي إلى ورداسا اثنان وعشرون ميلاً . ومن ورداسا إلى راغوغا خمسة وعشرون
[١٨٩] ميلاً . ومن راغوغا إلى تاورغا اثنان وعشرون ميلاً . ومن تاورغا إلى المنصف خمسة وعشرون ميلاً . ومن المنصف إلى قصر حسان بن النعمان الغساني رضي الله عنه أربعون ميلاً . ومنه إلى الأصنام ثلاثون ميلاً . ومنه إلى سرت ستة وأربعون ميلاً . وهذا الطريق يبعد عن الساحل البحري تارة ويقرب أخرى . قال الشيخ مقديش : وسكان ذلك كلّه قبيلتان من العرب وهما عوف ودباب وفيه عندي نظر .

وبين مدينة سرت والبحر ميلان وعليها سور من تراب ، وما استدار بها رمل ، وبها بقايا نخيل ومياهها من المطر في المواجيل وآبار قليلة وعليها قبائل من البربر يسمون زيبانة ، قوم ينتجعون الإبل ويركبون أمضاها وأسرعها خطا ، ويسيرون فرقاً إلى من تباعد عنهم من العرب ، فيغيرون عليهم وعلى إبلهم ثم يعودون بغنائمهم إلى جبالهم ومواطن مساكنهم التي يأوون إليها وليس لهم شغل إلا هذا . انتهى كلام مقديش .

وتتصل هاته البلاد من جهة الجنوب ببلاد ودان وسوكنه ؛ ولما خرجت من سوكنه متوجهاً إلى طرابلس اكترى لي الشيخ العالم الأديب سيدي محمد بازقي الطرابلسي قاضي سوكنة مع أناس من سكان الفايفي المذكورة من

---

١ محمود بن سعيد مقديش توفي عام ١٢٢٨ـ١٨١٣م وكتابه في التاريخ يسمى « نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار » طبع في جزئين ترجم فيه لعلماء تونس وبلدة صفاقس (ع . م .) .

قبيلة ورفلة وأخذ عنهم ضماناً في بلوغي سالماً إلى طرابلس حيث كانت تلك القبيلة .

ومسافة الطريق من سوكنة إلى طرابلس اثنتى عشر يوماً بسير القوافل الصحيحة وبيانها : من سوكنة إلى بونجيم أربعة مراحل . ومن بونجيم إلى بني وليد أربعة مراحل . ومن بني وليد إلى طرابلس أربعة مراحل ، وهذا المكان فيه عسة من عسكر الترك ، ويصل له التلغراف من طرابلس . ولما خرجت من سوكنة مع من ذكر لم نأتي على الطريق المذكور ، وكان في حسابي أن اليوم الرابع نبلغ بونجيم ، ولما لم نصل له في اليوم المذكور سألت عن ذلك الجمالة فأجابوني بأنهم عدلوا عن الطريق المذكور لزيارة أهلهم في تلك الفيافي المألوفة لهم ويبلغوني بعد زيارة أهلهم إلى مدينة مسراطة ولا يتيسر لهم الذهاب إلى طرابلس .

وقد بسطت الكلام في بعض حوادث وقعت لي مع هؤلاء الجمالة عندما
[١٩٠] بلغت إلى بيوتهم وما تكبدته من / المشاق إلى أن سهل الله علي بالخروج من أماكنهم بحيلة يطول بنا ذكر ذلك بهذا المختصر ، وأرى أن ذلك من ألطاف الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، وذكرت التفصيل في رحلتي الصحراوية .

[١٩٢] السلع الداخلة لطرابلس : القماش الأبيض بأنواع كالمحمود والعنبر فني وغيره . القماش المصبوغ من المالطي وغيره . أنواع السكر خصوصاً السكر القالب . التاي بأنواعه الأبيض والأسود . اللفة بأنواعها . الملف بأنواعه . الجرود يعني الحوالي بأنواعها وغالبها تأتيهم من جربة والجريد من عمل تونس . البرانس . الكساوي المحروجة والجبايب . أنواع الشاشية التونسية . القرمسود بأنواعه . جميع الروائح الطيبة من أعطار ومسك . أبزرة بأنواعها .

أنواع الأسلحة . الحلي من المجوهرات وأنواع الساعات ومن الذهب والفضة والعقيق بأصنافه وألوانه ومن المرجان . محارم من الخيط والقطن والحرير . أنواع الأقمشة المديانية وغيرها . قوالب صابون أوروباوي ممسك . الأرز . أنواع الكولونية من جميع الروائح الطيبة . أنواع أقمشة بالفضة . وغير ذلك مما يطول بنا ذكره تفصيلاً . جميع هاته السلع تأتي إلى طرابلس من أوربا وتونس والإسكندرية ومنها يرفعونها التجار إلى غات وغدامس وفزان والأقطار السودانية يذهبون بها تجاراً من أهل طرابلس وغدامس فتباع بأثمان باهظة .

[١٩٣] السلع الخارجة من طرابلس إلى أوربا : ريش النعام بأنواعه . ناب الفيل . الزبد . طيور من النعام . وأنواع الببغاء . وكل ما يأتيها من السلع السودانية . ويحزم منها القمح والشعير والسمن والزيت والفحم والطرونة والملح . والبقر والغنم والماعز والدجاج والبيض والتمر والفلفل والحنا والفول والعدس والحمص والزيت ، ويباع بثمن عال في وطن فزان ، والعسل وغير ذلك .

مراحل الطريق بين طرابلس إلى مصر ثم إلى مكة : أذكر في هذا الفصل عدد المراحل من طرابلس إلى مبدإ الحد المصري ثم منه إلى مصر القاهرة . ثم منها إلى مكة المشرفة . ويظهر لي أن ذلك هو الطريق الذي قدم منه الصحابة رضي الله عنهم لغزو إفريقية . وأذكر في أثناء ذلك الآبار والعيون التي تستقي منها الأركاب ومواقع المياه الحلوة والمرّة . وأذكر وصف هذا الطريق الطويل وما فيه من عجائب البناءات والهياكل والمدن الرومانية والغابات المتسعة والأراضي الخصبة والقبائل والشعوب . ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد لمن يروم السياحة . ولم أغفل عن ذكر بعض قبور الصحابة والأولياء المشاهير

والمعالم . وقد تتبعت ذلك فاستخرجته من الرحال المفيدة والتواريخ العديدة فنقول باختصار :

يخرج المسافر من مدينة طرابلس قاصداً مصر القاهرة صباحاً يبيت بقرية تاجوراء وقد مر التعريف بها . ثم منها إلى سدرات العشار بقرب البحر . ومن سدرات العشار إلى وادي الرمل وهو مكان خصب تخرج إليه مواشي طرابلس . ومنه إلى وادي المسيد . ومن وادي المسيد إلى وادي نبوت فتنزل من جبال مسلاتة ومنه إلى جبل النقازة . ومنه إلى لبدة وقد مرت ترجمتها . ومنها إلى بلاد ساحل حامد ومنها إلى قرية فواد ومنها إلى تارغلان ، وفيه آثار رومانية عجيبة منها قنوات تحمل الماء إلى القرية المذكورة من عين يقال لها : عين [١٩٥] كعام ، وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة / بحجارة منحوتة تحار فيها العقول . ومنها إلى زليطن وضريح الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر رضي الله عنه . ومن زليطن إلى مسراطة ، تقدم التعريف بها . وهاته المراحل كلّها صغيرة جداً من طرابلس إلى مسراطة وقد يقطعها الركب المسراطي في خمسة أيام لكن يسير مع النهار بتمامه شيء من الليل . ومن مسراطة إلى قصر أحمد ومن ورائه لا عمارة إلى الإسكندرية هكذا قال التيجاني وغيره وفيه عندي نظر لأن العمارة موجودة كما ستعرفه إنشاء الله تعالى .

ثم من قصر أحمد تدخل إلى أول برقة فتجد ماء يقال له العريعير موقعه بين السبخة والبحر ، وبعده ماء آخر موقعه يقابل بلد تاورغاء يسمى « بوكدية » وتعد هذه البلدة أول برقة وبها أعين من الماء السخن . ولما كنت داخل إلى مدينة مسراطة في وقت الضحى رأيت بعيني دخاناً كثيراً في بقاع عديدة صاعداً إلى السماء ومتراكماً بكثرة على بعد ، فسألت عنه فأجبت أن ذلك من عيون بلد تاورغاء الحارة . ومن غريب الاتفاق أن كل من يدخل بلد تاورغاء

يمرض حالاً ولذلك لا يدخلها السواح أبداً . ثم من العريعير إلى الهيشة وبالقرب منها سبخة طويلة وعلى جوانبها بناءات قصور خالية وفيها نخيل ما أوحش منظره لما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز والمعاطش التي يحار فيها الدليل . كما أنّه لا آنس منه منظراً للقادم من الحج لدلالته على انقضاء المسافات والقرب من العمايِر والمدن . وماء الهيشة ملح أجاج لا يسوغ وليس في مياه برقة أقبح منه إلاّ مواضع قليلة ولا يستسقي منه إلاّ المضطر وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب . وبآخر سبخة الهيش واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فلا الماء يذوب ولا الملح يجمد . ولم تقطع هذه السبخة إلا بعد تعب الركب التعب الشديد . ثم من الهيشة المذكورة إلى دار حسان وهي المسماة
[١٩٦] قصور حسان / قرى خالية لم يبق إلاّ آثار بنائها أضيفت لبانيها وهو عامل لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان فبنى هناك قصوراً وأقام ثلاثة سنين حتى فتح إفريقية . وبالقرب منها بير هناك وهي أول عمالة سرت . ثم من قصور حسان إلى الزعفران وهي أحساء كثيرة بساحل البحر ماؤها طيب وعليها كثبان من الرمل أحمر اللون تظهر من وراء هاته الكثبان قصور سرت وهي ثلاثة قصور تخزن فيها العرب ميرتها . ثم بعد الزعفران المغيربية وبإزائها بير طويلة وبالقرب منه معطن يقال له المُدَيَّنة تصغير مدينة على ساحل البحر به الماء وبالقرب منه ماء يقال له السلطان وآخر هاته المرحلة مكان يقال له النعيم وفي هاته الأماكن البوادي منتشرة بكثرة . ثم بعد المغيربية الأحمر وفيه ماء وأعراب كثيرة ومنه ينقل من الماء ما يكفي خمسة أيام إلى مكان يعرف بالمنعم وتسمى هاته المسافة كلّها مقطع الكبريت . ثم من الأحمر إلى بير ماؤها عذب قرب اليهودية قرى كثيرة متقاربة فيها أثر بناء خال متراكم يدل على أنّه كان عمارة . ثم من اليهودية تمر بماء يقال له الغرانيق

لا يساغ إلى سبخة مقطع الكبريت . ثم من سبخة مقطع الكبريت يبيت بالمنعم وهو مكان به أحساء من الماء العذب . ثم ترحل منه وتيامن البحر قليلاً فتبات ليلتين بالطريق وفي الثالث ليلة تأتي إلى مكان يقال له الجابية . وفي هاته المنزلة آبار كثيرة وعمارة وآثار مسجد متهدم وفي بعض حجارته نقشاً أن بناءه تم في سنة ٣٠٠ ثلاثمائة هجرية (الموافق ٩١٢ م) ويفارق البحر الطريق في المنعم فلا يجتمع مع الطريق إلى التميمي . قال التيجاني[1] أخبرني سيدي محمد ابن مساهل أن هاته المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه وقيل هي
[١٩٧] مدينة بالجبل الأخضر بجانب / البحر ، وقد أخبرني صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون أنّه رآها وأن رسومها الهائلة تدل على عمارة قوية وفيها آثار سور وأبراج ورخام كثير .

فائدة في مسمى برقة في عرف أهل البلد اليوم : وهي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوق وفيها رسوم آتية كثيرة . وإطلاق برقة على ما سواها مجاز علته المجاورة . والجابية المذكورة بينها وبين مصر شهر كما بينها وبين إفريقية شهر ثم من الجابية إلى العباد ومن العباد إلى عرارة وفيها ماء كثير . ومن عرارة إلى سلوق وهي آبار متعددة كآبار الجابية في صفاتها ومائها وبازائها رسوم بناء . وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر ، وتسمى برقة الحمراء . ومن هنا يعطف طريق آخر إلى مدينة بنغازي بينها وبين سلوق المذكور مسيرة يوم واحد ثم من سلوق تترك طريق الجبل لوعرها إلى سفح الجبل ثم من سفح الجبل إلى القرض وبينهما ماء كثير ثم من القرض إلى الخروبة وبينهما ماء كثير ثم منها إلى وادي ساملوس . وجميع هاته المراحل

---

١ صوابه : العياشي .

منتشرة بها أعراب الجبل الأخضر بأنعامهم وبها أسواق كثيرة لهم وبها سيول وشعاب منحدرة من الجبل يتكون فيها ربيع عظيم الخصب تنال منه الجمال الحظ الأوفر . . . .ثم من وادي سملوس إلى قصر المخلي وفيه ماء كثير في مواجل وهناك جابيتان متلاصقتان مبنيتان بالحجارة المرصوصة بناء متقناً طول كل واحدة منهما مائتا ذراع تجلب لها المياه الجارية من سفح الجبل ولا تخلو دواماً من الماء ، وهذا القصر من أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد وفيه أثر مسجد ومنارة باقية ومنه إلى المنيبة بيات وهي قرية خالية مشرفة على وادي كبير . ومنه إلى التميمي وماء التميمي ملح أجاج وفيه مواجل في الحجر لماء المطر . ومن التميمي هذا إلى مدينة درنة يوم ونصف ثم من التميمي إلى عين الغزالة . وبها عين من الماء العذب وأعين بها بعض ملوحة يسيرة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها ، وليس في جميع برقة ماء يجري إلا هذا . ومن عين الغزالة إلى الأرض الطيبة وهي أرض كلّها مخططة بالحرث وآثار البناء متصلة بجميع أطرافها .

[١٩٩] وعلى الطريق بيت / منحوت في الحجر طوله عشرون ذراعاً في مثلها عرضاً وفي داخله بيت آخر نحو نصفه وله غرف صغار كأنها مخازن ، الجميع نقراً في الحجر مربعاً كأحسن ما أنت ترى من البيوت وباب مربع كأحسن الأبواب . وقد حكى العبدري وصف هذا البيت وأجاد فيه . ومن الأرض الطيبة إلى المدار مكان فيه ماجل كبير مملوء بماء المطر ومنه إلى مقابل تفنة وهي منهل على ساحل البحر تمر عليه الأركاب وقت الصيف وعند قلة المطر ، وتمر أيضاً على مكان يقال له الفريض وفيه مواجل ومزارع محروثة إلى سطح العقبة ثم من سطح العقبة تسير على سطحها وهي أرض مستوية لا شيء فيها إلا آثار البناء القديم وبعض آثار المزارع إلى فم العقبة الكبرى . وفي وسط

هاته العقبة قبر يزار يقال له : قبر سيدي عزيز من عرب ساملوس تأتيه العرب بإبلهم وغنمهم يمرون بين كومين هناك ويزعمون أن من يمر بها لا تصيبه آفة في تلك السنة ويقتدي به بعض أركاب الحجاج .

فائدة في انقسام أرض برقة في عرف أهلها على أقسام أربعة : أولها من حسان التي ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت . ومن هناك إلى قرب المنعل يسمى برقة البيضاء . ومن هناك إلى سلوق يسمى برقة الحمراء ومنه إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر ومنه إلى العقبة الكبرى إلى العقبة الصغرى يسمى بين العقاب . ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى .

ثم نرجع لما كنا له من ذكر المراحل فنقول : ومن فم العقبة إلى بقبق إلى ماء يقال له الغثيل بغين معجمة ثم ثاء ثم ياء ساكنة ثم منه إلى ماء يقال له شماس وقريب منه آخر يقال له الفوار . وهاتان المرحلتان كلتاهما فيها البناء المتصل حتى لا يكاد ميل واحد يكون خالياً عن البناء والجميع خال من الناس . ثم من شماس تمر على ماء يقال له حلق الضبع وفوقه غدير كبير في أصل

[٢٠٠] جبل صغير قلما يخلو / من الماء إلى قبر العاصي وفيه قبور كثيرة معلمة بأحجار . ثم ترحل من قبر العاصي وتمر بماء يقال له : العبدية على شفير البحر وبإزائه ماء آخر يقال له : مطيريح مصغراً ، وهي آبار متعددة قريب ماؤها في بسيط من الأرض وبعده ماء آخر يقال له : مطروح وفي هاته المباتة تستقي الناس إبلها لأن ماءها حي ناعم . وفي المراحل قبلها تكاد أن لا تشرب لأنها ترعى العشب الرطب والإبل إذا وجدت الكلأ لا تشرب . ثم من مطروح إلى العقبة الصغرى . . . .

محتويات الكتاب

ليبيا في المؤلفات الجغرافية

١ — كتاب البلدان لليعقوبي . . . . ٨ — ١٢
وصف المنازل — برقة — سرت — ودّان — زويلة — فزان — أطرابلس .

٢ — المسالك والممالك لابن خرداذبه . . ١٤ — ١٥
ذكر المسافات من الفسطاط إلى برقة — من برقة إلى المغرب .

٣ — كتاب الخراج لقدامة . . . . ١٦ — ١٨
ذكر المسافات في منطقة ليبيا .

٤ — المسالك والممالك للكرخي . . . ١٩
وصف برقة — طرابلس — المسافات مجملة .

٥ — صورة الأرض لابن حوقل . . . ٢٠ — ٢٥
برقة — أجدابية — أوجلة — سرت — أطرابلس — جبل نفوسة — خراج برقة والمغرب .

٦ — أحسن التقاسيم للمقدسي . . . ٢٦ — ٢٧
برقة — أطرابلس — أجدابية — سرت — المسافات .

٧ — المسالك والممالك للبكري . . . ٢٨ — ٤١
ذكر المسافات — برقة — أجدابية — سرت — أطرابلس — مغمداس — عودة إلى ذكر أطرابلس — جبل نفوسة — شروس — زويلة — حراسة أهل زويلة لبلدهم —

أهل كانم – سبهى – ودان – ذكر المسافات – أخبار تاريخية عن فتح ودان – الطريق من أوجلة إلى الواحات – عرب بني قرة وواح صبروا .

٨ – نزهة المشتاق للإدريسي . . . ٤٢ – ٥٥
فزان – ودّان – زويلة – الواحات – زالة – أطرابلس – المسافات – صرت – جبل نفوسة – المسافات – لبدة – برقة – المسافات – أجدابية – المسافات – ودّان – زويلة – الطريق الساحلي وذكر المسافات .

٩ – كتاب الاستبصار . . . . ٥٦ – ٦٣
أطرابلس – برقة – أجدابية – شروس – غدامس – زويلة – بلاد الواحات .

١٠ – معجم البلدان لياقوت . . . ٦٤ – ٧٨
أجدابية – أطرابلس – أملس – أنطابلس – أوجلة – أوجلى – برقة – تاجرفت – تمسّا – جادو – جرمة – خاور – الرمادة – زويلة – سرت – سروس – سنّرية – سهو – سبهى – طرابلس – طلموية – غدامس – فزان – قصور حسان – كاوار – كوار – لبدة – لوبية – ماء فرس – مخيل – مرمى – ودّان .

١١ – آثار البلاد للقزويني ٧٩
زويلة – طرابلس .

١٢ – بسط الأرض لابن سعيد . . . ٨٠ – ٨٤
غدامس – فزان – زويلة – سرت – طرابلس – لبدة – مسراتة – برقة – المرج – درنا – طلميثة .

١٣ – تقويم البلدان لأبي الفدا . . . ٨٥ – ٩١
فزان – زويلة – سرت – برقة – أوجلة – زالة – جدول بما مرّ .

ليبيا في كتب الرحلات

١ – رحلة ابن العربي . . . . ٩٥ – ٩٧
نزول ابن العربي على بني كعب بن سليم ببرقة – لعب الشطرنج .

٢ – رحلة العبدري . . . . ٩٨ – ١١٥
زوارة وزواغة – زنزور – طرابلس – القاضي ابن عبد السيد – أسئلة في مجلس ابن عبد السيد – رأي العبدري في تلك الأسئلة – قبة باب البحر بطرابلس – آثار إفريقية – حملة العبدري على أهلها – رأي العبدري في حكم السفر فيها – بلاد مصراطة – قصور سرت – برية سناتة ومنهوشة – وصف أحوال سكانها – حال النساء – بيت منقور في الصخر – وصف برقة – فصاحة عرب برقة ولغتهم – وصف ما رآه العبدري في عودته .

٣ – رحلة ابن رشيد السبتي . . . ١١٦ – ١١٨
سفر ابن رشيد من الاسكندرية بحراً – لجوء السفينة إلى طبرق – مرسى هوارة – أطرابلس – لقاء شيخها ابن عبد السيد – وصف مدينة طرابلس – دخول ابن رشيد مدرستها – مغادرتها إلى المهدية .

٤ – رحلة التجاني . . . . ١١٩ – ١٧٩
أبو العباس التاجوري – صلة مدافع بطرابلس – قراقوش في طرابلس – مهاجمة الميورقي لطرابلس – الحرب بين قراقوش والميورقي – سبب وصول قراقوش إلى تلك البلاد – مذهب الخوارج – رويفع بن ثابت – قرية أجاس – ذكر الحرب بين جعفر بن حبيب ويانس الصقلي عند زنزور – غمراسن – مرض اللحياني وتخلفه عن الحج – المجاعة في برقة – تاذر – قصر صالح – تافضلات – زوارة الصغرى – لقاء الشيخ عبد الرحيم الزواري ومجادلته – قصر وزدر – زوارة الكبرى – ولول – تليل – زواغة – صرمان – زاوية أولاد سهيل وأخبار عن الوشاحيين – وصف الزاوية – لماية – زنزور – أهل

زنزور من هوارة ثم من مجريس – العلاقة بين المجريسيين ومرغم بن صابر الدبابي – الفقيه أبو يحيى المجريسي – قبر الحكيمي – مسجد سيقاطة – المساجد على الساحل – غلبون أمير آل سالم – دخول طرابلس – مسجد العشرة – الرياض موضع الوالي – حمام البلد – شوارع طرابلس – سور البلد – تاريخ افتتاحها – طرابلس في عهد العبيديين – في يد بني خزرون – خضوعها لرجار – شيخها ابن مطروح – تخلص طرابلس من الحكم الصقلي – تبعيتها للموحدين – وصول قراقوش إليها وطرف من أخباره – تفصيل في مساجدها : الشعاب ، خطاب ، الجدود ، المجاز – مدارس البلد وأهمها المنتصرية – بعض آثارها البارزة – مسجدها الأعظم – الشيخ أبو فارس عبد العزيز بن عبيد : دروسه ، تدريسه بالقصبة ، إجازته ، شيوخه – اعتماد طرابلس على البحر – قبر الشيخ عبد الوهاب القيسي – ابنه – أبو إسحاق الأجدابي ومؤلفاته – ابن المنمر الطرابلسي وثورته على العبيديين – محنته وسببها – مقابر طرابلس – الهرغي الثائر بطرابلس وسبب ثورته – ضبط اسم طرابلس – فضلاء طرابلس : ابن أبي الدنيا ، ابن معمر الهواري ، أخوه أبو موسى – الارتحال إلى تاجورة – مشاهير المنسوبين إلى تاجورة – غافق – وادي الرمل – قبر شهوان بن عيسى الدبابي – عين تامدنت – شجر العشر – عين فارة وقصرها – مرض التجاني – عين ودرس – غاتيمة وقبر ابن المنمر بها – بئر ينوت – حصن سلمة – تاغرمت – العودة إلى طرابلس – حصن تليل – بئر الزكرة – وادي الزركين – العودة إلى قابس .

٥ – رحلة ابن بطوطة ١٨٠

طرابلس – زواج ابن بطوطة بها – خروج الركب منها – دفع أبي عنان فدية مالية لإنقاذ طرابلس .

٦ – رحلة العياشي . . . . . ١٨١ – ٢٥٤

زواغة – ركب الجزائر – إبراهيم بن جلاب الريفي – دخول مدينة طرابلس – وصفها – امتيار الحجاج منها – إبلها – ركب الإبل وركب البغال والحمير – أحمد بن عيسى اليربوعي – ابن مساهل – شيء من الأخبار السياسية – لطائف

وغرائب – شعبان بن مساهل – استيلاء العثمانيين على طرابلس – سبب استيلاء العدو عليها قبل ذلك – محمد المكني – ذكر الرحيل من طرابلس – سرقة الحجاج – المكس عند الخروج منها ومقابلة باشة البلد – سدرات العشار – وادي الرمل – رجل يزعم أنه شريف – وادي ينوت – قصة أبي الحسن النفاتي – لبدة – سبب زرع الزيتون فيها – ساحل حامد – قبر سيدي مفتاح – وادي تارغلات – بلدة زلتين – زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر – سيدي بو مجيب وأخبار عنه – محمد بن أبي القاسم – رأي المؤلف في السماع – أبو العباس ابن أحمد – علي بن عزازة – صورة تركة الشيخ أبي العباس زروق – سيدي أبو تركية – قصر أحمد – قبر أبي شعيفة – دخول برقة – ماء العريعر – أبو كدية – تاورغا – الهايشة – دور حسان – الزعفران – قصور سرت – أمكيريته – المدينة – سيد روحه – المنعم – العويجة – مزارع أولاد سيدي ناصر – اليهودية – قصر العطيش – مسمى برقة – برقة الحمراء – حاصلات الجبل الأخضر – حال أهله – الخطاطيف – سوى وتمرها – قصر المخيلف – درنة – قضية الصوم في السفر – بيت منحوت في الحجر – دفنة – العريض – قسمة أرض برقة – المرور بعدة أمواه – مساعدة الحجاج للرعاة بأجر – العودة من الاسكندرية – وصف المراحل والمنازل في طريق العودة – الفتنة بين أهل درنة وأميرها – شيء من أخبار الأحوال السياسية في ليبيا – المنعم – قصور حسان – قصر أحمد – تكيران – زاوية سيدي عبد السلام – لقاء أهل طرابلس للحجاج – عبد الحفيظ بن محمد اليربوعي – ابن مساهل – عدم ورود نقود للمؤلف من بلده – محاولته الحصول على مال لسداد دين – سيدي أبو راوي – تزيين طرابلس – دخول ركب تونس – عاشور القسمطيني – المؤلف يحاول أن يحد من بشرح قواعد الشيخ زروق – كتابه إلى المدينة – محمد المكني – عبد الكريم بن الفكون القسمطيني – الارتحال من طرابلس – زنزور – الزاوية الغربية – الزاوية الشرقية .

٧ – رحلة ابن ناصر . . . . . ٢٥٥ – ٢٥٧

الباشا خليل – هجوم الصقليين على طرابلس – حالة الناس عند الهجوم – الصلح بين الفريقين .

٨ — صفوة الاعتبار لبيرم . . . . ٢٥٨ — ٢٦٠
حالة ولاية طرابلس أواخر أيام الحفصيين — استيلاء النابلطان عليها — استدعاء الدولة العثمانية لإنقاذها — استقلالها ثم استيلاء الدولة العثمانية عليها سنة ١٢٥١

٩ — رحلة الحشائشي . . . . . ٢٦١ — ٣١٦
فصل في أهل بلد طرابلس — وصف الجامع — وصف البلد — خيراته — صادراته وارداته — الفلاحة في طرابلس — الحالة العسكرية — مرسى طرابلس — أحكام المدينة — مدى انتشار اللغة الفرنسية — أعمال طرابلس — وصف فزان — مرزق — استقبال المتصرف الجديد في مرزق — قاضي مرزق — تجارتها — وصف معالمها البارزة — أعيانها وتجارها — غلاها — نساؤها — سوق البلد — الأسعار فيه — المزارع — الماء في مرزق .

الكلام عن بنغازي والجبل الأخضر : عوائد أهل بنغازي لدى قدوم السفن — السفن المترددة إليها — مرسى البلد — الرياح فيها — أهالي البلد — السلع الداخلة إليها — الفلاحة — الحيوانات — الأسعار — المساحات الشاسعة من الأراضي — الغلال — أهل برقة — الجبل الأخضر — السكنة في بنغازي — شكل البلدة — المساجد فيها — لباس أهلها — تجارتها إلى واداي — مدينة شحات والاسفنج والآثار القديمة — احتيال الانجليز لأخذ الآثار — تلقط العربان للآثار — أطلال الرومان — المرج — حاصلات الجبل الأخضر — سكان الجبل وأحوالهم — عود إلى الحديث عن الفلاحة .

الحديث عن درنة : مدينة مسراطة — الفلاحة فيها — وصف أهلها — أسواقها الثلاثة — اتجارها مع طرابلس — تجارها — عساكرها — الرعايا الغرباء فيها — مبانيها — ضريح سيدي أحمد زروق — خروج المؤلف منها — مقام الشيخ عبد السلام الأسمر .

بلوغ الحشائشي إلى تاجوراء — دخول طرابلس — آثار لبدة .

الخبر عن غات وذكر التوارق : وصف المنطقة عموماً — أهل غات وعاداتهم — حاكم غات وشيء من تاريخ الحكم فيها — علاقة غات بالدولة العثمانية — استقبالها لتاجر السودان — تجار غات — تعلق أهل طرابلس بالتجارة إلى غات وتاريخ ذلك — علاقة غات بتونس — ناصوف وتحول التجارة إلى

طرابلس — وصف ناصوف — إثبات أن غات وغدامس كانت تابعة للملوك تونس — المتاجر المجلوبة إلى تونس — أسباب تحول التجارة إلى طرابلس — عقيدة أهل غات .

شيء عن التوارق — الرجال المشهورون منهم — وصف طباعهم — أسلحتهم — أعدادهم — أهم قبائلهم — مراكب أشرافهم — ملابسهم وزيهم — زواجهم — مساكنهم — وراثة الملك فيهم — توقعهم الإكرام ممن يحل بأرضهم — تعظيمهم لتونس وسلعها — أعيان قبيلة فوغاس منهم — بعض تصرفات كراجي من قبيلة أزقر .

غدامس — وصفها — طباع أهلها — تمسكهم بالسنوسية — علاقتهم بتونس — نشاطهم في تجارة السودان — ذكر بعض أعيانهم — عود إلى وصف تاجورا .

برقة — تسمية قبائلها — التعريف بسيف النصر — زعيم برقة — تجارة أهل برقة — اللغة فيها — وضع النساء في برقة .

ودّان — تاريخ الفتح — وصف البلد — تسمية أشراف ودان — مباني البلد الزاوية السنوسية فيه — ليلة المولد النبوي — وداع المؤلف لأهل ودان .

وصف عام للبلاد الطرابلسية : المساحة — أراضي سرت — المسافات بين المدن الطرابلسية — وصف المنطقة بين سرت والبحر — ذكر مسافات أخرى — السلع الداخلة إلى طرابلس — السلع الخارجة منها إلى أوروبة — مراحل الطريق من طرابلس إلى مصر .

مصادر الكتاب

١ — اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (— ٢٨٤) : كتاب البلدان (مطبوع مع الأعلاق النفيسة لابن رستة وهما معاً الجزء السابع من المكتبة الجغرافية ، ط . ليدن ١٨٩٢ وتحقيق دي غويه) .

٢ — ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (حدود ٣٠٠ هـ) . كتاب المسالك والممالك ، وهو الجزء السادس من المكتبة الجغرافية ، ط . ليدن ١٨٨٩ وتحقيق دي غويه .

٣ — أبو الفرج ، قدامة بن جعفر (— ٣٢٠) : كتاب الخراج : قطعة منه (مطبوعة مع الكتاب السابق) .

٤ — الكرخي ، إبراهيم بن محمد الفارسي (النصف الأول من القرن الرابع) : كتاب المسالك والممالك تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني ، الجمهورية العربية المتحدة ١٣٨١ — ١٩٦١ .

٥ — ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني (٣٨٠) : كتاب صورة الأرض ، ط . دار مكتبة الحياة ببيروت (دون تاريخ) .

٦ — المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري (حوالي ٣٨٠) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غويه ، ط . ليدن ١٩٠٦ (طبعة ثانية) .

٧ — البكري ، أبو عبيد (٤٨٧) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك (تحقيق دي سلان ، ط . الجزائر ١٨٥٧) .

٨ — الشريف الإدريسي (٥٤٨) : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تحقيق هنري بيريس (الجزائر ١٣٧٦ — ١٩٥٧) .

٩ — مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (في القرن السادس الهجري) ؛ نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

١٠ — ياقوت بن عبد الله الحموي (— ٦٢٦) : معجم البلدان (١ — ٦) تحقيق فردنند وستنفلد ، (ليبسك ١٨٦٦) .

١١ — القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (— ٦٨٢) : آثار البلاد وأخبار العباد ، ط . دار صادر ، بيروت ١٣٨٠ — ١٩٦٠ .

١٢ — أبو الحسن علي بن سعيد (— ٦٨٥) بسط الأرض في الطول والعرض تحقيق الدكتور خوان قرنيط خينيس (تطوان ١٩٥٨) .

١٣ — أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن محمد (— ٧٣٢) : تقويم البلدان ؛ تحقيق رينو ودي سلان ، باريس ١٨٤٠ .

* * *

١٤ — أبو بكر ابن العربي المعافري (— ٥٤٣) : قام برحلته سنة ٤٨٥ وله فيها مؤلف لم يصلنا ، وهذه القطعة من كتابه « قانون التأويل » اقتبسها المقري في أزهار الرياض ٣ : ٨٩ ونفح الطيب (المجلد الثاني : ٢٥ ط . دار صادر في بيروت ١٩٦٨) .

١٥ — محمد العبدري البلنسي : قام برحلته من حاحة بالمغرب سنة ٦٨٨ ، وقد طبع قسم من رحلته في الجزائر بتحقيق الأستاذ أحمد بن جدو (دون تاريخ) .

١٦ — ابن رشيد السبتي : ملء العيبة (ابتدأ برحلته سنة ٦٨٥) واعتمدنا فيها على مخطوطة الاسكوريال رقم : ١٧٣٦ .

١٧ — التجاني عبد الله بن محمد : تقييد الرحلة (قام بها من سنة ٧٠٦ إلى سنة ٧٠٨) ؛ تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية بتونس ١٩٥٨ .

١٨ — ابن بطوطة (— ٧٧٩) (قام بثلاث رحلات رتب الخبر عنها ابن جزي) ط . دار صادر ودار بيروت (بيروت ١٣٧٩ — ١٩٦٠) .

١٩ — أبو سالم العياشي عبد الله بن محمد بن أبي بكر (— ١٠٩٠) : الرحلة العياشية أو ماء الموائد (ط . فاس ١٣١٦ في جزءين كبيرين) .

٢٠ — ابن ناصر أبو العباس أحمد بن محمد (قام برحلته سنة ١١١٩) وقد طبعت رحلته إلاّ أننا لم نستطع الحصول على نسخة منها وما أثبتناه منها هو ما اقتبسه الحشائشي في رحلته .

٢١ — بيرم ، محمد بن مصطفى (— ١٣٠٧) : صفوة الاعتبار (في ٥ أجزاء .)

٢٢ — الحشائشي ، محمد بن عثمان : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، نشرت بتحقيق الأستاذ علي المصراتي ، بيروت ١٩٦٥ .

خاتمة

قد رأينا أن نقرب هذه المادة من أيدي القراء والدارسين بجمعها معاً بين دفتي كتاب ، دون أن نثقلها بالتعليقات والحواشي ؛ ولم يكن ما جمعناه هنا كلّ ما أردناه بل هو ما استطعنا الحصول عليه ، راجين أن يتاح لنا — من بعد — مزيد من هذه المادة التي لا تزال محجوبة أو نائية .

وحرصنا في هذه المجموعة على مراعاة الترتيب الزمني وعلى إبقاء أسماء الأماكن كما يكتبها كل مؤلف ، وعلى الاحتفاظ بلغة المؤلف دون تغيير ، وإن كانت أحياناً خارجة على قواعد اللغة وسلامة العبارة ؛ كذلك أبقينا لكل مؤلف — وخاصة أصحاب الرحلات — حقّ التعبير عن انطباعاتهم وإن جاءت في بعض الأحيان جائرة أو ناقصة أو مبنية على التحامل .

ولا بد من فهرست عام لهذا السفر وبقية الأسفار التي تصدر بعده ، لتسهّل على الدارسين الانتفاع بها .

وإنه ليسعدنا أن ينال عملنا رضى المثقفين من إخواننا الليبيين وسائر الدارسين الذين يعنيهم البحث في جغرافية هذا القطر العربي الشقيق وتاريخه .